BOBST LIBRARY
3 1142 02821 4966

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

DATE DUE

DEMCO 38-297

70-962254

نهضة الحسين

بقلم الحجة الاكبر السيد

هبة الدين

الحسيني الشهرستاني

من منشورات

رابطة النشر الاسلامي

كربلاء - العراق

قدّم له

علي الخاقاني

al-Shahrastānī, Hibat al-Dīn ---

منشورات رابطة النشر الاسلامي

ـ كربلاء المقدسة ـ

Nahḍat al-Ḥusayn

نهضة الحسين

بقلم الحجة الاكبر السيد

هبة الدين

الحسيني الشهرستاني

١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

مطبعة دار التضامن

BP
80
.H8
S52h
1969
c.1

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى في سنة ١٣٤٤هجرية ـ ١٩٢٥ ميلادية
أصدرته مجلة (المرشد) البغدادية
ببغداد

الطبعة الثانية في سنة ١٣٥٥ هجرية ـ ١٩٣٧ ميلادية
مع اضافات وشروح من المؤلف ومقدمة من الناشر
التاجر الحاج علي الحاج حسون الجابري

الطبعة الثالثة في سنة ١٩٦٥ هجرية ـ ١٩٤٦ ميلادية
اعادة للطبعة الاولى دونما اضافة
من قبل صاحب المكتبة الحيدرية الشيخ محمد كاظم الكتبي
في النجف الاشرف

الطبعة الرابعة في سنة ١٣٧٧ هجرية ـ ١٩٥٨ ميلادية
اعادة للطبعة الاولى مع اضافة سبعة فصول
جديدة من المؤلف الى الكتاب
أصدرته دار الاحياء للكتب الاسلامية
في النجف الاشرف

الطبعة الخامسة في سنة ١٣٨٨ هجرية ـ ١٩٦٩ ميلادية
حوت كافة الفصول المضافة والمقدمات ، مع ترجمة المؤلف
أصدرتها رابطة النشر الاسلامي في كربلاء المقدسة

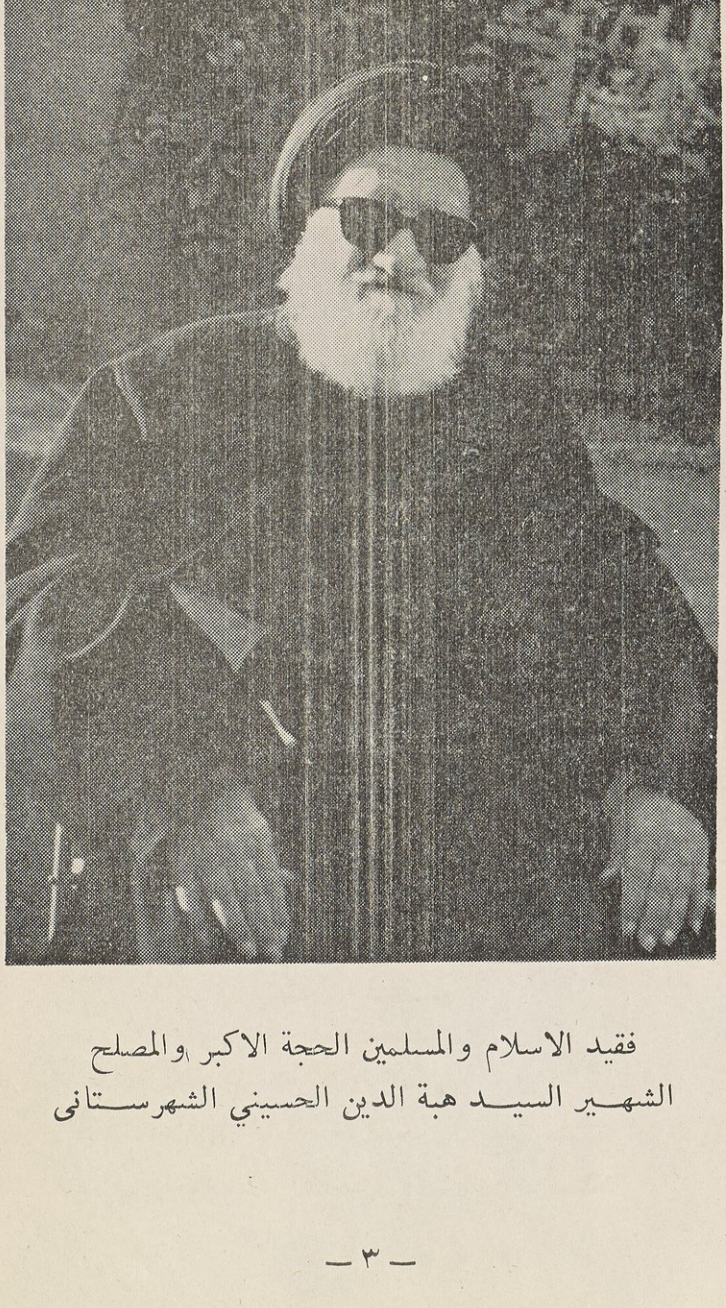

فقيد الاسلام والمسلمين الحجة الاكبر والمصلح
الشهير السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني

حيـاة المؤلف
السيد محمد علي هبة الدين الحسيني
الشـــهير بالشهرستاني

المتولد ١٣٠١ هـ والمتوفي ١٣٨٦ هـ
الموافق ١٨٨٣م ــ ١٩٦٧م

بقلم علي الخاقاني

هو الحجة السيد هبة الدين محمد علي بن الحسين العابد بن محســن الصراف بن المرتضى بن محمد بن الامير السيد علي الكبير بن منصور بـن شيخ الاسلام ابي المعالي محمد نقيب البصرة بن احمد بن شمس الدين محمد البازباز بن شريف الدين محمد بن عبدالعزيز النقيب بن علي الرئيس بن محمد ابن علي القتيل بن الحسن النقيب بن أبي الفتوح محمد بن شريعة الملة الحسن ابن عيسى بن عزالدين عمر بن أبي الغنائم محمد بـن محمـد النقيب بـن الشريف ابي علي الحسن بن ابي الحسن محمد التقي السابسي بن ابي الحسن محمد الفارس النقيب بن يحيى نقيب النقباء بن الحسين النسابة النقيب بـن أحمد المحدث بن عمر بن يحيى بن الحسين ذي الدمعـة بن زيد الشـــهيد ابن الامام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب .

وأسرته المعروفة في كربلاء بآل السيد علي الكبـير المتوفى فـي أوائل القرن الثالث عشر الهجرى لها فروع في كل من كربلاء والنجف والكاظميـة، أما في كرمنشاه وهمدان وطهران فقد نزحوا اليها من العراق قبل قرن كامل واتسعت فروعها هناك ، وكذا اخواله الشهرستانيون فاسرتهم ايضا منتشـرة في العراق وايران .

ولد في سامراء ظهيرة يوم الثلاثاء ٢٣ رجب من عـام ١٣٠١هـ ونشـأ بها على ابيه الذي رعاه ووجهه كما يريد الله والنـــاس مـن حب العلـم وارتابه وكان للمدرسة الاولى (الام) فضل كبير في زرع الثقافة بذهنـــه وصقل حسه المبكر ، وقد كانت كما تدل آثارها من الشاعرات الفاضلات ،

وهكذا نشأ بين أبوين صالحين عالمين ، نما وترعرع في جو كان يهيمن عليه اكبر زعيم ديني هو السيد ميرزا حسن الشيرازي الذي صدع الغرب بجرأته وقوته الدينية ، وزعزع اكبر جانب اقتصادي له بتحريمه وفرضه على الشاه ناصر الدين ان يلغي الاتفاق معه بخصوص امتياز التنباك وذلك عام ١٣٠٧ هـ ، وكان الوليد الحي آنذاك يسمع بهذه العواصف ، ويتحسس هذه الزوابع التي تربى النفسيات على الاعتداد والاعتزاز ، خاصة وان رجل الدين هو فوق رجل السلطة والسياسة ، وراح ينظر سامراء وهي تعج بالافذاذ والاقطاب من اعلام العراق وايران والهند تحج بيت الشيرازي وتخشع بعد زيارة الامامين العسكريين (ع) .

رجع بعد وفاة الشيرازي مع والده الى كربلاء موطن الاباء وهنا تبدأ ادوار حياته التي رأيت ان اقسمها الى سبعة وهي :

١ ـ هاجر من كربلاء الى النجف في شعبان من عام ١٣٢٠ هـ بعد ان نشطت معارفه ، والفضل كما ذكره ـ حفظه الله ـ يعود الى الزاهد السيد مرتضى الكشميري فقد زار كربلاء في رجب من السنة نفسها وقصد المترجم له في بيته يعزيه بوفاة ابيه لقرب الزمن بالوفاة ودار البحث حول خواطر علمية وعلى اثرها حسن له الهجرة الى النجف والحظوة باندیتها العلمية والاستفادة من مركزها العالمي ، فأعتذر له اولا لوجود موانع عائلية ، ثم التقى معه بالحرم الحسيني ليلة الجمعة اوائل شعبان فألح الكشميري عليه وامره بالاستخارة في كتاب الله فاذا بالآية (وجعلنا ابن مريم وامه آيتين وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) وكانت من الصدف ان ام المترجم له اسمها (مريم) واشبع له القول حول تفسير الآية ومصادفتها العجيبة ، وعلى الفور هاجر بوالدته وتوطن النجف مدة خمسة عشر عاما ، يختلف خلالها على الحلقات العلمية ويحضر الحلبات الادبية واول عمل قام به هو فتحه لابواب التدريس في العلوم الاربعة البلاغة ، المنطق والفلسفة ، الهيئة والنجوم ، اصول الدين وفروعه ، وكان لبقا عجيبا ومصورا بارعا

فانهالت عليه جموع من الشباب الذكي من مختلف الاسر الروحيـــة كآل الجواهري وآل كاشف الغطاء وآل الشبيبي وآل الجزائـــري ، ورمقه أساتذته امثال ابي الاحرار الشيخ ملا كاظم الخراساني وشيخ الشريعة والسيد كاظم الطباطبائي . وفي خلال السنين الثلاث الاول من بقائه امتد طموحه فاتصل بصحف القاهرة واندیتها العلمية ومطبوعاتها التي صارت ترد عليه بكثـــرة مع فقدانها عند غيره ، فتجمع عليه المتعطشون من ابناء العلم الذيـــن حجبت عنهم ، وفي هذه الآونة من اوائل حياته انتج اول اثر قيـــم له هو كتـــاب (الهيئة والاسلام) الذي وسع افق الذهنية الدينية وفتح لها ابوابا جديـــدة مـــن العلم والاتصال بالفكر الغربية والمخترعات الحديثة آنذاك .

٢ ــ بدأ اشتغاله بالسياسة في عام ١٣٢٤ هـ حيث قـــام العلمـــاء في طهران يطالبون الحكومة بالعدل والشورى والدستور وكبيرهم آنذاك ابن عمه الامير السيد محمد الشهير بآية الله الطباطبائي والسيد عبدالله البهبهاني فصار المترجم له يستمد المعلومات السياسية والتطورات الفكرية حولها منهما، كما يتصل بالوقت نفسه باقطاب الفكر الحي في مصر ، واشتدت صلتـــه باستاذه الخراساني وشجعه على استمراره بنشاطه ، وقوى نفسيته جمـــوع مـــن الشباب المتيقظ مـــن احرار النجف وطلبوا منه اصدار مجلة علميـــة سياسية فلبى طلبهم واصدر مجلته (العلم) في ذلك الدور المظلم ، واستمـــر في اصدارها حولين كاملين كانت اعدادها كالشواظ تلهب النفوس وتوقـــظ الغافلين مـــن ذوي المواهب ، وحام حوله فريق ممن نما الوعي فيه واكتمـــل فساندوه على نشرها ، وكان صداها في العالم الاسلامي والعربي يردد بقـــوة كما كانت تصل الى ابعد الحواضر الغربية ، وكانت كمدرسة تعلم الشبـــاب معنـــى الجهاد والعمل ، ومبادلاتها التى تأتيها مـــن كتب ومجلات مـــن مختلف الدنيا لها ابلغ الاثر في تغذية نفوس الشباب الحر الذي انعزل عـــن الدنيا ولم يعرف ما يجرى فيها ، فكان بفضل (العلم) ان اتصـــل بالعالمـــين الشرقي والغربي اتصالا فكريا وسياسيا وانبثقت اراء له حرة جريئة انعكست اصداؤها على الخارج ما دعا ان تلقب النجف بمدينة الاحرار وان يستفاد

بها كأداة صالحه لقلب مباديء ، وخلق دول حرة تستند على الشورى والرأي ونبذ الاستبداد ، وتعاون معها احرار طهران واستانبول لتفهيم الرأي العام الاسلامي وحمله على مقاومة الشاهات والسلاطين المستبدين من آل عثمان .

٣ ـ وبعد ان انتشر صيته وتعالى اسمه قام بسفرات في مختلف العواصم الشرقية من عربية وايرانية وهندية ، فدخل سوريا ولبنان ومصر والحجاز واليمن وزار الهند فمكث بها اكثر من عام ، ولم يقتصر على الدعاية للدين والوطن فحسب بل راح يلهب شباب تلك الاقطار بتأسيس الجمعيات والنوادي واصدار الصحف ونشر المعارف والعلوم ، وقد سجل ذكرياته في رحلته هذه ووصف فيها ما دار بينه وبين اعلام تلك المدن التي دخلها ، وقد استغرقت رحلته هذه ثلاث سنوات بدأ فيها من اوائل عام ١٣٣٠ هـ الى ١٣٣٣ هـ وعاد في اول رمضان من تلك السنة الى النجف حيث اخذ يقص على اخوانه وتلامذته ما شاهده ، ويوقظ فيهم روح الحماس للتطلع الى تلك الاقطار وما فيها من تطور .

٤ ـ وهذا الدور يبدأ بجهاده ومناوءته للاستعمار وجيوش الانكليز التي صارت تزحف على العراق ، والروس الذين اخذوا يحتلون ايران ، واستأنف محاضراته على اخوانه وتلامذته بايقاظ الهمم والسعي وراء مطاردة المعتدين ، وعلى اثر حركته هذه زاره قائمقام النجف (بهيج بك) وابلغه برقية رمزية من والي بغداد (حسين جاويد) ورغبته بالحضور الى بغداد لمشورة معه مهمة ، فسافر اليه في ١٢ رمضان من عام ١٣٣٣ هـ فسر اليه الوالي ان الحرب الالمانية الانكليزية بدأت في اوروبا ولابد انها ستشمل الممالك العثمانية حسب ما علمت من ناظر الحربية (انور باشا) فهل ترى من تدبير لمحافظة العراق وولاء العشائر لنا وصد هجمات الاعداء ، فأبدى له الخطة الراجحة والرأي السديد الذي اذا سلكه فسيفوز ، ومن ذلك الحين بدأ يحكم الصلات بين رجال الدين وبغداد ونظارة الحربية في الاستانة ، ووحد الرأي بين علماء كربلاء والنجف ، وكان في مقدمة المؤيدين

له السيد كاظم اليزدى الذي اعلن رأيه بوضوح وجرأة ، وصعد على منبر وضع له في مقام المهدي بوادي السلام وكان يوم الغدير وجموع العشائر احتشدت في النجف تزور هذا اليوم ، فكان الى جنبه المترجم له يوضح للناس رأي اليزدي باسلوب يقربه من فهم الجماهير له ، وكانت الحكومة العثمانية قد دخلت الحرب في اوائل عيد الاضحى من عام ١٣٣٣ هـ فسارت جموع العلماء من النجف لحفظ الثغور العراقية وفي مقدمة الجناح الايمن السيد محمد سعيد الحبوبي وقد اتجه نحو (الشعيبة)، وفي القلب(القورنة) شيخ الشريعة والسيد ابو القاسم الكاشاني والسيد مهدي آل السيد حيدر ، وفي الجناح الايسر السيد محمد اليزدي والشيخ جعفر آل الشيخ راضي وهو الاهواز ، وتحرك المترجم له في اوائل محرم من عام ١٣٣٣ هـ من طريق الفرات بجمع العشائر من آل فتله وبنى حسن والعوابد وغيرهم الى السماوة فالمنتفك فسوق الشيوخ الى ان التحق بالشعيبه من الجناح الايمن ، وهناك مفرزة تحت أمرة (علي بيك) و (احمد اوراق) التحق بهم الوالى (سليمان عسكري باشا) وقد صور الحوادث التى وقعت فيها وما اصاب الجيش المجاهد من خذلان بكتاب اسماه (الخيبة في الشعيبة) وبعد ان عادت الجموع وانسحبت الجيوش رجع المترجم له الى النجف وقد الم به المرض ، وفي هذه الحالة اتصل به (حمزه بك) متصرف كربلاء طالبا منه رسم خطة المكرة الى الجهاد عن طريق كوت الامارة مع السيد الحيدري وجماهير العلماء والعشائر تحت قيادة (محمد باشا الداغستاني) والتحق بهم (خليل باشا) والي بغداد ، وزارهم من جبهة الكوت (فندر غليج باشا الالماني) وكان النصر حليفهم في هذه المرة ، فقد اسروا الجيش الانكليزي الذي حوصر وعدده اثنى عشر الف مع قائده الجنرال (تاوند زند) واخبار هذه الكرة لا نقوى على تفصيلها الآن .

٥ ــ وهذا الدور الذي ظهر فيه كبطل في الثورة العراقية التى بدأت بعد احتلال الانكليز لبغداد والبصرة ، فقد قطن خلاله في كربلاء واخذ

يكون حلقات في مدرسة باب السدرة يلقى فيها محاضرات في التفسير ويؤلف الكتب التي تشيد بهذا الفن وغيره ، وانتعشت حركة الشباب الروحية ، وفي عهده هذا انتقل الحجة الخالد الذكر الشيخ محمد تقي الشيرازي من سامراء الى كربلاء فاتصل به المترجم له مع من اتصل به من احرار النجف وقوى صلاته به وكانت النتيجة ان تبنى الامام الشيرازي حركة الثورة المقدسة ومطالبة الانكليز بالجلاء ونيل العراق للاستقلال التام فكان المترجم له احد اعضاء هذه الحركة الفعالة ، ومن ابطالها من ذوي الرأي والتدبير ، وقام بامر استاذه وقائده ممثلا كربلاء مع صديقه الشيخ احمد ابن الشيخ ملا كاظم الخراساني في بغداد عند السير ولسون الحاكم السياسي العام عام ١٩٢٠ م بعد ان القى الانكليز القبض على مجموعة كبيرة من رجال الحركة ومنهم الشيخ محمد رضا نجل الامام الشيرازي وعمر الحاج علوان ، ولما عاد المترجم له ورفيقه الى كربلاء بخفي حنين اطلقت على الانكليز اول رصاصة بالرميثة والتهبت عشائر آل فتلة والخزاعل وبني حسن والعوابد وغيرهم ممن سجل جهادهم التاريخ الصادق وتسربت الى كربلاء واطراف الحلة والنجف ونواحيها فاخرجوا الحكام الانكليز منها وقطعوا خطوط المواصلات عليهم ، واسقطوا نحو ثمانية طائرات حربية ، واغرقوا عدة سفن ، وربما بلغت خسائر الجيش الانكليزي حوالى العشرة آلاف ، غير ان نبأ وفاة القائد الاعلى للثورة الامام الشيرازى جاء في وقت حرج في اوائل ذى الحجة من عام ١٣٣٨ هـ مما أثر على عزائم الثوار ، وزاد الطين بله ان احتلت قوى الانكليز مدينة كربلاء باستسلام الشيخ فخرى آل كمونه في صفر من العام نفسه فالقوا القبض ليلا على المترجم له واصحابه وبعثوهم اسراء الى الهندية (طويريج) ثم الى الحلة حيث بقى ورفاقه فى السجن تسعة اشهر ، وبعدها اطلق سراحهم على اثر فتنة (ميرزا كجك خان) فى رشت بايران فصدر العفو من جورج الخامس فى رمضان من عام ١٣٣٩ هـ فعاد المترجم الى كربلاء واستأنف نشاطه العلمي .

وفي ذي الحجة من العام نفسه دعاه عبد الحميد خان الحاكم السياسي

في كربلاء لمقابلة جلالة الملك فيصل الاول في الحرم الحسيني المطهر عندما يأتي من زيارة النجف وقد رشح للملوكية ، فحضر مع باقي العلماء واستقبلوا ضيفهم الكبير، وتبودلت بين الملك فيصل الاول والسيد الشهرستاني آيات الترحيب والتعظيم ، وبعد وصوله الى بغداد ارسل اليه الملك فيصل مؤكدا عليه قبول وزارة المعارف العراقية .

٦ ــ وفي هذه الدور برز السيد الشهرستاني بطلا جبارا فأخذ يرسم الخطط لتقليص ظل النفوذ الانكليزي من المعارف وتحديده تجاه وضع المناهج الاستعمارية وتبديل الشارات الانكليزية بالشعائر الوطنية ، مما لفت نظر الاحرار آنذاك واعجبوا بصرامته وقوته ، والف الشاب الوطني المرحوم السيد محمد عبد الحسين الكاظمي المحامي كتابا سماه (سر تقدم المعارف) موضحا سيرة هذا الوزير الجليل واقدامه على ابعاد مستشاره دون باقي الوزراء ، واختلف مع زملائه لاجل ذلك ، ولما عرضت التوصيات بالانتداب كان المخالف الاول نبنوده ، وقد سجل المؤرخ العراقي السيد عبدالرزاق الحسني في كتابه (تأريخ الوزارات العراقية) مواقفه ومغامراته ، ولما لم يجد المترجم له عونا على تنفيذ تقريره الطويل الذي قدمه بهذا الشأن فضل الاستقالة وعدم التعاون مع زملائه الوزراء ، وكان رئيس الوزارة السيد عبد الرحمن النقيب وتاريخ الاستقالة في ذي الحجة من عام ١٣٤٠ هـ .

٧ ــ وفي هذا الدور ظهر ممثلا للقضاء الشرعي حيث اسند اليه منصب رئاسة مجلس التمييز الشرعي الجعفري باصرار من صاحب الجلالة الملك فيصل الاول ، وقد اعتذر له غير ان مجموعة العلماء اصروا عليه بقبوله لتوفر الكفاءات عنده ، وساند الجميع الزام فخامة السيد ناجي السويدي وزير العدلية آنذاك بقبول هذا المنصب ، وبنى قبوله على اساس رفع درجة القضاء الجعفرى من نواب قضاة الى قضاة ، ونفذ هذا الاقتراح بصدور الاوامر في ربيع الاول من عام ١٣٤٢ هـ فاتجه الى تنظيم هذا المجلس الذي هو الاول من نوعه وحدد موقف باقي المحاكم القضائية المرتبطة به ، وانتخب مجموعة من الرجال الصالحين للانتساب اليه ، وفي

خلال تنظيمه وانشغاله بذلك فاجأه القدر القاسي بذهاب بصره ولهذا القدر قصة لا نقوى على سردها ، ولكنه بقي يشغل هذا المقام اثني عشر عاما لافتقار السلطات القضائية اليه ، واخيرا ، احس بالكلفة التي يعانيها من جراء ادارته له ففضل الانسحاب منه والتمس من صديقه فخامة السيد علي جودت الايوبي ان يعفيه من الاستمرار في العمل ، فلبى طلبه ورشحه نائبا عن بغداد في البرلمان العراقي فدخله وبقي فيه ممثلا الى ان انحل ، وبعد ذلك فضل الرجوع الى حضيرة الروحية التي يتشوق اليها ويحن على عهودها السالفة فآثر الاقامة في الكاظمية وبقي فيها زمنا طويلا يقوم بمحاضرات واسعة في كشف اسرار القرآن وتفسيره ، واسس خلال اقامته في رمضان من عام ١٣٦٠ هـ مكتبة الجوادين العامة فنقل كتبه اليها وانهالت الكتب من مختلف الاقطار عليها مما اصبحت من امهات المكتبات العراقية .

والمترجم له من اشهر مشاهير الشرق ، ومن الاعلام الذين سرى ذكرهم الى الغرب مشفوعا بالاكبار ، واصل جهاده الديني والعلمي منذ البدء حتى اليوم على ماهو عليه من تأخر في صحته وانشغال في مزاجه، ولخبرته في فهم الصحة وثمنها فانه ظل يواصل المحافظة على مزاجه رغم الاعمال التي يقوم بها والامالي التي يواصلها ، وتفكيره سليم لابعد حد فهو الرجل الديني الوحيد الذي عرفت انه لا يداجي ولا يدجل ولم يتقلب حسب رغبة الظروف ، واظهر مزاياه الاستقامة وهي كل شيء في الانسان يرجع اليه في التقليد عالم كبير في اقطار الشرق .

واجه مجتمعه من يوم ان اعتمد على خبرته في الفقه وفهم القرآن ، بامور يتصورها الناس انها جزء من الدين والدين منها براء ، وقد كونتها بلادة اقوام او اغراضهم فبقيت تنخر في ذهنية العوام حتى انستهم اصول عقائدهم الصحيحة ، وابو الجواد كله اصلاح وكله خير وكله عمل، واول صدمة قام بها لمجتمعه الروحي هو تأليفه ونشره لرسالة (تحريم نقل الجنائز) وبها صار مضرب المثل في جرأته ، ولخبرته الواسعة بكتب آل

البيت (ع) وضبط ما جاء عنهم ، قام فصرخ في وجه الجبناء من الفقهاء طالبا منهم ان يوقفوا الناس على حقيقة الامر ، مدللا على ذلك بكل برهان جلي ، وصدمه ايضا بمقالاته التي واصلها في مجلته (العلم) التي انشأها عام ١٣٢٨ هـ واطلع بسببها كل من لم يعلم عن قيمة المذهب الصحيح ونقائه ، وصدمه يوم ان فصل المستشار البريطاني (كبتن فاول) عن وزارة المعارف فاحدث رجة في الاوساط السياسية ، وصدم مجتمعه يوم ان صرخ في تحريم ضرب القامة على الهامه ، ونبذ تلك العادات الوحشية من ضرب السلاسل ايضا ، واستقام في مبدئه لم يحد عنه شبرا واحدا ، وبرهن على صحته بكونه لم يستغل مكانته الاجتماعية الخطيرة بامتلاك ارض او عقار .

وابو الجواد عرفته منذ زمن بعيد جدا وسره انه الملجأ للشباب الحائر والموئل للاحرار منهم وقد عرفته يوم ان اتصلت به نتيجة ماقرأته من آثاره القيمة وكتبه الخالدة ومقالاته الملهبة ، وعرفته بعد ان اتصلت به كأمين لمكتبته العامة في الكاظمية فكان يأتيني في كل يوم بسر مجهول من اللطف والوداعة والشرف والابداع ، ووقفت على توجيهه لعائلته ذكورا واناثا بان لم يدخنوا ولم يشربوا الشاي ولا القهوة لانه ينهي عن شربها ويؤكد ، وكان يتضايق مني لاستعمالي لها ، ولكنه يغفر لي ذلك اعتزازا بما يلقاه مني من توجيه وتنظيم لمكتبته وايصال اسمها الى ابعد الامكنة وربط المؤلفين بها .

عرفته في مختلف الظروف انسانا يحب الخير ويدعو له فقد قلب سيرة الكاظمية في اليوم العاشر من المحرم من ضرب القامة الى اقامة حفل عظيم تتلى فيه اسرار نهضة الحسين من قبل اعلام الكتاب والشعراء ، وثابر على ذلك سبعة اعوام كانت نتائجها تملأ المجلات والصحف وتوجد الكتب القيمة في الموضوع نفسه ، ومن نتائجها الاعداد الخاصة بذكرى الحسين لمجلتي البيان ، كل ذلك كان يسعى اليه ليقلب صفحة التفكير ويوقف الناس على فهم الدين وما يريده الائمة (ع) من سعادة للناس لا ان يشقوا ويتعسوا ، ولكن المغرضين وارباب الاطماع لم يرق لهم ذلك بل راحوا يعيدون الدور

السابق بارجاع العوام الى حضيرة الجهل والفناء ، وتغلبوا بفضل من يمدهم من انصار الاستعمار ، فلجأ الى بيته محتسبا اعماله وتضحياته عند الله والحق .

وعرفته بمصاحبتي له في عام ١٩٦٥ هـ عند زيارته لايران حيث قضيت معه اكثر من شهرين متتابعين بغية الاستفادة من معلوماته ، وقد حصلت على ما اردت واملى علي كثيرا من الذكريات المهمة ووقوفه على الاحداث الفاصلة في تأريخنا معللا اسبابها ، وموضحا بواعثها ، وكنت اشاهده وهو يحنو علي اكثر من والدي ، ويرفق بي اكثر من ولده ، وعجبت من نفسيته الكبيرة التي تجلت بزيارة المسؤولين له في الدولة الايرانية وعدم اكتراثه بسطوتهم ، وفعلا كنت يوما عنده في دار فخامة السيد صدر الاشراف (تجريش) وقد زاره فخامة السيد حسين علاء رئيس وزراء ايران وهو في الحكم فقابله كما يقابل ابسط اصدقائه ، وعند القيام لم يخط معه خطوة واحدة عن كرسيه ، وهكذا رأيته يقوم بمظهر الزعيم الديني الذي يجد نفسه اهلا لاحتلال المقام الروحي ومعرفة التصرف بشؤونه .

وصاحبته الى خراسان وقد ركبنا الطائرة سوية فشاهدت الانقلاب العظيم الذي خرجت فيه خراسان حكومة وشعبا لاستقبال وتقبيل يده ، وهكذا رأيته في كل من همدان وملاير وبروجرد ودرود واراك وقم وهذه المكانة وليدة ماقدمه من جهود خلال نصف قرن الى العالم الاسلامي والعربي من خدمة واستقامة .

هذا بعض ما اعرفه عن هذا العلم الفذ والمصلح المخلص ، والعالم العامل وهذا بعض ما وقفت عليه من سيرته المشرقة ، والمليئة بالصور الناطقة .

آثاره العلمية

واروع جانب من حياته هي هذه الآثار التي نسجلها ، وقد سدت فراغا كبيرا في المكتبة العربية الاسلامية وهي التي طبعت ، أما الذي لا يزال

مخطوطا واهمه في التفسير فتأسف ببقائه ، واليك اسماء مؤلفاته مرتبة حسب ازمنة الطبع .

١ ــ منظومة مواهب المشاهد في اصول العقائد ٢ ــ رواشح الفيوض في فن العروض واوزان بحور الشعر ٣ ــ الهيئة والاسلام في استنباط مسائل الهيئتين القديمة والجديدة من ظواهر الآيات والروايات وحل مشكلاتهما والتوفيق بين الاكتشافات الجديدة وقواعد الفلكيات مع الاقوال المأثورة الاسلامية ترجمت الى لغة أردو الهنديه في لاهور باسم (البدر التمام) والى الفارسية مصورة باسم (اسلام وهيئت) ٤ ــ مجله (العلم) وهي أول مجلة عربية ظهرت في العراق دامت سنتين في مجلدين ٥ ــ تحريم نقل الجنائز تكرر طبعها ثلاث مرات ٦ ــ (تفتيش) حول مضرات حلق اللحية وادلة التحريم باللغة الفارسية تكرر طبعها في النجف وتبريز ٧ ــ فغان اسلام بالفارسية طبعت في لاهور وكلكتا ٨ ــ التذكرة في أحياء مجد عترة النبي(ص) ٩ ــ التنبه في تحريم التشبه بين الرجال والنساء ١٠ ــ توحيد أهل التوحيد في جمع كلمة المسلمين على الأصول الاعتقادية تكرر طبعه في بغداد وطبعت ترجمته الفارسية في طهران وتقرر في المدارس رسمياً ١١ ــ منظومة أسماها فيض الباري لاصلاح منظومة السبزواري في فلسفة اللاهوت ١٢ ــ المنظومة الكمالية في تقرير نظرية الاستكمال وقواعدها ١٣ ــ الدلائل والمسائل ج١ و ج٢ في اجوبة سؤالات مشكلة وردت لسماحة المؤلف ونشرت في مجلة المرشد البغدادية وبقي منه عشرة اجزاء لم تطبع ١٤ ــ جبل قاف في شرح هذا الرمز الاسلامي وحل مشكلاته ومأثوراته الشرعية حسب الهيئة الجديدة ١٥ ــ نهضة الحسين في اسرار مقتل الحسين (ع) عن أوثق المصادر وسلسلة أسبابها وآثارها ، تكرر طبعه بعد سنة ١٣٤٤ هـ وطبعت ترجمته الفارسية والهندية والانكليزية ١٦ ــ الجامعة في تفسير سورة الواقعة نشرت ضمن مجلة المرشد ١٧ ــ ما هو نهج البلاغة في ميزات هذا الكتاب النفيس وتصحيح أسانيد ما فيه على الأخص الخطبة الشقشقية تكرر طبعه في مجلة العرفان ، وطبعت ترجمته الفارسية في طهران باسم (نهج البلاغة جيست) ١٨ ــ أدعية

القرآن أو زبور المسلمين ١٩ ــ الأمة والأئمة في طرق تعيين خلفاء النبي(ص) طبعت ترجمتها الفارسية في طهران باسم (إمامت وامت) ٢٠ ــ ثقاة الرواة في اسماء المحدثين القدماء الذين تزكى كل واحد منهم بعدلين ٢١ ــ رهنماي يهود ونصارى يابيبلها بالفارسية في تعليقات مهمة حول العهدين ــ التوراة والانجيل ٢٢ ــ ذو القرنين وسد ياجوج وحل مشكلاتهما التأريخية بالفارسية ٢٣ ــ المعارف العالية للمدارس الراقية في توحيد الله وفوائد الدين واعجاز القرآن المبين بادلة جديدة سديدة ٢٤ ــ وجوب صلاة الجمعة خلف إمام عادل ، طبعت ترجمتها الفارسية في ايران سنة ١٣٥٦ هـ وتجدد طبعها في بغداد ٢٥ ــ المعجزة الخالدة في وجوه اعجاز القرآن وشرح اسراره وحل طلاسمه تكرر طبعها وترجمتها ٢٦ ــ تنزيه التنزيل في اثبات صيانة المصحف الشريف، من النسخ والنقص والتحريف ، طبعت ترجمته الفارسية في طهران ٢٧ ــ وظائف زنان بالفارسية في احكام النساء شرعاً وطبعاً وما لهن وما عليهن ٢٨ ــ حلال المشكلات ٢٩ ــ الدلائل والمسائل ، ج٥ طبع ببغداد

آثاره المخطوطه

وآثاره المخطوطة تتضاعف بالعدد على ما طبع له واليك اسماءها ١ ــ التقاط النقاط من فوائد الاسفاط ٢ ــ اضافات المصنفات ٣ ــ ارجوزة السلام ٤ ــ الأدلة من الأهله ٥ ــ ألف مشكلة ومشكلة ٦ ــ بلغة اللغة ٧ ــ بساط سليمان من طيارتي ٨ ــ بئر بن يوسف ٩ ــ بحر العلوم ١٠ ــ تنزيه التنزيل بالعربية (بالعربية) ١١ ــ تقويم الف واربعمائة سنة ١٢ ــ تسامح الأدلة في الأدلة ١٣ ــ الثورة العراقية ١٤ ــ الجواب الحسن من صلح الحسن ١٥ ــ الجنس اللطيف من الشرع الشريف ١٦ ــ جمهرة المعارف ١٧ ــ جمهرة الفتاوى ١٨ ــ جمهرة الفوائد والزوائد ١٩ ــ جابر من الحاضر والغابر ٢٠ ــ جوامع الكلم ٢١ ــ حياتي ٢٢ ــ حقايق من دقائق ٢٣ ــ الحواصل ٢٤ ــ حوادث الدهور من أيام الشهور ٢٥ ــ حق زن (بالفارسية) ٢٦ ــ حجة الاسلام ٢٧ ــ الحساس من ابن عباس ٢٨ ــ خريطة المدهشات ٢٩ ــ خير المخلفات من المؤلفات ٣٠ ــ خير الدلائل من اجوبة المسائل ٣١ ــ

خير الجواب عن فصل الخطاب ٣٢ ـ الخيبة في الشعيبة ٣٣ ـ خطر الافيون (بالعربية) ٣٤ ـ الدين في ضوء العلم ٣٥ ـ دابة الأرض ٣٦ ـ البدر والمرجان ٣٧ ـ ذو القرنين وسد يأجوج (بالعربية) ٣٨ ـ ذكرى الصوفية ٣٩ ـ ذرى المعالي في ذرية ابى المعالي ٤٠ ـ رؤوس الدروس ٤١ ـ الرسائل والمسائل ٤٢ ـ الرجعية ٤٣ ـ رسالة الاسلام للمسلمين ٤٤ ـ رهنماي تقوى وفتوى ٤٥ ـ رد الباب ٤٦ ـ زيادة خراسان ٤٧ ـ الزواج الموقت ٤٨ ـ سجل الاحوال من الرجال ٤٩ ـ سحر السحر ٥٠ ـ سجل الزائرين ٥١ ـ السفيانية والمروانية ٥٢ ـ سبت النبات ٥٣ ـ سماحة المذهب ٥٤ ـ سجل المساجلات ٥٥ ـ سجل المسائل ٥٦ ـ سجل المجالس ٥٧ ـ سلسلة الذهب في النسب ٥٨ ـ سلالة السادات ٥٩ ـ شذرات ٦٠ ـ شجرة العلوم ٦١ ـ الشيطان من الميزان ٦٢ ـ شافية الامراض ٦٣ ـ شهرستانيات ٦٤ ـ صدف اللئالي ٦٥ ـ الصدف أو الهدف ٦٦ ـ الضياء ٦٧ الطيف والنائم ٦٨ ـ طب الضعفاء ٦٩ ـ الطلاسم ٧٠ ـ العزاء الحسيني ٧١ ـ عصارة الحياء أو الكلمات ٧٢ ـ العرشية ٧٣ ـ العلم ٧٤ ـ غواصة المعاني ٧٥ ـ الغالية ٧٦ ـ غرائب المذاهب ٧٧ ـ الفوائد في عدة اجزاء ٧٨ ـ فهرست المجاميع ٧٩ ـ الفضيلة في اصلاح الوسيلة ٨٠ ـ فاروق الفرق ٨١ ـ قلم الوحي ووحي القلم ٨٢ ـ قاموس الفلسفة ٨٣ ـ قاموس الفقه ٨٤ ـ قدم العالم من صبح الأزل ٨٥ ـ كراستي من آية الكرسي ٨٦ ـ كشكول فارسي ٨٧ ـ كهرباء القلوب ٨٨ ـ كهف المشكلات ٨٩ ـ كاظمياتي او مجموعة الشتات ٩٠ ـ كلماتي ٩١ ـ كتب في كلمات ٩٢ ـ الكتاب المفتوح ٩٣ ـ كنوز الرموز ٩٤ ـ المستحسن من اجوبة مسائل أندرسن ٩٥ ـ مشهد الفصاحة ٩٦ ـ مشروع البث ٩٧ ـ مدرسة القرآن في رمضان ٩٨ ـ مذكراتي ٩٩ ـ مفكراتي ١٠٠ ـ مجربات ١٠١ ـ مرآة المطالب ١٠٢ ـ المحاضرات ١٠٣ ـ معجم الفقه ١٠٤ ـ المصلح ١٠٥ ـ المرشد ١٠٦ ـ المعرفة في الفلسفة ١٠٧ ـ المحكى على المحك ١٠٨ ـ الموسوعة ١٠٩ ـ المذهب العلمي ١١٠ المجموع في الفروع ١١١ ـ محصول الجيب ١١٢ المذهب

في سبل الرب ١١٣ ـ الملل والنحل ١١٤ ـ منابر الأثير ١١٥ ـ مشكلات العلوم ١١٦ ـ المعتبر من الخبر ١١٧ ـ المقياس في القياس ١١٨ ـ ميزان العروبة ١١٩ ـ مسيح الاناجيل ١٢٠ ـ المهدوية ١٢١ ـ مختصر الهيئة والاسلام ١٢٢ ـ مفصل الهيئة والاسلام ١٢٣ ـ النهايات في النهايات ١٢٤ ـ النقيه في التقيه ١٢٥ ـ نقد دوزي (بالفارسية) ١٢٦ ـ نقض العهود واليهود ١٢٧ ـ الناطق بفضل الصادق ١٢٨ ـ نماذج الأقلام والقرايح ١٢٩ ـ الوصايا ١٣٠ ـ الوديعة في الشريعة ١٣١ ـ هادي العمى ١٣٢ ـ الهدية المحمدية ١٣٣ ـ ياقوت النحر من ميقات البحر ١٣٤ ـ يمن العزا أو الأربعين في مدفن أمير المؤمنين .

ويؤسفني أني لم أقف على هذه الآثار الكثيرة كما يؤسفني ان لم يتهيأ لها من المخلصين من ينشلها من ظلمة العدم ويخرجها إلى عالم الطبع خاصة والفرصة في وجود سيدنا الحجة هي مما تشجع المخرج وتقصر زمن الاخراج.

المشروطة و لاستبداد

لهذا الحدث فصل كبير في تأريخ النجف الفكري ، ونظراً الى عثوري على مذكرات سيدنا المترجم له رأيت ان اثبت ما جاء فيها حول الموضوع بنصه :

يقول علماء الاجتماع ان للحوادث سلسلة فكرية ايجابية ، فكل حادث له علاقة بسابقه وان لم يتصوره المتصور ، واذا لاحظنا هذه الحركة الفكرية الدينية وامعنا النظر فيها وجدناها صدى لحوادث تقدمتها .

في شهر رجب من عام ١٣٣٤ هـ وردت النجف رسائل من قبل علماء طهران وفيها يستنجدون ويطلبون مشاركة الرأي للفكرة التي بدأوها وهي المطالبة بايجاد مجلس يركن اليه شاه ايران وهو مظفر الدين ويأخذ بمقرراته (عين الدولة) وهو رئيس الوزراء المعروف بالصدر الأعظم وحكومته ، وحاكم طهران العام علاء الدولة ، والمجلس يرتكز على فكرة ايجاد عدالة تحترمها الحكومة ولا تتعداها وتكف عن الظلم والحيف الذي لحق الناس من اعمالها واستبدادها . وقد اسموها (عدالت خانه) .

وكان لهذه الفكرة أولا صدى ضعيفا عند الحكومة فلم يعبأ بها عين الدوله كما لم يهتم بامرها الشاه مظفر الدين ، غير ان العلماء الذين ابدوا الفكرة وسجلوها في رسائلهم ومضابطهم واصلوا الامر بجد واهتموا في انجاح الموضوع مهما كلفهم من خساره ، واول عمل ايجابي قاموا به هو انسحابهم من مدينة طهران والتحاقهم بمدينه الشاه عبدالعظيم التي تعتبر آنذاك حصنا محترما وحضيرة مقدسه ، وعندما دخلوها في رمضان تلك السنه ، اخذوا يديعون مقرراتهم وآراءهم ، فصار الطلاب المثقفون ومن هم دون مرتبتهم العلمية ينضمون اليهم ويساندونهم ، كما التحق بهم فريق من الخطباء والوجهاء الذين يحملون الشعور الديني والعدلي ، حتى بلغ عددهم الألف وبذلك ظهر الصدى وتردد على اذن الشاه وحكومته وشعر الجميع أن الأمر تطور وسيؤدي إلى ما لا يحمد عقباه وصاروا يفكرون في الأمر وفي ايجاد الحلول التي تقضي على هذه الظاهرة الخطرة التي قد تصل في خطرها إلى نسف الدولة وايجاد غيرها ، وشعروا بان الرأي العام الذي هو صدى العلماء صار يردد بجرأة جرائم الدولة القاجاريه وانواع الظلم الذي قامت به .

أما العلماء الذين تبنوا الحركة أولا جماعة هم (١) الحاج سيد عبدالله البهبهاني (٢) الآقا أمير السيد محمد الطباطبائي (٣) الحاج شيخ فضل الله النوري .

وأول رسالة بعثوها إلى علماء النجف وهم أبو الأحرار الشيخ ملا كاظم الخراساني ، والشيخ ميرزا حسين الحاج ميرزا خليل ، والشيخ عبدالله المازندراني ، والسيد كاظم اليزدي ، وقد طلبوا فيها منهم ارسال البرقيات والرسائل التي تنصح الحكومة والشاه وتطلب منهم النزول على رغبة العلماء والشعب والكف عن المظالم التي يقومون بها .

وفعلا بادر هؤلاء العلماء يبعث البرقيات والرسائل المؤثرة والمؤنبة والناصحة ، وكان لها صدى قوياً في نفس الحكومة ، كما ان علماء طهران

وجدوا فيها سنداً وقوة للمجاوبة التي حصلت والاتفاق الذي تم بفهم قيمة الهدف وشرفه .

ولأهمية مركز النجف في العالم الاسلامي فقد اخذت الفكرة أولا من طهران وتبنتها وصارت طهران اخيراً صدى الى النجف الذي هز بوقته عرش القاجار وزلزل مركزه واودى به ، ودارت الفكرة حول محورها الذي أصبح الشيخ الخراساني ، وآنذاك صار كل انسان يحمل فكراً نقياً وثقافة واسعة وعقلا ناضجاً ينظم إلى هذه الحلقة الذهبية التي قلبت تأريخاً واسعاً وخلقت تأريخا جديداً ، وصار الرجال الابطال وأعلام الدين يهتفون بالخطط التي وضعوها والمقررات التي هيأوها وبذلك كثر العديد الذي لا أشك بأن الفرد منهم كان أمة ، وكان لاخواني الذين انظموا الى حلقتي الاثر الكلي في ترويج الفكرة وايصالها الى اكبر عدد من الناس فقد اجمع العلماء ورجال الدين على ذلك ، وكان للحجة المازندراني ومن اتبعه أثر بارز في نشر الفكرة، كما ان السيد اليزدي كان في أول الامر مع الجماعة ومن المؤيدين ، غير أن الذين تبنوا الفكرة لم يشعروا ولم يلمسوا منه صدق العمل بالاستمرار فقد كونوا باسلوب غير مباشر جواً معكراً ضده أدى بالاخير الى تشويش الأذهان نحوه وجفاء الناس له .

واستمرت الحركة من عام ١٣٢٤هـ الى عام ١٣٢٩هـ حيث توفي الامام الخراساني ، وفي خلال ذلك اجتمعت الكلمة من قبل رجال الدين ، غير أن المفاجئات التي داهمتنا أوجدت تفككا في الصفوف ، وإني كنت استغرب هذه الأسباب والاساليب التي تتولد في كل يوم ، غير انى كنت اعلل ذلك بامور هي ان السلطتين الايرانية والعثمانية اخذت تتجاوب تجاوبا سريعا لانهما كانتا على طريقة واحدة في الحكم الا وهي الاستبدادية المقيتة، وبذلك فقد فاجأت الحكومة التركية الرعايا الايرانيين بوضع ضرائب عليهم غير منتظرة ولا مأمولة مما حدا بالرعايا الايرانيين ان يستنجدوا بالعلماء وان يطالبوا لهم برفع ذلك ، والعلماء هنا وقعوا في حيرة من الأمر فهم غير منظورين من الاتراك بصورة رسمية لانهم من شعب ايران وقد اخلي الظهر

فصارت دولتهم ضدهم ، وهنا اتسع الخرق وحدثت مأساة فضيعة أدت الى مقتل العشرات من الناس وللانكليز اصبع آخر هو ادخال نفوذه المعدوم آنذاك في صفوف المسلمين .

والواقعة وقعت في كربلا وذلك عندما أيس الناس من نجدة العلماء لهم فصاروا يستنجدون بقنصل الانكليز وهو محمد حسن النواب الكابلي القندهاري وهو بدوره يشجعهم على التمرد ويقدم لهم الظمانات الكاذبة ، والاساليب المعسولة ، وبذلك طمع الناس به وساقهم جهلهم الى الاطمئنان فتجمعوا حول داره وتحت العلم الانكليزي المئات من الناس ان لم اقل الألوف وصاروا يعلنون رجوعهم واحتماءهم بشخص القنصل وبالعلم البريطاني ، واستمروا في ذلك بعد ان انقطع الطريق ليلا ونهاراً وجاءوا بأفرشتهم وصاروا يأكلون وينامون في الجادة اكثر من خمسين يوما ، وبذلك تصوروا ان الحكومة لا تستطيع طردهم لاستمرار بقائهم ، غير ان المتصرف (رشيد باشا الزهاوي) بعد هذا الزمن أرسل اليهم مدير الشرطة فانذرهم بالارتحال من هذا المكان وفتح الطريق ولكنهم كانوا يقابلون الرسول بالاستهزاء والمسخرة ، وكانت مدة الانذار اسبوعا واحداً وبعد ذلك عززه بانذار آخر مدته اربع وعشرون ساعة ، وكذلك لم يعبأوا به ، وفي الانذار الثالث الذي كانت مدته ست ساعات وهي من أول الغروب الى نصف الليل فكل من يجدونه يكون طعمة للرصاص وايضاً لم يهتموا بالأمر ، وفي ليلة القدر من رمضان جاءت الشرطة وبيدهم البنادق فصوبتها نحوهم ففي الاطلاقة الاولى وقع منهم سبعون والجرحى لا عدد لهم وفر الباقون بعد ان استنجدوا بالنواب وطلبوا منه فتح الباب ليلوذوا به فلم يجدوا من مجيب ولا مجير .

وبعد أن وقعت هذه الواقعة المؤلمة ، والتي أشغلت بال ولاة الفكر المحترمة وهم العلماء ، صارت التعليقات تخلق ساعة بعد ساعة ، وصار الخصوم من اتباع الاستبداد يستظهرون على أبطال الديموقراطية ، وكانت واقعة كربلا خير وسيلة للتفرقة والتشنيع على جماعتنا فقد فرقت بين صفوف

العلماء حيث لم يتدخل شيخنا الخراساني بالأمر كما لم يتدخل المازندراني بالنظر لتجنب الشيخ الخراسانى ، غير ان الحاج ميرزا حسين والسيد كاظم اليزدي تداخلا بصورة النصيحة والانذار حيث بعثا رسلا كما تدخل السيد محمد بحر العلوم صاحب البلغة وغيره في نصيحة القوم فلم يرتدعوا ولم يفد بهم النصح .

وبعد فتك الحكومة العثمانية باهالي كربلا صارت تضايق رجال الدين الذين كانوا يتأسون للحادثة ، كما أن القنصل الانكليزي وهو النواب الذي ورط الناس صار يساند فكرة رجال الدين لتنميتها من جديد،ولكن المتصرف وقف سداً دون إظهار استياء العلماء بعدم بعث البرقيات والرسائل ، غير ان زعيما دينيا معروفا وهو السيد علي الشهرستاني المرعشي استطاع ان يفلت بمغامرة لطيفه وهي تظاهره بالكسل وخروجه الى بعض الرساتيق للراحة وبذلك فلت من السياج الذي وضعه المتصرف على رجال الدين فقد غادر كربلا الى بغداد ودخل السفارة الايرانية واستطاع ان يعلم السفير عن التصرفات التي اجراها المتصرف والفتك الذي حل بالرعايا الايرانيين وصار هذا يستعمل الشفرة مع السلطان وعلماء طهران الذين تحصنوا في الشاه عبدالعظيم : كما استطاع ان يتصل بالوالي ببغداد ويعلمه سوء تصرف المتصرف وسوء المغبة التي ستجلبها اعماله .

وما ان حل شهر المحرم من عام ١٣٢٥ هـ حتى وضح الاختلاف بين أعلام الحركة ، وتفككت صفوفهم وصدرت الاوامر من استانبول بوضع الرصد عليهم وحجرهم بصورة غير مباشرة وحجب الصحف عنهم وهذا الحال اوجب ان ينشق الامر الى شعبتين الشعبة الاولى هي التي لاتزال ترتبط بايران . أما علماء كربلا فقد حصل لهم ربط باستانبول .

وهذه الحالة أوجبت ضعف علماء طهران لضعف المساندين لهم في النجف ومصادمة الاتراك لهم، وهذه المصادمة لا استبعد كما سبق انها نتيجة توجيه الحكومة الايرانية للحكومة التركية وافهامها مغبة المصير على الجميع فيما اذا قويت شوكة علماء الدين .

ـ ولما ضعف نفوذ العلماء في الشاه عبد العظيم انتبه (عين الدولة) ورجاله والشاه مظفر الدين وحاشيته فطلبوا منهم التفرق في البلدان والتحاق كل منهم بعمله الخاص فكان ما ارادوا غير ان الذين شايعوهم في الرأى من الوجوه والاعيان ورجال البلد أحسوا بالشر فتحصنوا بالسفارة الانكليزية وصارت زوجة السفير وكانت مثقفة تفهمهم ان الطلب الذي تذرعوا به لا قيمة له وان (عدالة خانة) لا قيمة لها في حين ان الغاية أوسع وأهم من ذلك بان تكون المطالبة بايجاد الحرية والمساواة وايجاد الشورى والمشروطية وبعد ان نضجت الفكرة في معظم هؤلاء انقلبت الاهداف والطلبات الى هذه العناوين مما أدى الى حدوث تطور جديد وفكر جديدة تمتاز عن الاولى بتبلور الفكرة وتنقيحها .

والذي طور الامر ولطفه وبسطه هي جريدة (حبل المتين) التي تصدر آنذاك بكلكته فقد كانت لسان حال الاحرار في العالم الشرقي والاسلامي فكانت تهاجم الحكومة القاجارية وتأريخ القاجار واثبات معايبهم وظلمهم ، كما تطري المجاهدين والمصلحين أمثال السيد جمال الدين الافغاني الذي وقف في وجه الاستبداد القاجاري والفوضوية القاجارية .

وكانت حبل المتين تأتي بغداد بلا رقابة غير أن وصولها الى كربلا والنجف كان عسيراً لوقوف السلطة الادارية ضدها وضد الفكرة ، ولكن بعض التجار الاحرار وهم الحاج علي اكبر الاهرابي وحاج ملا احمد اليزدي هما اللذان كانا يوصلانها الى اصحابنا الذين يتلهفون عليها بواسطة موادهم التجارية .

وفي الوقت الذى كانت جريدة (حبل المتين) تغذينا بالمعلومات كان الصديق الشيخ ضياء الدين النورى يطلب لنا من مصر جريدة (المؤيد) و (اللواء) و (الهلال) كما يجلب لنا الكتب التى تتضمن سير المصلحين أمثال كتاب (مشاهير الشرق) وكنا نقف على كثير من الحقايق التى خفيت علينا ، فقد وجهت كثيراً من النفوس كما خلقت من الكثيرين مناظرين ومجادلين

ومحاكمين لأقوال المأجورين من الخصوم ، وما أن تم عام ١٣٢٥ هـ حتى وجدنا كثيراً من الرجال استعدوا للهجوم عن طريق العلم والمعرفة والوقوف على كثير من الحقايق التي كانت ما وراء التصور وصار يدير الفكرة بطهران الذوات الذين تحصنوا بالسفارة الانكليزية .

غير ان الروس بالنظر لخصومتهم المعروفة للانكليز رأوا أن الانكليز قد توغلوا في صفوف الحكومة والشعب الايراني وصار يبذرون سمومهم عن طريق ايجاد الوعي فارتأوا ان ينزلوا الى ساحات العمل بايجاد مؤسسات تعارض وتصادم السياسة الانكليزية وان يتصل بالشاه محمد علي وجماعة المستبدين فاسست بطهران واسست في النجف قنصلية قائمة مشاغبة وقنصلا فخريا هو أبو القاسم الشيرواني وبذلك استطاعوا أن يعملوا بواسطة هذين المركزين ، وانظم الشيرواني الى فريق من الرجال من جماعة السيد اليزدي وهم الحاج محمود أغا وعبدالرحيم اليزدي خادمه وأمثالهما وهؤلاء هم الذين استطاعوا أن يستميلوا السيد اليزدي الى جانب الاستبداد ويفصلونه عن الشيخ الخراساني وجماعته .

وفي خلال عام ١٣٢٥ هـ بدأ النزاع على أشده بين جماعة شيخنا الخراساني والسيد اليزدي وقويت الخصومة التي بلغت منتهى الوحشية من ايذاء العوام لاخواننا وهيئتنا بتسميم فكرة العوام ، من اننا نريد الحرية التي هي ضد الدين وكثيراً ما كانوا يضربونهم على رؤوسهم ، واعتقد أن بعض الشياطين منهم عملوا عملا سيئا خدموا فيه جماعة اليزدي بنشرهم اعلانا الصقوه على الجدران رسموا فيه يداً وفيها مسدساً خاطبوا فيه السيد اليزدي وناشدوه النزول على رأى رجال المشروطة فان لم يفعل يقتلونه فكان لهذا الاعلان اثر سيء في نفوس العوام وانتصارهم لليزدي ، فقد هاجت عواطفهم واعتبروا أن هؤلاء مجرمين يريدون القضاء على ابن رسول الله وانحاز الى جنب اليزدي فريقا الشمرت والزكرت الذين عرفوا بمروقهم عن الدين وقتلهم الانفس المحرمة واستغلالهم لأموال اليزدي ، واعلموه بانهم من انصاره واعوانه ، وصاروا يخرجونه من داره الى الحرم وهم مدججون

بالسلاح ويهتفون باسمه ، وعزز اليزدي مركزه الموقت بجلب اسرة علمية لها مركزها وهم اسرة آل كاشف الغطاء فقد دعا الشيخ أحمد واخاه الشيخ محمد حسين وطلب منهما مساندته والتعلق بهما وبآلهما وبذلك انقطعا عن الحضور في حلقة الامام الخراساني ، بعد ان كانا من الملازمين الثابتين فيها . غير ان انظمام آل كاشف الغطاء حفز اسرتين خطيرتين انذاك وهما آل الجواهري وآل بحر العلوم فانظما الى الامام الخراساني وتعصبا له ولجماعته وتطورت الخصومة بصورة خطرة بين العلماء والعوام وصارت النجف كالآتون المستعر، واضطر اليزدي ان يضاعف عطاءه للعوام ولرؤساء الشمرت والزكرت لما عرف من سطوة رجال الدين واجماعهم ضده .

وكانت جريدة (حبل المتين) تأخذ هذه الاخبار وتنشرها بصورة مكبره ضد السيد اليزدي وجماعته مما أثارت العواصم الاسلامية واحرار الهند من جماعة غاندي في أول الامر واتصلوا بالامام الخراساني وجماعته ومنوهم بالامدادات والنصرة ، وصارت النجف لها صدى عظيم في مختلف العواصم وخاصة طهران واستانبول ، كما انها اصبحت قبلة تتبع في أتخاذ الآراء والاستهداء بها .

وفي عام ١٣٢٦ هـ قامت قيامة الأحرار على السلطان عبدالحميدفانتعشت فكرة الاحرار في النجف ونفوسهم وصاروا يتنفسون الصعداء بعد الابتلاء الذي غمرهم من عوام النجف ومن جماعة اليزدي ، كما احس فريق اليزدي بانقلاب الجو ضدهم وتطور الوضع في تركيا فانعكس الصدى على النجف وزار النجف (ثريا بك) واجتمع في مدرسة الميرزا حسين ميرزا خليل بحضور أعلام النجف وزعماء الدين ، وتضاءل شخص اليزدي وحاشيته ، وتقارب أحرار الاتراك واحرار النجف لتجاوب الفكرة وصادف القدر بانزال (مظفر الدين شاه) الى رمسه فكان لاحرار ايران أن أخذوا يوسعون الهدف ،وكان لأحرار الاتراك أن أعلنوا الدستور العثماني وقيدوا السلطان عبدالحميد بالعهود والخضوع للدستور .

أما الذوات الذين كنا نجتمع معهم بتدبير الأعمال ورسم الخطط بصورة

سرية في سراديب النجف خشية العوام وحاشية السيد اليزدي فهم فريق من الاحرار المخلصين اذكر اسماء المعظم منهم وهم ١ ـ الحاج أغا الشيرازي ٢ ـ الشيخ محمد باقر الاصفهاني ٣ ـ ميرزا عبدالرحيم بادكوبي ٤ ـ ميرزا علي هيئت تبريزي ٥ ـ أغا ميرزا رضا ايرواني ٦ ـ السيد عبدالله اصفهاني المعروف اخيراً بثقة الاسلام ٧ ـ ميرزا حسن رشتي ٨ ـ حاج أغا شريف رشتي ٩ ـ شيخ اسد الله المامغاني ١٠ ـ الشيخ عبد علي لطفي ١١ ـ السيد مهدي لاهيجي ١٢ ـ شيخ اسحق الرشتي ١٣ ـ السيد ابو القاسم الكاشاني ١٤ ـ ميرزا علي نقي طباطبائي طهراني ١٥ ـ ميرزا حسن رنكوني ١٦ ـ أغا محمد محلاني ١٧ ـ الشيخ اسماعيل محلاني ١٨ ـ ميرزا مهدي الاخوند ١٩ ـ الشيخ جواد الجواهري ٢٠ ـ السيد محمد علي بحر العلوم ٢١ ـ السيد محمد علي حبل المتين الكاشاني ٢٢ ـ السيد محمد امام الجمعة ٢٣ ـ الشيخ موسى النوري ٢٤ ـ الشيخ محمد تقي بن الحاج ميرزا حسين خليل ٢٥ ـ مرزه حسين النائيني ٢٦ ـ الشيخ محمد رضا الشبيبي ٢٧ ـ السيد سعيد كمال الدين ٢٨ ـ السيد أحمد الصافي ٢٩ ـ الشيخ عبدالكريم الجزائري ٣٠ ـ الشيخ هادي كاشف الغطاء ٣١ ـ الشيخ حسين الاصفاني ٣٢ ـ السيد مسلم زوين ، وكان هذا الاخير عضواً مهما في تحصن الكثير من اخواننا بسبب سطوة اسرته وقوتها .

وفي عام ١٣٢٦ هـ تحسن الجو لفكرتنا المقدسة وجاءت الأوامر بالانتخابات فانتخبنا الأديب المعروف عبدالمهدي الحافظ الحائري عن مدينتي كربلاء والنجف وكان هذا الرجل من المخلصين للدعوة خاصة في كربلاء التي كانت تعارض فكرتنا بوضوح ، وكان معه في الهمة والحس والشعور السيد حسين القزويني وهيئة المدرسة الحسينية الايرانية ، في الوقت الذي تجاوبها الموسستان المدرسة العلوية الايرانية في النجف، ومدرسة الاخوة في الكاظمية التي اسسها الحاج علي اكبر الاهرابي .

وكان الذي الهب شعور الكربلائيين ضدنا هو السيد اكبر شاه الذي هاجر من طهران وسكن كربلا وكان من مشاهير الوعاظ الذين يحسنون

الهيمنة على شعور العوام ، فكان كلما يوقد النار يطفيها عبدالمهدي الحافظ والقزويني .

وساند الحركة المقدسة ظهور جمعية (انجمن سعادة) في الاستانة فقد كانت هي الرابطة الوحيدة ، والواسطة التي تربط بين استانبول وطهران وأحرار النجف ، وتواصل بسط الفكر وبعثها الى احرار العالم والمتطلعين كما تمد النفوس الحرة بالقوى ، وقد مثل أحرار النجف الشيخ اسد الله المامغاني فيها عندما التحق باستانبول لدراسة الحقوق هناك .

وبذلك اصبحت النجف في هذا العهد مركزاً سياسيا مهما وشبحا مخيفا بين عواصم الامم الاسلامية مما دعا ان يستنجد بها احرار تركيا عندما أحسوا بان السلطان عبدالحميد سيفتك بهم ويغتالهم ، فطلبوا من أحرار النجف وزعيمهم الامام الخراساني ان يبرقوا الى عبدالحميد ببرقية ينصحونه فيها ويؤنبونه واجابة الى تدعيم الفكرة ، فقد بادر ابو الاحرار الخراساني ببرقية مطولة ملأت صحيفة كاملة وفيها انذارات وتهديدات ونصائح للرضوخ الى فكرة الاحرار ، وتسلمناها منه وذهبنا توا الى مأمور البرق (زينل افندى) فامتنع عن بعثها ، وكلما أصررنا عليه لم يجد ذلك نفعا ، غير أن الامام الخراساني بعث عليه وطمنه ووثقه بالعهود والاقوال من انه يدفع عنه كل خطر يأتيه من جراء ذلك ، واخيراً رضخ إلى رأيه بعد ان استكتبه كطلب شخصي من الخراساني ليرتكز عليه ، وبعث بالبرقية ولكن من الصدف قبل وصولها كان احرار الاتراك قد اجهزوا على عبدالحميد فاقصوه عن العرش وجعلوا مكانه السلطان محمد رشاد ، وكان القائمقام في النجف في هذا العهد هو السيد ناجي السويدي فقد كان من الاحرار العقلاء الذين ساندونا بقدر الامكان .

وفاته :

في منتصف شهر شعبان من عام ١٣٨٦هـ الموافق اواخر تشرين الثاني من عام ١٩٦٦م انهارت صحته على اثر زكام شديد فنزلة صدرية حاده ، فالتهاب شديد في البروستات ، ولما كانت صحته العامة لا تساعد على اجراء

العملية الجراحية للبروستات فقد عالجه الاطباء بالمسكّنات الموضعية ، وقد رافقها ضعف عام في صحته ، ثم اضطراب في الكليتين ، فالتهاب في الكبد ، وكانت العلاجات تتعارض بعضها مع بعض ، ومع كل هذه الاعراض الحادة تراه لم يفقد ظرفه ونكاته ومداعباته مع الاهل والمعالجين والمراجعين ، الى أن اشتدت به عارضة البروستات صبيحة الجمعة ٣ شباط ١٩٦٧م وأفقدته وعيه ، وفي فجر يوم الاثنين ٢٦ شوال ١٣٨٦هـ الموافق ٦ شباط ١٩٦٧م وفي تمام الساعة الخامسة صباحا فارقت روحه الحياة بداره في محلة العيواضية ببغداد .

وما أن سمعت الاوساط الرسمية بخبر الوفاة حتى أذاعت ذلك من دار اذاعة الجمهورية العراقية ، وأصدر مجلس الوزراء بيانا ينعيه الى العالمين العربي والاسلامي ، معربا عن خسارتهما لهذا الجهبذ المصلح ، وخرجت بغداد بجماهيرها للمشاركة في تشييع الجثمان مبتدئة من جامع براثا في الكرخ الى الكاظمية في مواكب مشهودة ، وقد مشى خلفه ممثل رئيس الجمهورية ، كما أوفد جلالة شاه ايران سفيره الدكتور السيد مهدي بيراسته ومعه أعضاء السفارة الايرانية للمشاركة في التشييع ، كما شاركت كافة الجهات الرسمية والشعبية في ذلك . وقد تقدمت المواكب امام الجثمان تنعاه الى مقره الاخير في مكتبة الجوادين العامة مؤسسته العلمية في الكاظمية في تمام الساعة السابعة من عشية اليوم المذكور ، وقد صلى عليه الحجة الكبير السيد محمد مهدي الاصفهاني مع جموع المسلمين في داخل الروضة الكاظمية ، وعند الدفن ارتجل الشاعر المعروف جميل أحمد الكاظمي قصيدة أبّن فيها الفقيد وعدد مزاياه ومآثره . وقد اقيمت له مجالس الفاتحة في داره بالعيواضية من قبل الاسرة وتلتها الفواتح في كل من الكرادة الشرقية من قبل جمعية الصندوق الخيري الاسلامي ، وفي الكاظمية من قبل جامعة مدينة العلم ، كما أصدرت بيانا ساعة الوفاة ، وفي كربلاء من قبل الاسرة الشهرستانية ، وفي النجف من قبل الامام كاشف الغطاء والدكتور عبدالرزاق الشهرستاني ، والحجة السيد عبدالله الشيرازي ، كما أقيمت المجالس في مختلف مدن العراق كالبصرة

والعمارة وبغداد الضواحي .

وفي ايران أمر جلالة الشاه باقامة مجالس التعزية في مختلف المدن الايرانية وشاركت الجماهير هناك بمثلها ، وابّنته الاذاعة الايرانية في مقالات خلال اربعين يوما بعد وفاته ، وساهمت وزارة التربية والعدل باقامة مجالس الفاتحة وقد ألقيت في جميعها المقالات والقصائد ، ورثاه في العراق معظم الشعراء منهم :

١ ــ الاستاذ جميل أحمد الكاظمي ومطلعها :

كيف يرثى الهدى وترثى الجلاله بالذي فيهما أصاب الاصالة

٢ ــ الشيخ محمد حسين الصغير ومطلعها :

ألمثل مجدك يستطيل رثاء وعلى يديك من الجهاد لواء

٣ ــ العلامة الشيخ عبدالمنعم النفرطوسي ومطلعها :

حضنتك ساحات الجهاد رسولا فوعت بوحي بيانك التنزيلا

٤ ــ الاستاذ محمد حسين الشبيبي ومطلعها :

الحزن بعد المصلحين يطول والصبر ماوافى الحزين جميل

٥ ــ الاستاذ الخطيب الشيخ سلمان الانباري ومطلعها :

أي شيء يقول فيك الاديب والخطب الموجّه الموهوب

٦ ــ الاستاذ حميد فرج الله ومطلعها :

صه يا نعي ألم يخرسك منعاه وليس من (هبة للدين) إلاه

٧ ــ الاستاذ صادق محمد رضا آل طعمة بقصيدتين (١) مطلعها :

نجم من العلياء خرّ الى الثرى وخبا سناه وكان قطباً نيّرا

والثانية مطلعها :

هيّا نعزي الدين باسم حماته فالدين في حزن على صنديده

٨ ــ الاستاذ سلمان هادي الطعمة ومطلعها :

لا نجم يلمع فوق السهل والجبل وضجت الضاد اثر الحادث الجلل

٩ ــ الشيخ حسن الصغير :

ليل دجا فسما الفضيلة مظلم وقسا فاخرس بلبل مترنم

١٠ ــ الاستاذ عبدالكريم العلاف وقد أرخ فيها الوفاة واليك المطلع والتأريخ :

قالوا ابو العلم قضى نحبه يا حسرة الدنيا مع الدين
للعلم والاصلاح في قبره أرخ ضجيعا هبة الدين

١١ ــ السيد عبدالله الجوادي واليك المطع والتأريخ :

خدم الشرع والمعارف نهجا بهدى جده النبي محمد
كان للدين يا مؤرخ (طوبا) هبة الدين في الجنان مخلد

وقد اقيم للفقيد حفل تأبيني بعد مرور اربعين يوما على وفاته من قبل لجنة من الاساتذة في (جامع يراثا) شارك فيه مشاهير الكتاب والشعراء كالدكتور عناد غزوان ، والاستاذ عبدالرزاق الظاهر ، والدكتور حسين محفوظ والاستاذ تاجي القشطيني ، والدكتور عبدالله درويش ، والاستاذ هادي محي الخفاجي ، والعلامة السيد احمد الشهرستاني .

نماذج من شعره

وسيدنا أبو الجواد صرح لي انه ليس بالشاعر الذي يهز الشعور ، بل انه ناظم يدلي ببعض الخواطر عن طريق الوزن والقافية ، ولان الشعر صفة طيبة فقد رأى ان لا يتعرى منها ، وقد نظم في الرجز كثيراً واجاد وله منظومات كثيرة منها ١ ــ فيض الباري لاصلاح منظومة السبزواري ٢ ــ المنظومة الكمالية ٣ ــ ناظمة النحو ٤ ــ قاضية الامل في اعلام لا تقبل آل ٥ ــ منظومة في الاصول والفقه ٦ ــ منظومة في الاخلاق والاجتماع ٧ ــ اللؤلؤ والمرجان في علمي المعاني والبيان ٨ ــ منظومة في المناظرة . وهذه المنظومات طبع بعضها ، وقد سجلنا من لسانه بعض ما اثبتناه في حين ان له مجموعة شعر كبيرة وفيها قصائد عامرة سجل فيها بعض الحوادث كثورة النجف ، وقصيدة الحرية التي وصف فيها ثورة تبريز واليك نماذج من شعره قوله :

بلد فيه خائن وحسود وعلى جوه النفاق يسود
ليس يرضى السكنى به لاوربي فضلاء احرارهم والاسود

وقوله :

رماني زماني قسوة بقسيه كذلك من أمسى أبيا ومحتاجا
غدا صخرة لما رآني زجاجة ولما رآني صخرة صار زجاجا

وقوله ناصحا :

هدأ الهائج بالقول العذب فمن الصالح تخدير العصب
ليس يرضى الله والعقل اذا مرجل الامة يغلي بالشغب

وقوله مداعبا وفيه الاقتضاب :

واخلاء خلوا من فائده لم يراعوا غير هذى القاعده
كلما مروا على بيتي دعوا ربنا أنزل علينا مائده

وقوله عندما سمع عن بعضهم جملة (دينارك كدمك) :

درهمي مرهمي وقوة قلبي مفزعي من نظام اكلي وشربي
حاش لله ليس ربي ولكن رازق للورى بقدرة ربي
هو قاضي الحاجات كشاف كربى هو باب النجاة ستار عيبي

وقوله :

تكلم فان النطق للعقل آية ولا تلف سكيتا كمثل جدار
فلو كان صمت المرء آية عقله فاعقل خلق الله كان حماري

وقوله يصف نفسه :

قد شاب شعري والاضراس ساقطة وخانني ثقتاي السمع والبصر
ضعف كسا الجسم من قرني الى قدمي وام اعراض امراضي هي الكبر

وله وعنوانها العلم روح وكل الكون كالجسد : قوله :

العلم تاجي ومنهاجي ومستندي ... ومذهبي العلم بل شيخي ومعتمدي
أداتي العلم أقضي ما أريد به ... والعلم حصني وسيفي ساعدي عضدي
غذائي العلم لا أبغي به بدلا ... طول الحياة ومن مهدي الى اللحد
والعلم كنزي وذخري في الحياة وما ... بعد الممات فلا يفنى الى الابد
ومعهد العلم مشكاة الضياء فمن ... به استضاء الى شرع النجاة هدى
والعلم غايتنا وهو السبيل الى ... آمالنا ودليل الحي للرشد
العالم العلم أعني الكون قام به ... فالعلم روح وكل الكون كالجسد

وقوله في عام ١٣٢٨ هـ :

رأيت اناسا يدعون مهارة ... لانفسهم في الكيمياء وفي الجفر
وفي كشف مستور بنجم وقرعة ... واحضار أرواح ومعرفة السحر
وهم بين خداع وصاحب جنة ... نحول القوى خمص البطون من الفقر
فقلت لهم ان سماء ظاهر عيشكم ... فهل هذه الاشياء تنفع في القبر

وقوله في نبذ الفوارق ونشد ان اسلام والحب .

وطني الارض وقومي البشر ... اينما كانوا وممن ظهروا
نحن في النوع جميعا واحد ... شكلنا يجمعنا والصور
ليس في التربة ألوان فما ... خارطات الارض الا صور
ما استفدنا من نزاع بيننا ... واستفاد الغاصب المستعمر

نحن اخوان لام واب ... ما في الازياء علينا ضرر
وحدونا وجماعات الورى ... في شؤون عدها لا يحصر

ومن مزدوجاته قوله :

من ابدع الكون كعقد نظيم ... وأودع الدر نظام السديم
طبيعة عمياء جهلا تهيم ... أنى لها هذا النظام القويم

* * *

فاقرأ كتاب الكون في نقطة ... من خط ذي عين ولام وميم

يدخر المحيط في قطـــــرة رشح نداهـا بحـر فضل عميم

★ ★ ★

مظاهـــر القـدرة في بـذرة دوائـــر الاكـوان فيها تقيم
وسنة اللقـــاح في زهـــرة تهدى الـى صراطه المستقيم

★ ★ ★

مناظر الجمـال في بقعـــة حقـــيرة مرآة رب عظيـــم
وسر الاستكمال في بيضـــة ينـم عن تدبـــير حي رحيم

★ ★ ★

وخـــذ فنون العلم من نملة علمها اسـتاذ فـن قديـم
ودودة أعـــد في صـــخرة معاشـــها رب ودود كريـــم

★ ★ ★

ظواهر الحكمة مـن نحلـــة تحكي تعاليم الـــه حكيـم
وهيكل الانسان ذو فكـــرة منـــه ومنها حار لب الفهيم

★ ★ ★

ســـيارة الحيـاة في نطفـــة تطوي سراهـــا بدليل عليـم
من نظم الافـــلاك في حكمة (ذلك تقدير العزيز العليـــم)

وقوله في الدين الاسلامي :

اذا الابحـــر السبع انقلبن محابراً وأقلامهـــا ما فى البرية من غصن
وراموا بأن يحصوا محاسن ديننا لما بلغوا معشار ما فيه من حســن

وله مشطراً :

يا رب جوهر علم لو أبـوح بـه نصرت ديني وطوقت الورى مننـا
لكنني صـــنته اذ لو نطقت بـه لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنـــا
ولا استحل رجال المسلمين دمـى كما استحلوا على اسـلافي الحسنا
راجين من ربهم زلفى بمـا فعـلوا يرون اقبح ما يأتونـــه حسـنا

وقولـــه :

على عكس ما كان عندي القوي ... بخيلا وصعباً ومخشوشنا
رأيت اللئيم تجاه الضعيف ... سخيا ومستسلما لينا

وقوله :

تموج النفس بالشهوات فيكم ... ودينكم كربان السفينه
عواطفكم متى ثارت عليكم ... فعقلكم كقاض في المدينه

وقوله ناصحا :

لسانك فاحفظه فللناس ألسن ... وفي العين من سوء فللناس أعين
ولاتك مكثار الكلام فكلما ... بقلبك من طي البيان يبين
وعثرة انسان بفعل وقولة ... تقال باحسان اذا هو محسن
وكل امرىء تخفى سجاياه في الورى ... فلابد يوما في المجالس تعلن

وقوله بعنوان ـ التجدد الحقيقي ـ :

ليس التجدد بالتبرنط لاولا ... بسدارة كلا ولا بالبهلوي
إن التجدد نهضة أدبية ... تقضي على الفوضى بمنهاج سوى

وقوله :

الفوز خير وليد ... ما بين سعي ورأيي
كالنبت ينتج خيراً ... ما بين سقي ورعي

وقوله مادحا آل البيت (ع) :

اذا ضاقت بك الاوهام ذرعا ... فلذ ببني علي الطيبينا
فان حديثهم اكسير صدق ... يصير كل مشتبه يقينا

والحديث عن هذا العلم الفرد لا ينتهي لانه خصب في عقله ودينه ومروته واخلاقه ، حشره الله مع اجداده الطاهرين .

علي الخاقاني

مقـــدمة المؤلف

اما بعد الحمد والصلاة :

فقد حدا بي الى تأليف كتابي هذا غفلة الجمهور عـن تاريـخ الحركة الحسينية واسرارها ومزايا آثارها ــ وهي النواة لحركات عالمية ــ حتى ان بعض الأغيار إذ وجد هياج العالم ، وحداد الامم ، ومظاهرات العرب والعجم اندفع قائلا : « ما هذا ! ؟ ولماذا ؟ وهل الحسين الا رجل خـرج على خليفة عصره ثم لم ينجح ؟ » .

نعم ! سنعرفه ما هذا ؟ ولماذا ؟ ومن الحسين الناهض ؟ ومن المعارض ؟ وما هي غايات الفريقين؟ كل ذلك بهذا الكتاب الذي جمع المحاكمات التاريخية الى النظريات الاجتماعية والمرويات الموثقة من كتب التواريخ المؤلفة قبـل الاربعمائة الهجرية مثـل :

(مروج الذهب) لعلي بن الحسين المسعودي المتوفي سنة ٣٤٥ .

(ومقاتل الطالبيين) لأبي الفرج علي بن الحسين الأمـوي المروانـي الاصفهاني مؤلف (الاغاني) المتوفى سنة ٣٣٦ هـ .

و (تاريخ الامم والملوك (لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ

و(الارشاد) للشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة٤١٣هـ

و (العقد الفريد) لابن عبد ربه المغربي المتوفى قبل سـنة ٣٢٨ هـ .

و (والامامة والسياسة) لعبدالله بن مسلم الدينوري المعروف بابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ • وكتابه الآخر « المعارف » •

و (الأخبار الطوال) لأحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة ٣٢٨ هـ •

و (الكافي) لمحمد بن يعقوب الكليني البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨هـ •

وذلك بأسلوب وجيز ، مؤملاً من المتأملين فيه ومن قراء مأتم سيدنا الحسين ان يتقبلوه مني بقبول حسن •

بغداد في ٢٤ رمضان ١٣٤٣ هـ

هبة الدين الحسني

النهضة الحسينية

النهضة قيام جماعة أو فرد بما يقتضيه نظام الشرع أو المصلحة العامة كالحركة التي قام بها الحسين بن علي (عليهما السلام)[1] .

وحقيقة النهضة سيالة في الأشخاص والأمم وفي الازمنة والامكنة ، ولكن بتبدل اشكال واختلاف غايات ومظاهر . وما تاريخ البشر سوى نهضات افراد وجماعات وحركات اقوام لغايات ، فوقتا الخليل ونمرود وحينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وابو سفيان[2] ويوما علي ومعاوية .

---

(١) الحسين بن علي بن ابي طالب (ع) امه فاطمة الزهراء (ع) بنت محمد المصطفى (ص) من زوجته الكبرى خديجة أم المؤمنين (ع) .
وهو احد السبطين الريحانتين ، وخامس أهل الكساء . ولد في المدينة عام الخندق في السنة الرابعة للهجرة في خامس شعبان الموافق شهر كانون لسنة ٦٢٦م ، وعاش مع جده النبي (ص) ست سنوات وشهوراً ، وبقي مع اخيه الحسن اعواما وشهورا وكان مجموع عمره ستة وخمسين عاما ، وكانت شهادته بعد الظهر من يوم الجمعة عاشر محرم الحرام سنة ٦١ هـ الموافق سنة ٦٨٠م بحاير الطف من كربلا في العراق . واشترك في قتله شمر بن ذى الجوشن وسنان بن انس وخولي بن يزيد من قواد جيش عمر بن سعد الذي ارسله والي الكوفة عبيدالله بن زياد بأمر من امير الشام يزيد بن معاوية ليحصروا الحسين ورجاله ويقتلوه وهم عطاشى . فقتلوه ورجاله ونهبوا رحاله وسبوا عياله مسفرين الى الكوفة ثم الى الشام فالمدينة. وان اشتهار فضائل الحسين والآثار المروية فيه ومنه وعنه في كتب الحديث والتاريخ ليغنى عن التوسع في ترجمته الشريفة .

(٢) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس .
كان في الجاهلية ببياع الزيت والادم ، ذميم الخلقة ، وهو من كبار قريش حتى قامت به قيامة قريش على الهاشميين قبيل الهجرة فتراس في المحالفة القرشية واخذ على عاتقه مناواة الاسلام ومقاتلة المسلمين . وله في عام الهجرة نحو سبع وخمسين سنة . ولم تقصر عنه اخته أم جميل العوراء في ايذاء رسول الله (ص) وسعيها بالنميمة والفساد بين بني هاشم والقبائل ، إذ كانت

←

ولم تزل ولن تزل في الامم نهضات أئمة هدى تجاه أئمة جور • ونهضة الحسين من بين النهضات قد استحقت من النفوس إعجابا اكثر لا لمجرد ما فيها من مظاهر الفضائل وإقدام معارضيه على الرذائل ، بل لأن الحسين (ع) في انكاره على يزيد[1] كان يمثل شعور شعب حي[2] ويجهر بما تضمره أمة مكتوفة اليد ، مكمومة الفم ، مرهقة بتأثير امراء ظالمين ، فقام الحسين (ع) مقامهم في اثبات مرامهم،وفدى بكل غال ورخيص لديه باذلاً في سبيل تحقيق أمنيته وأمته من الجهود ما لا يطيقه غيره فكانت نهضته المظهر الأتم للحق ، حينما كان عمل معارضيه المظهر الاتم للقوة فقط من غير ما حق أو شبهة حق•

تحت أبي لهب والمقصودة من آية » وامرأته حمالة الحطب .. الخ » ولم يبرح يثير الاقوام ويشكل لاحزاب ضد رسول الله (ص) كما في بدر الكبرى وبدر الصغرى وفي أحدو الاحزاب وفي وقايعه الاخرى . ولم يهدأ ساعة عن معاداة النبي في السر والعلانية وباثارة النفوس والجيوش ضده . ويجاهد المسلمين جهده الى يوم فتح مكة حيث اسلم مع بقية قريش .

واول مشاهد بني سفيان مع المسلمين كان في غزوة حنين فمنحه الصطفى (ص) مائة بعير من غنائم الحرب منوها به وبمكانته . ثم اشترك ابو سفيان يوم الطائف فأصابته نبلة في أحد عينيه ففقأت واستعمل جابيا. ثم اشترك في واقعة اليرموك في السنة الثالثة عشرة للهجرة على عهد ابي بكر فأصابت نبلة عينه الثانية ففقأتها وأصبح اعمى . ومقالته فيها تنم عن ميله للروم .

ومات في دمشق عند ولده معاوية سنة احدى وثلاثين هجرية عن ثماني وثمانين سنة ودفن بها .

(١) يزيد بن معاوية أمه ميسون الكلابية ولد سنة خمس وعشرين فسماه ابوه باسم اخيه ، وكان بدينا ، مجدرا، رفيع الصوت ، على أنفه فرحة ، شديد السمرة ، ولعا بلعب النرد والصيد بالفهد ، شغوفا بمعاقرة الخمور والفجور بأنواعها ، متجاهرا بالفسق حتى في سفر الحج وفي مدينة الرسول (ص) اخذ معاوية له بيعة الخلافة في حياته ثم استقرت له بعد وفاته في رجب سنة ٦٠هـ ومات بذات الربة في منتصف ربيع الاول سنة اربع وستين عن ثلاثة عشر ولداً أكبرهم معاوية بن يزيد .

(٢) ان مشاهير الفضلاء يومئذ في الامة الاسلامية ــ كسيدنا الحسين (ع) وسعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالرحمن بن ابي بكر ــ أنكروا على معاوية استخلافه ليزيد الخمور والفجور ، وقد توجس يزيد من مخالفة هؤلاء الوجوه خيفة ان يكون الرأى العام في جانبهم ، واهتم في اضطهاد هؤلاء وإرغامهم ، فثبت ان الحسين (ع) يومئذ كان يمثل في قيامه على يزيد رأي الجمهور وشعور الشعب الحى .

خلافة يزيد وخلاف الحسين له

خلافة النبي نيابة عنه في الولاية على الأمة في جميع شؤونها أو جميع شؤونه الا الوحي ، فهي أخت النبوة وشريكتها في البيعة والعهد والرياسة العامة ، وسمي المتولي لهذا العهد إماماً يجب الاقتداء بأفعاله والاهتداء باقواله ، لذلك أجمعت أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على اشتراط العدالة فيه مع الفضل الديني كما نص عليه القرآن الحكيم في آية إبراهيم « اني جاعلك للناس أما ما قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين » كذلك اشترطوا في متن بيعته العمل بكتاب الله وسنة رسوله خوفاً من حصول سوء الاختيار أو فسوق المختار .

ولقد ثار المهاجرون والانصار ومسلموا مصر والأمصار على عثمان ابن عفان حتى كان ما كان من أمره وأمر مروان . كل ذلك إنكاراً منهم لاحداث تخالف الكتاب والسنة ، ولقد كان الاحرى بالجمهور واولياء الامور أن يعتبروا بهذا الحادث ويأخذوا دروسا من الحوادث فلا يؤمروا إلا من ائتمنوه على الدين لكي يسير فيهم على الهدى والصلاح ، لكن ابن هند وعصبته ــ المستخفة بالحق ــ لم يتبعوا سبيل المؤمنين يوم ملكوا رقاب المسلمين واخضعوا أمام قوتهم حتى المهاجرين .

هذا ولم يحس من الحسين بعد الحسن (عليهما السلام) موجة خلاف أو رغبة الخلافة ، بل أقام من سيرته الهادئة برهاناً ساطعاً على زهده عنها ، إذ كان يفضل هدوء الشعب على الشغب ولكن على شريطة حفظ الشرع وظواهره والدين وشعائره ــ ولو نوعا ما ــ . اما ان يرى يزيد ممثلا عن جده الامين وخليفته في المسلمين مع استهتاره وفسقه وفسق اعماله فشيء لا يستطيع حمله صدر الحسين وأمثاله .

وبالرغم من صبر الحسين واحتسابه مدة أربعين عاماً من إمارة معاوية مرت حوادث مُرّة ضاق عنها صدر ابن علي الرحب وأوغرت صدر يزيد من الجهة الاخرى اخص بالذكر منها حدثين بارزين استثار الواحد منهما حنق يزيد وكل ما في حفايظه من ضغائن وهو ما سنقصه عليك من أمر أرينب بنت اسحق سيدة الجمال[1] كما استثار الحدث الثاني من حسين الفتوة كل شهامة ومروة ، وحول وقوة وذلك اهتمام ابن هند لاستخلاف ولده يزيد إماماً للمسلمين وأميراً على المؤمنين ، إذ كان معاوية الدهاء يحاول ذلك من شتى الوجوه بين الجد والهزل على ألسنة المتزلفين اليه .

تذاكر معاوية يوماً مع الناس في بيعة يزيد والاحنف بن قيس جالس لا يتكلم فقال : مالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال : اخافك إن صدقت وأخاف الله إن كذبت .

ورووا عن معاوية انه أظهر بعد موت زياد بن أبيه كتابا مفتعلا عن خطه بتحويل الخلافة وولاية عهدها الى يزيد[1] .

وعن الحسن البصري أنه قال : « افسد أمر هذه الأمة اثنان : عمرو ابن العاص في التحكيم والمغيرة بن شعبة ، فانه كان عامل معاوية على الكوفة، فكتب اليه معاوية : إذا قرأت كتابي فاقبل معزولا . فابطأ عنه فلما ورد عليه قال : ما أبطأ بك ؟ قال أمر كنت اوطؤه وأهيؤه . قال : ما هو : قال : البيعة ليزيد من بعدك . قال : او قد فعلت ؟ قال : نعم . قال : فارجع الى عملك فلما خرج قال له أصحابه : ما وراؤك ؟ قال : وضعت رجل معاوية في غرزغي لا يزال فيه الى يوم القيامة » .

ثم حج معاوية وفي صحبته يزيد يقدمه الى المهاجرين كمرشح للخلافة بعده ، فدخل عليه الحسين في المدينة وهو على ما هو عليه من التظاهر بالفجور وشرب الخمور فلم يسؤه يومئذ الا التجاهر بانكار هذا العمل

---

(١) عقد الفريد ج٢ ص ١٠٠
(١) العقد الفريد .

وانضم الى صوته أصوات ثلة من اكابر الصحابة ، وابن صخر من ورائه ينثر الذهب والفضة ويبث المواعيد حتى انحصرت أصوات المعارضين في أربعة ، فحس ابن الرسول بأول خذلان من أمته في مدينة جده .

وما عاد ابن صخر الى الشام حتى راجت في المدينة وصايته بمبارات معارضيه الأربعة ولا سيما الحسين بن فاطمة فهدأت سورة ابن البتول اذ وجد أمامه متسعا ، ويرى أثر هذه الصدمة في قلوب الامة وموجة الحركات العامة أن قضى طاغية الشام نحبه ، فدبر ابن علي أمره حسبما تسمح له الظروف وتساعده الاحوال ، الا انه فوجيء من يزيد بأخذ البيعة منه خاصة ومن الناس عامة وصحت مكيدة ابن هند في تخديره الاعصاب من وصيته بالحسين (ع) بينما كان ابن الرسول قالعاً منهم بالسكوت عنه ، لكنهم لم يقنعوا منه بالحيدة ولا بالعزلة ولا بالخروج الى الثغور أو الى أقصى المعمور .

****

اهلية الحسين للخلافة

ربما اتخذوا إستجابة الحسين (عليه السلام) لدعوة الكوفة وإرساله ابن عمه اليها لأخذ العهد منها دليلا على انه رشح نفسه للخلافة. غير ان ذلك لا ينافي خطته الدفاعية ولا يوجد نحوه مغمزاً ، حيث اجتمعت لنهضة الحسين وتلبيته لدعوة الكوفة اسباب أربعة لو تعلق كل رجل من المسلمين بواحد من تلكم الاسباب لأصبحت مقاومة يزيد عليه حتما ولزاما :

اولا ــ أهلية يزيد للمخالفة وعدم أهليته للخلافة . فقد أمتلأت بطون التواريخ عن سوء سيرته وسريرته : من شربه الخمر ، وصيده بالنمر ، وخلاعته في فجوره حتى بالمحارم .

ثم انه لم ينل عهد ملكه بوصاية أو وراثة ممن استحقها من قبل ، فقد ابتز أبوه الامارة بالمكر والغدر وأخذ البيعة له بالعنف والقهر وبتهديد ألسنة الأسنة والحراب دون أدنى حرية للمسلمين في الشورى والانتخاب .

فكان الواجب على الأمة خلع هذا الخليع الغاصب ، وفيما صح عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله :[1] « سيد الشهداء عمي حمزة ، ورجل قام في وجه امام جائر يأمره وينهاه ثم قتله » وقد تم هذا التنبؤ في عمل الحسين قبل غيره .

ثانيا ــ علم ابن النبي من نفسه ومن آثار جده وأبيه واخيه : انه امام المسلمين دون سواه ، ورشحته ألسنة المتجاهرين بالحق ، وصدقته البقية تحت ستار التقية . فهل يكون لأحد من الوجوه مثل هذا ثم لا ينهض ؟! .

---

(١) صححه الحاكم والطبراني عن جابر و (علي) .

ثالثاً ـ تلوح من السيرة الحسينية المثلى انه مسبوق العلم بأنباء من جده وأبيه وأمه وأخيه وحاشيته وذويه بأنه مقتول بسيف البغي ـ خضع أو لم يخضع ، وبايع أو لم يبايع ـ فهلا يرسم العقل الناضج لمثل هذا الفتى المستميت خطة غير الخطة التي مشى عليها حسين الفضيلة ، قوامها الشرع وزمامها النبل ولسان حاله :

مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها

رابعا ـ تواتر الكتب الى ابن النبي (ص) من العراق وخلاصة اكثرها : « أقدم علينا يا بن رسول الله ، فليس لنا امام غيرك ، ويزيد فاسق فاجر ليس له بيعة في اعناقك، فعجل بالمسير الينا ، وإن لم تفعل خاصمناك عند جدك يوم القيامة » فماذا يكون ـ يا ليت شعري ـ جواب مثل الحسين لمثل هؤلاء ؟ وهلا تره ملوماً او لم يستجب دعوتهم ؟!

الحسين رمز الحق والفضيلة

لا عجب ان عدت نهضة الحسين (ع) المثل الأعلى بين اخواتها في التاريخ وحازت شهرة واهمية عظيمتين ، فان الناهض بها « الحسين » رمز الحق ومثال الفضيلة ، وشأن الحق ان يستمر ، وشأن الفضيلة ان تشتهر . وقد طبع آل علي (عليهم السلام) على الصدق حتى كأنهم لا يعرفون غيره ، وفطروا على الحق فلا يتخطونه قيد شعرة .

ولا بدع فقد ثبت في ابيهم عن جدهم عن النبي (ص) : « علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار »[1] فكان علي لا يراوغ اعداءه ولا يداهن رقباءه ، وهو على جانب عظيم من العلم والمقدرة وتاريخه كتاريخ بنيه يشهد على ذلك ، فشعور التضحية ـ ذلك الشعور الشريف ـ كان في علي وبنيه ومن غرائزهم ولا سيما في الحسين بن علي (ع) وما في الآباء ترثه الابناء .

وقد تفادى علي لرسول الله (ص) بنفسه كرات عديدة ، كذلك الحسين تفادى لدين الرسول (ص) وأمته ، إذ قام بعملية أو ضحت أسرار بني أمية ومكائدهم وسوء نواياهم في نبي الاسلام ودينه ونواميسه .

وفي قضية الحسين حجج بالغة برهنت على انهم يقصدون التشفي منه والانتقام ، واخذهم ثارات بدر وأحقادها . وقد أعلن بذلك يزيدهم طغياناً ـ وهو على مائدة الخمر ونشوان بخمرتين خمرة الكرم وخمرة النصر ـ إذ

---

(١) استدل الرازي في تفسيره بهذا الحديث وثبوته المتواتر على الجهر بالبسملة .

نمثل بقول ابن الزبعري[1] :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

واضاف عليها :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف[2] ان لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل

الحركات الاصلاحية والضرورية

إذا كان نجاح الامة على يد القائد لزامها ، واصلاحها يتوقف على صلاح إمامها فمن أسوء الخيانات والجنايات ترشيح غير الاكفاء لرياستها ورياسة أعمالها . وسيان في الميزان أن ترضى بقتل أمتك أو ترضى برياسة من لا اهلية له عليها ، واية أمة اتخذت فاجرها إماما ، وخونتها حكاما ، وجهالها أعلاما ، وجبناءها أجناداً وقوادا فسرعان ما تنقرض ولا بد ان تنقرض .

هذا خطر محدق بكل أمة لو لم يتداركه ناهضون مصلحون وعلماء مخلصون والسنة حق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيضربون المعتدي على يده ، او يوقفونه عند حده .

وبتشريع هذا العلاج درء نبي الاسلام عن أمته هذا الخطر الوبيل ، ففرض على الجميع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد تهديده المعتدين وضمانه للناهضين وصح عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ذلك لكي لا يسود على أمته من لا يصلح لها

---

(١) بكسر الزاي وفتح الباء وسكون العين وفتح الراء المهملتين : كنية شاعر الحزب السفياني .

(٢) خندف : لقب ام مدركة بن الياس بن مضر جد قريش .

فيفسد أمرها وتذهب مساعي الرسول ومن معه أدراج الرياح . وقد كان هذا الشعور الشريف حياً في نفوس المسلمين حتى عصر سيدنا الحسن السبط (ع) .

وناهيك أن أبا حفص خطب يوما فقال : « إن زغت فقوموني » فقام أحد الحاضرين يهز في وجهه السيف ويقول: «إن لم تستقم قومناك بالسيف» .

غير ان امتداد السلطان لمعاوية بن ابي سفيان، وإحداثه البدع، وإماتته السنن ، وابادته الأبرار[1] والاحرار بالسيف والسم والنار[2] وغشه الافكار وبثه الأموال في وجوه الامة أخرست الالسن ، وأغمدت السيوف ، وكمت الافواه ، وصمت الآذان،وحادت بالقلوب عن جادة الحق والحقيقة ورجالهما فمات او كاد أن يموت ذلك الشعور الاسلامي السامي . وأوشك أن لايحس أحد بمسؤوليته عن مظلمة أخيه ولا يعترف بحق محاسبة آمريه او معارضة ظالميه .

وكاد أن تحل قاعدة : « قبلوا يداً تعجزون عن قطعها » محل آية : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » .

---

(١) من سنة ٤٠ هـ الى سنة ٦٠ بعد ما استعمل على العراق المغيرة بن شعبة وزياد بن سمية لأستيصال شأفة الحزب العلوي وقتل صلحاء الصحابة والتابعين ـ كمحمدبن ابي بكر واضرابه، وحجر بن عدى واصحابه ـ سرا وجهرا وغدرا وغيلة أو دفنا في التراب حيا وشق بطونهم وسمل عيونهم .عدا ما قتلوا حربا او صلبا أو نفيهم وقطع ارزاقهم أو التعرض بأعراضهم ، كل ذلك ليحملوا الامة بكل وسيلة على سب أبى تراب والترحم على عثمان وتسويغ المظالم .

(٢) وقد افرط معاوية في قتل صلحاء الصحابة والتابعين بدس السم في مآكلهم ـ أمثال سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي،ومالك الاشتر النخعي ـ .

وقال ابو الفرج الاموي في مقاتله : وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيئا أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بي ابي وقاص فدس اليهما سما فماتا منه .. الخ .

آثار الحركة الحسينية

كان مآل الاحوال السالفة محق الحق بالقوة ، وسحق المعنويات بالماديات ، وانقراض الائمة والأمة بانقراض الاخلاق والمعارف لو لا ان يقيض الرحمن لانقاذ هذه الامة حسيناً آية للحق ، وراية للعدل ، ورمزاً للفضيلة ، ومثالاً للاخلاص يوازن نفسه ونفوس الأمة في ميزان الشهامة ، فيجد الرجحان الكافي لكفة الامة فينهض مدافعاً عن عقيدته ، عن حجته ، عن أمته ، عن شريعته ، دفاع من لايبتغي لقربانه مهراً ، ولا يسألكم عليه أجرا ، ودون أن تلوي لواءه لائمة عدو أو لائمة صديق ، ولا يصده عن قصده مال مطمع ، أو جاه مصطنع ، أو رأفة بآله ، أو مخافة على عياله .

هذا حسين التاريخ والذي يصلح ان يكون المثل الأعلى لرجال الاصلاح وقلب حكم غاشم ظالم دون أن تأخذه في الله لومة لائم . وقد بدت لنهضته آثار عامة النفع جليلة الشأن فانها :

اولا ــ اولدت حركة وبركة في رجال الاصلاح والمنكرين لكل امر منكر . حيث اقتفى بالحسين السبط ابناء الزبير والمختار الثقفي وابن الاشتر وجماعة التوابين وزيد الشهيد حتى عهد سميه الحسين بن علي شهيد فخ وحتى عهدنا الحاضر ممن لا يحصون في مختلف الأزمنة والامكنة ، فخابت آمال أمية فيه ، إذ ظنت أنها قتلت حسيناً فأماتت بشخصه شخصيته وابادت روحه ودعوته . كلا ! ثم كلا ! لقد أحيت حسيناً في قتله وأوجدت من كل قطرة دم منه حسينا ناهضاً بدعوته داعيا الى نهضته .

أجل ! فان الحسين لم يكن الا هاتف الحق ، وداعي الله ، ونور الحق لا يخفى ، ونار الله لا تطفى ويأبى الله الا ان يتم نوره ويعم ظهوره .

ثانيا ــ إن الحسين ــ بقيامه في وجه الجور والفجور مقابلا ومقاتلا ــ احيا ذلك الشعور الاسلامي السامي الذي مات في حياة معاوية او كاد أن يموت ، ونبه العامة الى حب الحياة ، ورعاية الذات والذات، والتخوف على الجاه والعائلات . لو كانت تبرر لأولياء الدين مصافات المعتدين لكان الحسين أقدر وأجدر من غيره . لكنه أعرض عنها اذ رآها تنافي الايمان والوجدان وتناقض الشهامة والكرامة ، فجددت نهضته في النفوس روح التدين الصادق وعزة في نفوس المؤمنين عن تحمل الضيم والظلم وعن أن يعيشوا سوقة كالانعام وانتعشت إحساسات تحرير الرقاب والضمائر من اغلال المستبدين وأوهام المفسدين .

ثالثا ــ ان النهضة الحسينية هزت القرائح والجوارح نحو الاخلاص والتفادي ، واتبعت الصوائح بالنوائح لتلبية دعاة الحق واستجابة حماة العدل في العالم الاسلامي وانعاش روح الصدق وهو رأس الفضائل .

وبوجه الاجمال عدت نهضة الحسين (ع) ينبوع حركات اجتماعية باقية الذكر والخبر في ممالك الاسلام، خففت ويلات المسلمين بتخفيف غلواء المعتدين . فأي خير كهذا الينبوع السيال والمثال السائر في بطون الاجيال.

الفضيلة والرذيلة

الفضيلة محبوبة الجميع والرذيلة مكروهة الا لدى صاحبها. وإذا عدت الفضائل فضيلة، فضيلة ــ من وفاء، وسخاء، وصدق، وصفاء، وشجاعة، وإباء، وعلم، وعبادة، وعفة، وزهد ــ فحسين التاريخ رجل الفضيلة بجميع مظاهرها، كما ان معارضيه رجل الرذائل بكل معانيها لا يتناهون عن منكر فعلوه.

فأتت من أجل ذلك (نهضة الحسين) ــ عليه السلام ــ أمثولة الحق والعدل، إذ بطل روايتها أقوى مثال للفضيله. وقد كانت حركة يزيد[1] أمثولة الباطل والظلم، إذ بطل روايتها أقوى مثال للرذيلة والفجور. وما حربهما الا تمثيلاً لصراع الحق والباطل. والحق مهما قل مساعده وذل ساعده في البداية فان النصر والفخر حليفاه عند النهاية « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ».

---

(١) طفحت مدونات التاريخ بمظالم يزيد وهتكه لحرمات الدين والحرمين في أيامه القصيرة، ويشترك معه ــ طبعا ــ في الاثم كل من ساعده عليه أو ساعده على استخلافه، كالمغيرة بن شعبة الذي حمل معاوية على استخلاف يزيد وقصته معروفة، فصار ابوه لا يتريث في ترشيحه للخلافة فولاه امارة الحج مرتين بعد ن استتب له الامر، وولاه الصائفة تارة وقيادة الجيش اخرى ــ والصائفة غزاوة الروم لانهم كانوا يغزون صيفا وصائفة القوم ميرتهم في الصيف ــ. كما واخذ له البيعة من المسلمين في حياته طوعا وكرها غير مبال بمن خالفوه وشنعوا عليه حتى مات معاوية سنة ستين ونادي يزيد بنفسه ملكا على المسلمين وخليفة عن اسلافه.

وقد استمرت ولايته ثلاث سنوات تقريبا فكان عمله في السنة الاولى قتل الحسين ريحانة النبي (ص) والبقية من آله ــ على الوجه المشروح في هذا الكتاب ــ وسبي ذراريه وعياله الى الشام بأسوء من سبايا المشركين.

←

سلسلة عوامل النهضة

ينمى مؤرخة الغرب معارضة بني أمية لبني علي (ع) الى زمن أبعد مدىً مما اشتهر ، والى قطيعة حدثت بين هاشم وشقيقه عبد شمس ولدي عبد مناف القرشي . وكانت المعارضة إذ ذاك بينهما فقط ، ثم تفشت بعد مائة عام بين حزبين قويين : حزب التوحيد وعميده المصطفى (ص) ، وحزب الشرك وأقطابه أبو سفيان وأبو جهل والحكم والوليد وخمسة عشر آخرون . وبقيت نار الجدال والقتال مستمرة بين الحزبين ١٩ عاما حتى إذا جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا ودخل معهم هؤلاء طوعا أو كرها ، فخمدت تلك النار الموقدة إلا في الافئدة بضعاً وثلاثين سنة حتى استثارها مروان في إمارة عثمان وأثار مع الحفائظ نيران الفتن والاحن .

وعميد الحزب الهاشمي علي (عليه السلام) رجل الحق وفي أنصاره

ولم تقف سوء نيته عند هذا الحد حتى ثنى الفاجعة الاولى بالاخرى — وتسمى الحرة — فأخاف مدينة الرسول وجيرانه سنة ٦٣ هـ لأجل إنكارهم عليه منكرات اعماله المخالفة للشريعة، وفي صحيح مسلم عنه (ص) : « من اخاف اهل المدينة اخافه الله وكانت عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين » وأمر يزيد باباحة حرم النبي (ص) لجيشه ثلاثة ايام فعبثوا بها سلبا ونهبا وقتلا وبغيا ، حتى قيل في سفك دمائها وهتك نسائها ما يقشعر منه الانسان ، فلم يبق بعدها بدرى في العرب واخذ منهم بالقهر إقرارهم على انهم عبيده واماؤه لا يملكون في جنب اوامره مالا أو عرضا أو رقبة، وقتل كل ممتنع عن هذه البيعة القاسية ما عدا علي بن الحسين (ع) ، وختم سني إمرته بحصار الكعبة ورميها بالحجارة من المنجنيق المنصوب على جبل ابي قبيس ، وباستباحة القتل في البلد الحرام وفي الشهر الحرام : أي محرم سنة اربع وستين بغرض إرغام عبدالله بن الزبير — المستجير هو ومن معه بالمسجد الحرام — ورمى الكعبة بالنار يوم السبت ثالث ربيع الاول فأحرق استارها وسقفها وقرني كبش اسماعيل فيها ، وبقيت النار مضطرمة أحد عشر يوما وفي اثناء ذلك كان هلاك يزيد في رابع عشر ربيع الاول الموافق لعاشر نوفمبر سنة ٦٨٢م .

المهاجرون والبدريون وأبطال مصر والعراقيين وشعارهم الحق ، والفضيلة، وحفظ الحرمات . كما اقام الجانب المعارض أمره على دعائم الغدر ، والمكر، وطلب الملك ، والشهوات هم معاوية وزياد بن أبيه وعمر بن العاص ومروان والمغيرة بن شعبة واشباههم . فاستخدموا في سبيل الانتصار كل وسيلة وحيلة زهاء ربع قرن ملؤه الفجايع والفظايع حتى احتجب الحق وتوارى اهله، وفاز ابن ابي سفيان واهلوه في كل منكر فعلوه حتى في إقامة الجمعة في غير يومها وحتى في استلحاق زياد واستخلاف يزيد[1] وحتى .. وحتى .. استنوقوا الجمل وظنوا موت الحق ، ولكن الحق حي لا يموت. هنالك دعي طغيان الغرور يزيد الجور والفجور ان يطالب اباه باقتران ارينب (ام خالد) ربة الخدر والجمال وهي مبتعلة بزوجها عبدالله .

قالوا : « إن يزيد بن معاوية كان يتحرى أخبار الفتيات الحسان فبلغه من وصف ارينب بنت إسحاق القرشي وكمال جمالها ما استثار هواه وظل يترقب فرصة إعلام ابيه برغبته اليها فيزوجها منه . فسمع يوماً بزواجها من ابن عمها عبدالله بن سلام فشق عليه ذلك وابلغ اباه معاوية بما هو فيه وانه مشرف على الهلكة من خيبة الأمل ، فأمره ابوه ان يكتم رغبته حتى يتمكن من استدراك ما فاته . ثم استدعى عبدالله بن سلام الى الشام واكرم ضيافته وارسل اليه ابا هريرة ليرغبه الى مصاهرة معاوية وتزويج اخت يزيد إياه ، فرحب عبدالله برغبة معاوية ولبى هذا الطلب بكل شكر وثناء ، فرجع ابو هريرة بذلك الى معاوية ، فقال معاوية : سر يا ابا هريرة الى ابنتي واعلمها برغبتي الى زواجها، فان الاقدام على ما فيه رضاؤه أحوط وأقرب الى رضاء الله تعالى ، وكان معاوية قد بيت الكلام مع ابنته وعلمها الذي تقوله في الجواب . ولما اتاها

---

(١) قال الحسن البصري : « اربع خصال في معاوية لو لم تكن إلا واحدة منها لكانت موبقة : إنتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى اخذ الامر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذووا الفضيلة، واستخلافه من بعده سكيراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، وقتله حجراً واصحاب حجر ويا ويلا له من حجر واصحاب حجر » الكامل لأبن الاثير .

أبو هريرة بمقالة ابيها معاوية وامتدح عندها عبدالله بن سلام أجابت بانها لا تأبى ما اختاروا لها لولا انها تخشى وجود زوجته (ارينب) فيدركها ما يدرك المرأة من ضرتها مما يغضب الله ويغضب أباها ، فخرج ابو هريرة الى عبدالله بن سلام بالخبر واستقر رأيهم على طلاق أرينب فطلقها عبدالله بن سلام طمعاً في مصاهرة معاوية وجلالة ملكه ، وبعد ما توثق معاوية من طلاق أرينب جهز اليها أبا هريرة ليخبرها بأمر زوجها عبدالله وأن يزوجها من ابنه يزيد بما شاءت من صداق ، وظل ابن سلام يطالب معاوية بانجاز ما وعده ومعاوية يماطله ، حتى سمع بأن مخطوبته تكره قبوله زاعمة ان الذي يطلق ابنة عمه التي فاقت أقرانها مالاً وجمالاً وكمالاً وشرفاً لا يصعب عليه أن يطلق الثانية يوماً ما . وشاعت مكيدة معاوية في الملأ وانه يبغي وراء حرمان عبدالله بن سلام من زوجته أرينب ان يزوجها من يزيد . وخرج ابن سلام من الشام غضبان اسفاً . اما ابو هريرة فمر بالحسين بن علي (ع) في طريقه فسلم عليه فاحتفل به الحسين (ع) وسأله عما جاء به من الشام فقص عليه خبره فناشده الله أن يذكره عند أرينب عسى أن ترضى بالحسين زوجا لها ، فقبل ذلك ابو هريرة وجاء الى أرينب واخبرها بما فعل زوجها عبدالله ابن سلام .. بائنة فبكت أرينب ولما هدأ روعها واسترجعت قال لها ابو هريرة : « انك لا تعدمين طلاباً خيراً من عبدالله بن سلام وقد رغب الى زواجك يزيد بن معاوية والحسين بن علي (ع) وهما معرفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال ، ويبذلان لك ماتشائين من الصداق » . ثم لما عاودها على اختيار رأيها في الرجلين قالت : « انك خير من استشيره في الأمر فاختر لي » فقال ابو هريرة : « لا أختار فم أحد على فم قبله رسول الله تضعين شفتيك في موضع شفتي رسول الله » . قالت : « فلا اختار على الحسين بن علي أحداً وهو ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة » فعقد عليها الحسين . ولما بلغ ذلك معاوية سخط سخطاً شديداً وقال :

انعمي أم خالد ... رب ساع لقاعد[1]

(١) النصائح الكافية ص ٩٧ . وام خالد كانت كنية ارينب .

حنق يزيد على الحسين بن علي حنقاً لا مزيد عليه ، واستهون الأمر عبدالله بن سلام وخف عليه حزنه وجاء الى الحسين (ع) وطلب منه أن يسأل أرينب رد امانته التي أودعها لديها عندما سافر الى الشام وهي خلاصة ما يملكه من دنياه . فجاء الحسين إلى أرينب وقال لها : « ان زوجها عبدالله بن سلام يطالبها بوديعة أودعها لديها » فقالت : « صدق وها هي وديعته » واخرجت بدراً مختومة ، فدعا الحسين عبدالله وقال له : «ادخل عليها واستلم وديعتك من يدها كما استلمتها من يدك » . فدخل عبدالله وبكى وبكت معه واستلم الودايع منها سالمة ثم قال لهما الحسين : « ارجعا إلى ما كنتما عليه ، فاني اشهد الله انها طالقة وإني لم ألمسها وما أدخلتها في بيتي وتحت نكاحي إلا محافظةً لها من يزيد ومن كيد أبيه ، فخذ بيدها واذهبا حيث شئتما » .

فبكيا من الوجد طويلاً وأرادت أرينب أن تعيد إلى سيدها الحسين صداقها فوهبها الحسين قائلا : « إن الذي أرجوه من الله تعالى خير لي من ذلك » ولم يسترجع منها شيئاً كرامة منه وإحساناً .

نعم دفعت سجية الفضيلة حسينها الى صيانة عرض عبدالله من عدو الله بعد أن عرفت من سجايا هتك الحرمات ، وعرف من سجايا أبيه تبديل آثار جده وتبديد مجده ، وتذكر بعد ذلك اسم أخيه وسب أبيه ، وما فعلت هند بعمه ، وأذى صخر لجده ، وان الذي اضمروه له ولاسرته ــ أو بالأحرى لامته ــ في مستقبل الزمن أسوء من ماضيه . كل هذه الذكريات دفعت حسين الشرف إلى إبراز هذه المآثر التاريخية المتلألئة في سماء الفضائل .

لقد أثرت عملية الحسين (ع) تأثيرها الحسن في نفوس بني الضاد رقاة الشرف ودعاة مكارم الاخلاق ، كما أنها أثارت من يزيد أحقاداً خمد نارها أو كادت فوق ما ذكرته اندحار أبيه أمام جدال الحسن ، وقتال أبيه ،ومصرع عتبة وشيبة وحنظلة وسائر أشياخه ، والذل الذي لحق جده يوم عرض نصرته لعلي (ع) ويوم عرض إسلامه للنبي (ص) وعند استجارته بهما في المدينة .. فصمم من فوره على الانتقام من حسين الفضيلة أشد الانتقام حينما اصبحت الأمور له متسقة والجماهير به مستوثقة وفيهم عبيدالله بن زياد إن لم يكن زياد .

مبادىء قضية الحسين

كل الذين دونوا قضية الحسين (ع) أخذوا سلسلتها من أوساطها ، أي من حين البيعة ليزيد . في حين أن القضية ـ كما سبق ـ تبتدىء من عهد أبي سفيان ومحمد (ص) ـ إن لم نقل من قبل ومن عهد هاشم[1] وعبد شمس ـ فان أبا سفيان جد يزيد إذ رأى محمداً جد الحسين قد نهض في مكة سنة ٦١٠م يدعو العرب الى توحيد المعبود والاتحاد في طاعته ، حسب انه سيهدم مجد عبد شمس ورئاستهم ويبنى لبني هاشم(٢) بيت مجد مرصوص الأساس ويعم ظله الوارف عامة الناس . فاندفع بكل قواه الى معارضته ففعل ما فعل في مقاومة النبي (ع) واهانته ، وتفريق أعوانه ، وتحشيد الجموع لمحاربته حتى كان في ايام بدر واحد والاحزاب وهما مثالان للحق والباطل ، وامر محمد (ص) يقوى انتشاره ومناره حتى رمى حزب أبي سفيان آخر نبلة من كنانته ولم يفلح « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون » ،وذلك أن الله سبحانه فتح لنبيه مكة فتحاً مبيناً ، ونصره على قريش نصراً عزيزا . إنتهت الحركة السفيانية ، ولكن في الظاهر .

---

(١) هاشم وعبد شمس أخوان أبوهما عبد مناف بن قصي .
قيل ولدا توأمين متلاصقين بقطعة لحم في ظهريهما فالجأت الحالة الى فصلهما بالسيف ، فتطير المتشئمون من ذلك واستدلوا منه على استمرار السيف بين ذراريهما فكان كما قالوه ، وكان الامويون من بني عبد شمس والهاشميون من بني عبدالمطلب طرفي الخصام في الجاهلية والاسلام ، وكان هاشم اسمه عمرو ـ ويقال له : عمرو العلا ـ ولقب هاشما لكثرة هشمه الثريد لاضيافه ولزوار البيت الحرام .

(٢) كان بنو هاشم صفوة قريش حينما كانت قريش صفوة العرب ووجوه ابناء الجزيرة وامتاز بنو هاشم من بين القبائل كلها بالسماحة والفصاحة وطلاقة الوجه واللسان واقراء الضيوف ونجدة المظلوم وحسن السمة وشرف النفس وطيب المولد وطالما اعتدت عليهم قريش بسبب تمسكهم بالحقوق ورعايتهم للعهود ومحاماتهم عن الحرم .

أما الحزب الخاسر المنكسر فقد كان يعمل ليلا ونهارا في تلافي خسرانه وارجاع سلطانه ، ولكن تحت الستار وبأخفى من دبيب النمل على الصفا ، يرسم الخطة للقيام بحركة وسيعة الدائرة حتى إذا قضى النبى (ص) نحبه تنفس وانتهز الفرصة لاستعادة مجده .

أجل ! لقي محمد (ص) ربه وأبو سفيان حي يسمع الناعية عليه ، ولكن لا يسعه إظهار شيء وكان العباس عم النبي (ص) يعرف من امره شيئاً إذ كان صديقه الحميم في الجاهلية والاسلام ، فأشار على علي (ع) ابن أخيه أبي طالب ــ وهو يغسل جنازة النبي (ص) ــ قائلا له : « يا علي مديدك لأبايعك حتى يقول الناس : عم رسول الله بايع ابن عمه ، فلا يختلف عليك إثنان » فلم يسمع من ابن أخيه جوابا سوى كلمة : « يا عم أولها غيري » وقبل أن يدفن النبي (ص) نجم الخلاف حول خلافته بين المهاجرين والانصار .

لكن الذي نعلمه أن أبا سفيان لم يكن من الانصار ولا من المهاجرين عندماقالا : «منا أمير ومنكم أمير » حتى يحسب لنفسه حسابا في التحيز الى طرف ، ورأى انضمامه الى اضعف الاحزاب ــ أي حزب علي (ع) ــ أقرب الى مقصده من ايجاد موازنة في القوى وخلق عراقيل تكاد تمنع من حسم الخلاف ، فجاء علياً قائلا له : « لو شئت ملأتها لك خيلاً ورجالاً وعلي (ع) يومئذ يطرق الأبواب على المهاجرين والانصار يتمنى ناصراً لقضيته ، فلو كان ممن يضيع رشده بالمواعيد الخلابة لاغتنم من أبي سفيان هذا العرض ، ولكن الامام عرف سوء قصده ــ وقصده الصيد في الماء العكر ــ فأجابه بالرد والاستنكار قائلا له : « مه يا أبا سفيان أجاهلية واسلاماً » أي إنك تتربص دوائر السوء بدين محمد (ص) في عهديك : عهد الجاهلية وعهد الاسلام ، وتفرس سوء مرامه من كلامه وانه انتهز فرصة الخلاف من حاشية النبي (ص) وقصد إحتلال مدينة الرسول عاصمة الاسلام بحجة نصرة الضعيف أو تسوية الخلاف ، وما جيوشه سوى مردة العرب من أهل النفاق ، فاذا نزل هؤلاء في عاصمة التوحيد سادت منافقة العرب ، وعادت مبادىء الجاهلية ــ والناس حديثو عهد بالاسلام ــ فيكون الرجعيون أولى بالقوة والنصرة والموحدون

أولى بالضعف والذلة «ويخرجن الأعز منها الاذل». قرأ هذه الشروح وأكثر منها علي (ع) من كلمة أبي سفيان فرده رداً قارصاً ، لأن علياً رجل الحق وبطل الايمان لا يضحي الدين أو المصلحة العامة في سبيل نفع ذاتي أو شهوة وانتقام .

ولما عرف أبو سفيان ان علياً (ع) لا ينخدع وانه عند تداخل الأغيار ليصافح إخوانه المسلمين ويتحد معهم لحفظ بيضه الدين ـ مهما كان ضدهم وكانوا أضداده ـ ندم أبو سفيان على لفظته ، ومرع الى الحزب الغالب ، وانضم اليهم ليحفظ مركزه الاجتماعي قبل أن يخسر الطرفين وتأخرت منوياته الى حين ـ حينما يخضر عود أمية بامارة معاوية على الشام وعود سلطانهم .

وبعد ما نبغ فيهم معاوية أخذ على عاتقه القيام بنوايا أسلافه ومعه يومئذ أبوه ينصب عليا (ع) ـ دون المسلمين ـ هدفاً لسهامه الفتاكة ، إذ عرفه الينبوع الوحيد لسيال وحي المصطفى (ص) ، وانه البطل المناوىء لهم بكل قواه ، والعميد القائم ببيت بني هاشم ، والمركز القوى لابادة الحركة السفيانية ، وان عليا هو وأبوه نصيرا محمد (ص) حين لاناصر له حتى انه فداه بنفسه ليلة مبيته على فراشه ، وضيع على قريش هجرته ، ونقض ما أبرموه عليه ، وعلي القاتل صناديد قريش وأركان حزبهم في بدر وغيرها ، ولولاه لقضوا على حياة رسول الله (ص) في بدر وأحد والخندق، وعلي الفاتح قلوب أهل مكة في وجه محمد المصطفى إذ تلا عليهم سورة البراءة في الموقف العام العصيب بكل ثبات وجسارة وإقدام ـ الأمر الذي لم يكن يقوم به أحد من المسلمين ـ الى غير ذلك من مواقفه المهمة التي ضيع فيها على أمية مكايدها وكانت صدور أمية تغلي كالمرجل على رجل الايمان .

دوافع يزيد الانتقامية

لقد تستر ابن هند والحزب الأموي في إخفاء غرضه تحت مخابيء السياسة المطلية بدهائهم ، لكنما أخلافه ـ أمثال يزيد والوليد ـ كشفوا القناع بافعالهم وأقوالهم عن كل ما أجني وأخفي على الملاء ، فتجلى كالشمس أنهم يبتغون التشفي والانتقام من محمد وأهل بيته بكل معاني التشفي ، إذ لم يسكت عن الحسين كما سكت عن ابن الزبير ، وخالف في ذلك وصاية أبيه وبرنامجه ثم لم يسالم الحسين كما سالمه ولم يقنع بخروجه عن مناطق نفوذه وحدود سلطانه ـ كما قترح عليه الحسين نفسه ـ ولم يجالدوا ابن النبي مجالدة عربي لعربي ، بل ضيقوا عليه سبل الحياة ، ومنعوه من ورد الفرات ، وحاصروه بنسائه واطفاله في الفلات ، ومثلوا به وبصحبه بعد القتل شر مثلة، وجردوهم تاركين اشلاءهم عراةً على العراء تسفى عليهم الرياح ، وقطعوا رؤوسهم وداروا بها على فوق الرماح ، وسبوا صبية الحسين ونساءه يطاف بهن في الآفاق وفي الأزقة والاسواق ، مربقين بالحبال كالاغنام وحولهم طبول وابواق ، يضع أميرهم الرأس الشريف بين يديه وينكت برأس الخيزران ثناياه وشفتيه ويقول شامتاً :

يا حبذا لونك يا حسين كحمرة الوردة في الخدين .. الخ

ويسبون الحسين وأباه وأخاه سراً وجهراً ، وينتحلون الاحاديث القادحة في علي وصحابته ، ويهتكون حرم الله ورسوله وحرمات الدين، ويفعل يزيدهم طغياناً في مدينة الرسول (ص) ما فعله فرعون ، ويزيد يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم فراثت خيلهم في روضة النبي (ص) واستباح عسكره المدينة ثلاثة ايام ، وافتضت بها اثني عشر ألف عذراء ، ولم تسلم حرة في واقعة الحرة ، إلا من لذن ببيت السجاد علي بن الحسين ـ عليه السلام ـ وهن ستمائة من

الهاشميات وغيرهن، فقد استثنى يزيد بيته وشخصه من الاضطهاد والاستعباد إذ أمر قائده ان يجدد مبايعة اليثاربة له على أنهم عبيده ان شاء باعهم وان شاء اعتقهم .

وروى الجاحظ : « إنهم وسموا العباد ، ووشموا الاجساد » ـ كما يفعل بالانعام والكلاب ـ علامة أنهم خول لبني أمية ، ورأوا انس بن مالك ـ خادم رسول الله وصاحبه ـ وفي عنقه قلادة مختوم عليها بالرصاص علامة عبوديته لهم ، واحرقوا ستار الكعبة ، ورموها بالمنجنيق ، وقتلوا الطائفين والعاكفين ، وسفكوا الدم الحرام ، في البلد الحرام ، وفي الشهر الحرام ، وحولوا قبلة واسط الى الشام .

معاوية وتعقيباته

ناصب معاوية وحزبه علياً وصحبه وكان ما كان من ايام البصرة وصفين والنهروان وعلي (ع) في كلها غير مخذول ، ولا يزداد معاوية الا حقداً عليه وموجدة ، وتعقب الضغائن إثر الضغائن . وكان معاوية رجل الغدر وحليما إلا على علي (ع) وخاصته .

فلما توفى علي (ع) سنة ٤٠ هـ بسيف ابن ملجم الخارجي ساجداً في محرابه ، زال من بين عيني معاوية ذلك الشبح الرهيب الذي كان يخفيه في منامه وفي خلواته ، وقويت عزائمه وتوجهت شطره أكثر النفوس التي كانت رهن سجايا علي (ع) وعلومه ومنقادة لصوته وسوطه وصيت شجاعته وسماحته ، لا سيما وان الاثار النبوية المشهورة فيه كانت لا تقاس كثرة وشهرة بما ورد في شأن غيره ، والخدمات التي قام علي بها كانت قاطعةالألسن فضلا عن طول عهد الامارة لمعاوية وانتشار حزبه الفعال وتوزيعه الاموال .

هذه العوامل وغيرها ضيقت دائرة النفوذ على الحسن بن علي (عليه السلام) وخليفته ووسعت المجال لمعاوية وحزبه ، فانتقم من علي بعد وفاته وسبه علياً على المنابر ، والمنائر ، والالسن ، والكتب .

ويا بؤسها من حيلة ووسيلة لاستئصال مجد بني هاشم بثلب كبير هم وقد قال ابن عباس : « إنهم يريدون بسب علي سب رسول الله » ثم لم يقنع بذلك فأخذ يتتبع خاصة علي (عليه السلام) بالسم والاسل ويقول : « إن لله جنوداً من عسل » يعنى السم المعسول الى اعدائه، ولم يسع حلمه أصحاب علي وبنيه قط فدس سما ذريعاً الى زوجة الحسن السبط فقتلته اغتراراً بموعد زواجها من يزيد .

تأثرات الحسين الروحية

هنا حري بنا ان ندرس حالة الحسين (عليه السلام) ذلك المتفاني في حب شقيقه الحسن ماذا يجري على قلبه وهو يرى احشاء اخيه مقذوفة في الطست من سم معاوية ، ثم تمنع بدسيسة مروانية جنازة اخيه من زيارة جده ـ وهما ريحانتاه ـ ويسمع سب أبيه واخيه في المعابر وعلى المنابر ، وتنعى اليه صحابة أبيه من فتك معاوية بهم ، وسحق العهود الشريفة ، ومحق شعائر الاسلام ، وتبديل سنن جده بالبدع ، وتحويل الاسلام من روح دينية عالمية الى روح قومية ملكية ، وتمهيد أسس للرجعة الى الجاهلية .

هذا كله عدا ما سبق من امر معاوية وعلي (ع) في حروب وفتن أوجدها معاوية لاغراض ذاتية ، وفت في عضدالدين ، وشتت بها شمل المسلمين . أضف عليها ما جرى على جده المصطفى (ص) من الحزب السفياني اثناء البعثة وبعد الهجرة . أفلا يكون بعد ذلك كله قلب الحسين دفتراً ملؤه المؤلمات ؟! ولا بد وان تكون هذه الموجدات في الحسين (عليه السلام) وفي صدره بركاناً قويا مشرفاً على الانفجار ، وحسين الشهامة لم يكن بالذي يقيم على الضيم لولا ان الوصية تتلو الوصية من اخيه وجده وابيه وخاصة مواليه بالصبر ، « والصبر أمر من الصبر » .

كيف يبايع الحسين

غريب والله ان يزيد المشهور بالسفاسف والفجور يريد التقمص بخلافة النبي محمد (ص) المبعوث لتكميل مكارم الاخلاق، وذلك في حياة الحسين(ع) ابن ذاك النبي وحبيبه. فيزيد يعلم نفسية الحسين ويعلم أن صدر الحسين(ع) أصبح بركانا قريب الانفجار، ومع ذلك لا يقنع بسكونه وسكوته عما هو فيه بل يريد منه فوق ذلك كله ان يعترف له بالخلافة عن الرسول، وهل ذاك الا رابع المستحيلات ؟ فان اعتراف الحسين (ع) بخلافة يزيد عبارة أخرى عن أن الحسين ليس بالحسين (أي إن معنى قبوله البيعة ليزيد بيع دين جده، وكل مجده، وكل شعور شريف للعرب، وكل حق للمسلمين، وكل آمال لقومه يبيعها جمعاء برضى يزيد عليه) وهذا محال على الحسين (ع) وعلى كل أبطال الفضائل، فان قبوله بيعة يزيد عبارة أخرى عن اعترافه بتساوي الفضيلة والرذيلة، واستواء العدل والظلم، واتحاد الحق والباطل، وتماثل النور والظلام، وإن العلم والجهل مستويان، وإن الخفيف والثقيل سيان في الميزان . فهل يسوغ بعد هذا كله سكوته وسكونه ؟؟

وقد يزعم البسطاء ان الحسين (ع) لو استعمل التقية وصافح يزيد لاتقى ببيعته شر أمية، ونجا من مكرها، وصان حرمته، وحفظ مهجته، لكن ذلك وهم بعيد ..

فان يزيد المتجاهر بالفسوق لا يقاس بمعاوية الداهية المتحفظ، فبيعة مثل الحسين (ع) لمثل يزيد غير جائزة بظاهر الشريعة ولذلك تخلف عن بيعته سعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر، وعبدالله ابن الزبير أيضا فانكروا على معاوية استخلاف يزيد وامتنعوا عن بيعته حتى فارقوا الحياة، وكان سيدنا الحسين (ع) أولى بهذا الامتناع والانكار .

وأما مع غض النظر عن التكليف الشرعي ومطالبة وجه غير التمسك بظواهر الكتاب والسنة فنقول : إن التحري في الوثائق التاريخية والكتب المعتبرة يؤدي الى الأعتقاد بان سيدنا الحسين (ع) كان يعلم بانطواء خصومه على نية التشفى من قتله ، وقد صرح في مواطن عدة بأن بني أمية غير تاركيه حتى لو كان في جحر ضب لاستخرجوه وقتلوه ، وقال (عليه السلام) للعكرمي في بطن عقبة : « ليس يخفى على الرأي ولكنهم لا يدعونني حتى يخرجوا هذه العلقة من جوفي » وأكد ابن زياد نية التشفى من قتل الحسين (ع) في كتابه لابن سعد قائلا : « حل بين الحسين وأصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة ، كما صنع بالتقي الزكي عثمان بن عفان » . وأعلن يزيد نفسه بما يضمره من الانتقام من آل محمد كما قال :

لست من خندف ان لم انتقم من بني أحمد ما كان فعل

إلى غير ذلك من الشواهد التي نستنتج منها ما قصده الأمويون من الانتقام من آل الرسول (ص) علم ابن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) من كل هذا تصميم آل حرب على انتقامهم من آل علي مهما تظاهر هؤلاء بمسالمتهم ومطاوعتهم ومهما تظاهر آل حرب لهم بالأمان والأيمان ، وقد أكد هذا العلم غدر ابن زياد بابن عمه مسلم واعطاؤه الأمان حتى اذا خلع سلاحه قتله شر قتلة ، وأجلى من ذلك غدر معاوية بأخيه الحسن (ع) ودسه السم الى من قتله بعد أن صالحه وصافحه وتنازل له عن خلافته المعقودة له . فهل ترى ابن النبي (ص) بعد ذلك كله يعيد الامتحان ويجرب المجرب ؟ كلا ! إذن فالحسين وجد نفسه مقتولا إذا لم يبايع ومقتولا اذا بايع ، لكنه ان بايع اشترى مع قتله قتل مجده وقتل آثار جده أما إذا لم يبايع فانما هي قتلة واحدة تحيا بها آماله ، وشعائر الدين ، والشرف المؤبد .

البيعة ليزيد

صفا لمعاوية الجو وملك نحو أربعين سنة ملكا قلما يسمح الزمان بمثله، وهو في خلال ذلك لا يفتر عن عمله ليله ونهاره ، فيستكثر أعوانه ، ويعزز إخوانه ، ويستحوذ على من يشاء بما أوتى من مال ودهاء ، واستمال الى أهوائه أمثال زياد وابن العاص والمغيرة من الدهاة فمد أطناب حزبه ورواق مأربه ، وانقادت اليه حتى آل هاشم . ولكن الرجل استحب دوام هذا السؤدد لبيته ومن يخلفه في إنفاذ نواياه ، اذ عرف أن سلطانه وقتي وقسري — وما كان بالقسر لا يدوم — فاراد إثباته في بيته ما دام حياً لأنه يخشى من موته إنقلاب الأمور على بنيه . لا سيما وابنه يزيد موضع نقمه الجمهور وفي الناس من هو أقدم منه وأولى ، فاخذ البيعة ليزيد حال حياته — بعد أن ذلل الصعاب ومهد السبل لغاياته — غير أن الأباة أبوا عليه البيعة ليزيد ، واتخذت عملية معاوية هذه كمناورة يمتحن بها مخالفيه ، ثم أوصى ولده يزيد بان لا يمس هؤلاء بسوء إذا أبوا عليه البيعة بعد موته إلا ابن الزبير ، والسر فيما ارتآه داهية قريش هو أن البعض من هؤلاء ضعيف النفس وغير مسبوق بغضاضة .

وأما الحسين السبط فنفس أبيه بين جنبيه ويخشى على البيت الأموي من التعرض له ، وبما أنه رجل الفضيلة يؤمل فيه أن يستمر على سكوته وسكونه اذا عمل برغائبه ومداراته ، ويخشى من قيامه أن يقوم الحجاز والعراقان معه حين لا معاوية لديه ولا ابن العاص .

أما ابن الزبير فذو نفسية حربية مع اعدائه وذو دهاء مع رقبائه ولكنه كأبيه شحيح لا مطمع فيه ، فالعدو لا يأمن منه والصديق لا يأمل فيه ، فاستهان القضاء عليه من دون توقع محذور في معاداته . لكن يزيد لم يعمل

بهذه الوصية اذ أنه عاش عيشة ترف قضاها في الصيد والسكر والهو ، ومثل هذه التربية تسوق صاحبها لعبدة الهوى والاغترار بسلطان الشهوات ، فلا يحترم قديماً ، ولا يحتشم عظيما ، ولا يحتفل بالدين ، ولا برغائب الجمهور.

وعليه فما مات معاوية إلا والأوامر تترى من يزيد على ابن عمه الوليد — والي المدينة — باخذ البيعة له من الناس عامة ومن الحسين وابن الزبير خاصة فتلقى الوليد بن يزيد بن ابي سفيان أوامره بكل رهبة واحتياط ،وكان يعرف سوء سمعة يزيد كما يعرف حسن شهرة هؤلاء عند المسلمين عامة وعند أهل الحجاز خاصة،فأدت سياسته الى إعلام هولاء بالامر بصورة ودية مع المداراة لرغائبهم وحركاتهم قبلما ياخذ البيعة العامة في مسجد النبي ليزيد كخليفة ، فارسل الى الحسين والى ابن الزبير ليحضرا لديه فجاءه الحسين(ع) ومعه ثلة من أقربائه ، ولم يدخلوا معه فاستقبله الوليد بالترحاب ومروان[1] جالس متغير وتكاد تقرأ ما في قلبه من سحنات وجهه . وابتدأ الوليد ينعى معاوية فاسترجع الحسين (ع) ثم قال الوليد : « إن يزيد استحب اقتراح البيعة عليك فما ذا ترى ؟ » فأجابه الحسين : « إن البيعة تحسن من مثلي لمثل يزيد أن

---

(١) هو مروان بن الحكم بن العاص بن أمية .
ولد في السنة الثانية للهجرة وطرده النبي (ص) مع ابيه الى الطائف لأن أباه الحكم أسلم مع ابي سفيان يوم الفتح كرها ونفاقا . وكان يستهزأ بالنبي (ص) إذا غاب عنه ويحس الى المشركين بأخباره ، فدعا النبي (ص) عليه وطرده فآواهما عثمان في خلافته و تخذ مروان كاتبا عنده ، فنقم المسلمون ذلك عليه لا سيما بعد تزويره كتابا عن لسان الخليفة يأمر فيه عامل مصر بقتل محمد بن أبي بكر ورسل المدينة .

وكان مثار الفتن يوم الدار وفي الحروب التي اقامها معاوية ضد لامام علي — عليه السلام — وبايع الامام نفاقا كما أسلم ابوه نفاقا وسرعان ما نكث البيعة وخرج مع طلحة الى حرب البصرة ثم رمى طلحة . ولما أسره الامام (ع) تشفع فيه الحسن (ع) فخلا سبيله . ولما تقدم ليجدد بيعته ابعده الامام قائلا : « لا حاجة لي في بيعته انها كف يهودية ، اما ان له امرة كلعقة الكلب أنفه ، وهو ابو الاكبش الاربعة ، وستلقى الامة منهم يوما أحمر » . ثم هرب مروان الى معاوية وخرج الى صفين . وبعد صلح معاوية مع سيدنا الحسن (ع) تولى إمارة المدينة فالحجاز كله ، واخذ فدكا لنفسه ، ثم أساء معاوية الظن فيه فعزله . وبعد موت معاوية بن يزيد تولى الخلافة ثم خنقته زوجته سنة ٦٥ هـ بالشام .

تكون علانية وبملأ من الناس ، فالأولى أن تؤجلها إلى موعد اجتماع الناس في المسجد » فأجابه الوليد بكل لين وتساهل ، غير أن مروان عكر صفو السلم ، وقال : « يا أمير لا تدع حسيناً يخرج من عندك بلا بيعة فيكون أولى منك بالقوة وتكون أولى منه بالضعف ، فاحبسه حتى يبايع أو تضرب عنقه » فوثب عندئذ حسين المجد قائلا : « يا بن الزرقاء ! أنت تقتلني أم هو؟ كذبت ولله ولئمت » ثم انصرف هو وبنو هاشم .

كان الوليد ومروان كلاهما يبغيان إخضاع الحسين (ع) ليزيد ولكن ذاك بالسياسة وهذا بالتهديد ، وكأن الوليد أراد أن يستميل قلب الحسين ويسترق من لسانه كلمة القبول — ولو سراً — لعلمه أن الحسين رجل الصدق والثبات ، فلا يعدل عن كلمته وليس بذي لسانين ، إسرار وجهار ، ولا ذا وجهين محضر ومغيب .

اما مروان فكأنه علم أن المسلمين اذا اجتمعوا في مسجد النبي بين قبره ومنبره ، وحضر لديهم ريحانة النبي (وبنو هاشم وقوف وبنو الأنصار جلوس) فان المؤثرات المعنوية والحسية لا تسفر إلا عن البيعة للحسين وخسران صفقة يزيد . وبالجملة فان مروان نقض على الوليد أمراً كان قد أبرمه ، غير ان الخبر لم ينشر خارج المدينة لمراقبة الوالي وفقد وسائل المخابرات . اما الحسين (ع) فقد عرف ان مروان سوف يخابر يزيد على عزل الوالي أو يحمل الوالي على الوقيعة بالحسين وآله ، وان يزيد وحزبه ينقادون لارادات مروان بشخصيته البارزة في الحزب السفياني ، وقديم عدائه للنبي وآله . وقد كان هو وابوه طريدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وملعونين على لسانه[1] فلا بد وأن ينتقم من ريحانة الرسول (ص) بالمثل أو يزيد ، فلم يجد الحسين (ع) بداً سوى الهجرة سراً الى حرم الله .

---

(١) قال الجاحظ في رسالة المفاخر : إن مروان بن الحكم كان هو وابوه ملعونين على لسان النبي (ص) وطريديه من المدينة مدة حياته ، ثم في عهد أبي بكر وعمر كلما تشفع عثمان فيهما وفي إيوائهما لم يجد حتى ولي عثمان فآوى مروان الى المدينة على كره المسلمين ذلك حتى كان هذا الأمر احد اسباب قيام المسلمين على عثمان وقتله » .

نظرة في هجرة الحسين

يصف الواصفون لتاريخ الحسين (ع) اشد ليالي حياته عليه ليلة مقتله في الطف ، تلك الليلة التي حوصر فيها هو وذووه في بقعة جرداء وضاقت عليه الارض بما رحبت،ومنع حتى من شرب الماء المباح فلم تهجع عيناه حتى الصباح ولا يبعد ان يكون اشد ليالي الحسين ليلة مرجعه من مجلس الوالي في المدينة وحيرته في سيرته مع القوم الظالمين ، إذ كان الحسين (ع) ليلة مقتله على بصيرة من أمره ، وان ليس بينه وبين الجنة سوى سويعات لكنما الحسين (ع) في ليلة هجرته من مدينة جده كان في جهاد فكري وألم عقلي يفكر في متابعته ليزيد وكونها ضرباً من المحال ، ثم يفكر في بقائه في حرم جده ، لكن ذلك استسلام لمروان فيما يفعل به وبأسرته من قتله المستلزم لقتال رجاله وذبح اطفاله ونهب أمواله وإرسال بناته مع رأسه الى يزيد .

كان مروان ممن يفعل ذلك ويزيد عليه تشفياً لنفسه وانتقاماً لأمية وتزلفاً ليزيد . ولم يكن ابن مرجانة بأوتر منه ولا اشقى ، اذن فماذا يصنع الحسين (ع)؟ الا ان يهاجر الى مكة ابتغاء الابتعاد من المنطقة المروانية ، ولقاء وجوه المسلمين في الحج ، وانتظار الفرج . ولكن كيف يهاجر بأسرته الوفيرة العدد بلا عدد ؟ والهجرة بالاهل ليس بالسهل ، لاسيما في مسالك وعرة غامضة الحال مبهمة الاستقبال . وفي النهاية اختار الحسين (ع) هذا الرأي الاخير على حراجته ، وأوحى بذلك الى إخوانه ورجال اسرته وهم يلبونه فيما يرغب (مهما كانوا كارهين مع التأهب لما يحب كما يجب) الا محمد بن الحنفية فانه سأل أخاه البقاء في حرم جده بين أنصاره ، فأجابه الحسين (ع) بمبلغ عداوة يزيد معه وسوء نيته فيه وضعف ثقته في ناصريه . فقال ابن الحنفية : « ان كان ولا بدّ من ذلك فما معنى حملك النسوة والذرية ؟» فلم

يجد الحسين (ع) مقنعاً لأخيه الا أن يقول له انه من فرط الحب المتبادل بينه وبينهن لا يستطيع فراقهن كما لا يرضين بفراقه ، ولو جرى عليهن ما شاء الله أن يجري . فقال ابن الحنيفة : « انك يا أخي أحب الناس الي وأعزهم علي ، ولست أدخر النصيحة لغيرك ، تنح ببيعتك عن يزيد ، ثم ابعث رسلك الى الناس ، فان بايعوك حمدت الله وان اجتمعوا على غيرك لم ينقص دينك ولا فضلك ولم تذهب به مروتك » قال الحسين (ع) : « فأين اذهب يا اخي ؟ » قال : « انزل مكة فأن اطمأنت بك الدار فيها والا لحقت بالرمال والجبال ، ومن بلد الى بلد حتى تنظر ما يصير اليه الناس فتكون أصوب رأيا » فجزاه الحسين خيراً .

وقد استبقاه أخوه لضرورة وجود من يعتمد عليه في مركزه عماداً للبيت ومحافظاً لودايع أهله كما استبقى على مثل ذلك ابن عمه عبدالله ابن جعفر الطيار .

وكان عبدالله بن جعفر ختن الحسين على أخته وشقيقته زينب العقيلة بنت علي (ع) . ولما علم عبدالله بتوجه الحسين من مكة نحو العراق ، ألحقه بولديه عون ومحمد[1] وكتب على أيديهما اليه كتاباً يقول فيه : « اما بعد فاني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فاني مشفق عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكك واستيصال أهل بيتك ، وإن هلكت اليوم طفي نور الارض ، فانك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالمسير فاني في اثر كتابي والسلام » .

وسار عبدالله الى عمرو بن سعيد فسأله أن يكتب للحسين (ع) امانا ويمنيه ليرجع عن وجهه . فكتب اليه عمرو بن سعيد ولحقه يحيى بن سعيد وعبدالله بن جعفر بعد نفوذ ابنيه ودفعا اليه الكتاب وجهدا به في الرجوع

---

(١) في مقاتل الطالبيين : « ان عون بن عبدالله بن جعفر امه زينب العقيلة (الى ان قال) والعقيلة هي التي روى ابن عباس عنها كلام فاطمة (ع) في فدك فقال : حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي » اما ام محمد فهي الخوصاء .

فقال : « إني رأيت رسول الله (ص) في المنام وأمرني بما أنا ماض له » فقالا : « فما تلك الرؤيا ؟ » قال : « ما حدثت أحداً بها ولا أنا محدث حتى ألقى ربي عز وجل » فلما آيس منه عبدالله بن جعفر أمر ابنيه عوناً ومحمداً بملازمة الحسين والمسير معه والجهاد دونه .

لقد فشل ابن سعيد ــ والي الحجاز بعد الوليد ــ في تدابيره لاقناع الحسين بالرجوع الى مكة كي يحصره فيها وفي منطقة نفوذه ، وقنع عبدالله ابن جعفر الطيار عن الامام باجازة بقائه في وطنه وقنع الحسين (عليه السلام) منه بارسال شبابه الباسلين ، وقد كانا ناصريه بالنفس والنفيس وكانت أمهما زينب نصيرته في نهضته ، وخليفته على صبيته ، وسلوته من كل أحزانه ، ومديرة أمر عياله وبيوت أصحابه ورجاله ، ولولاها لانفرط عقد يتماه بعد قتله ، ولولاها لانتشر نظام أهله بعد انتهاب رحله ، ولولاها لقضي على خلفه العليل وانقرض نسله الأصيل .

هجرة الامام من مدينة جده

سار حسين النهضة من حرم جده ولم يقتصر في الوداع على قبره الطاهر إذ المسافر يوادع من وطنه المحبوب كلما وقع نظره عليه من صحاب وأحباب وغيرهما حتى الماء والتراب، أما ركب الحسين (عليه السلام) فكانوا يوادعون الربوع وداع من لا يامل الرجوع .

خرج الحسين من حرم جده (ص) خائفاً يترقب يناجي ربه لينجيه من فراعنة مصره ونماردة عصره ذكراه رحمة ربه ، ومبدؤه خوف ربه ، وغايته بيت ربه . سائراً في المنهج الأكبر ـ أي الشارع السلطاني ـ فقيل له : « لو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير لئلا يلحقك الطلب » فقال : « لا والله لا أفارق الطريق الأقوم حتى يقضي الله ما هو قاض » ونزل مكة يوم الجمعة ثالث شعبان وهو يتلو : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل » .

الهجرة الحسينية

وانقلابات حول السنين

للحوادث أدوار تتعاقب كالليل والنهار ، والتاريخ يعيد نفسه باختلاف الأطوار ، فما أشبه هجرة الحسين (ع) باهله من المدينة الى مكة خوفاً من آل أبي سفيان بهجرة جده محمد (ص) باهله الى المدينة من مكة خوفاً من ابي سفيان وحزبه ، وبين اليومين نحو ستين عاماً ، كذلك مجد امية وأبي سفيان انقرض في فتح مكة على يدي محمد بن عبدالله النبي الهاشمي (صلى الله عليه وآله وسلم) وانقرضت ثانية دولة آل أبي سفيان بعد مقتل الحسين (ع) ببضع سنين ، وبين اليومين نحو ستين عاماً . ثم بنيت على أنقاضها حكومة مروانية عاشت نحو ستين عاماً ، ثم انقرضت هي وكل مجد لأمية على يدي محمدبن عبدالله القائد الهاشمي ،وألو المبادىء والهمم والعلماء بمجارى الحركات في العالم لا تبرد عزائمهم مهما خابت مساعيهم ويواصلون المسعى بالمسعى وإن فشلوا والدهر دوار ، وللتاريخ تكرار ، وللنفوس إقبال وإدبار . فالناهض بفكرة صالحة لابد وأن يثابر على نشرها والدعوة اليها ثابت العزم راسخ القدم لا تزحزحه عواصف العواطف ولا تزلزله قواصف المخاوف . ولكن عليه أن يستخدم في سبيلها العبر والغير والأحوال ، وبقاء الحال محال ، حتى لو وجد محيطه بالغ الفساد غير صالح للاصلاح استبدل عن المكان بمكان ، وعن الجيران بجيران ، تلك سنة الانبياء والمصلحين حتى اذا فاز بهيئة صالحة وقوة مسلحة عاد الى مركزه ــ والعود أحمد ــ كذلك محمد (ص) من مكة ثم اليها وذياك موسى من مصره ثم اليه . وليس حسين التاريخ بدعاً من رسل الاصلاح اذا هاجر من موطنه خوفاً على مسلكه او املاً بنهضته وكيف كان فقد سمعت الأسباب التي دعت حسيناً أن يغادر يثرب خائفاً يترقب فاسمع

الآن آثار هذه الهجرة وحسن إنعكاسها في العالم الاسلامي ، وقد سبق أن المخابرات بين المدينة والمدن كانت تحت المراقبة ومفقودة الوسائل والوسائط فصارت حركة الحسين (عليه السلام) قضية ذات بال تناقلتها المحافل والقوافل والناس بعد حلوله أم القرى ومن حولها سوابل جارية الى الجهات • فانتشر الخبر بأهمية لا مزيد عليها حتى صار حديث كل اثنين يجتمعان •

س ــ ما وراك ؟

ج ــ هاجر الحسين (ع) من مدينة جده •

س ــ لمـــاذا ؟

ج ــ لأن يزيد قصد إرغامه على مبايعته •

س ــ نعم ! نعم ما صنع الحسين (ع) فانه لو بايع يزيد الجائر المتجاهر بفسقه فعلى الاسلام السلام ، إذن ما ترى أن يكون ؟

ج ــ ليس سوى اجتماع المسلمين حوله ونصبه خليفة كأبيه علي (عليه السلام) ليحيي بعلمه معالم دين جده ، ويحامي بغيرته الهاشمية عن مصالح المسلمين ، وينفذ بقوة إيمانه العلوي أحكام القرآن النازل في بيته •

هذه وأمثالها كانت أحاديث أكثر المجامع يومئذ في الحجـاز اولا وفي سائر الأقطار بعده • وما فاز الحسين بهذه الاذاعة والاشاعة الا بخروجه من المدينة مظلوماً وناقماً على الظالمين •

الحسين وابن الزبير

إستقوت بحركة الحسين (ع) عزائم ابن الزبير ، وجهر بخلاف يزيد ، ورفض بيعته ، ولازم مكة أم القرى يسلك مسلك الحسين ، الا ان غايته كانت الدعوة الى نفسه في حين ان الحسين ـ عليه السلام ـ لم يصرح بالدعاء الى شخصه وانما أجهر برفض بيعة يزيد فقط وبالتقية من شر أمية راضياً بان يخلى له السرب كي ينفذ الى ثغر من الثغور ، كذلك الشريعة تقضي على المسلم اذا لم يسعه إظهار دينه في بلده ان يهاجر منها الى مأمن لا يضطر الى التقية ، وسبط الرسول (ص) احرى بالتزام شريعته . وكان يتسع نطاق شيعته يوماً فيوم لإخلاص الحسين (ع) في أمره ، وجلي فضله ، وسمو شرفه، وكرم محتده . لكن حزب ابن الزبير ـ وان كان صغيراً ـ قد نفع الحسين في تنفير العامة من بني أمية وكانت لابن الزبير وأبيه سابقة سوء مع علي (عليه السلام) في بدء خلافته بالرغم من القربى الماسة بينهم حتى قال عنهما علي : « لم يزل الزبير منا حتى نشأ ابنه عبدالله » لكنما الغاية المشتركة من خوف وضعف تجاه العدو القوي دعتهما الى تجديد عهود الولاء ونسيان سوالف البغضاء،فصار يزور كل منهما الآخر عشية وضحاها وقد صار لمظهر اتحاد ابن الزبير مع الحسين أثر حسن ورهبة في نفوس من عاداهم ومن عداهم ،وذهبت الرسل من الحرمين الى يزيد بأخبار مذعرة وبصورة مكبرة دعته الى التأهب عليهما بكل ما أوتي من قوة ومكيدة . فأرسل عمرو بن سعيد والياً على المدينة واميراً على الموسم مزوداً بالتعاليم وموعودا بالتأييد ، فقدم مكة ليلة التروية .

وضعية الامام في مكة

حل الحسين في حرم الله مستجيراً به ممن يريدون إرغامه على مبايعته لرجل الجور والفجور ، وقد استحسن المسلمون اعتصابه واعتصامه بالتقاليد المقدسة عند المسلمين فأخذ القادمون الى الحج يتهافتون عليه ، ويهتفون بالدعوة اليه ، ويطوفون حوله هذا يلتمس العلم والحديث وذاك يقتبس منه الحكم النافعة والكلم الجامعة ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة والرجل بينهم مرآة الكرامة والشهامة ومثال الحكمة والسلامة ، فطارت في الاقطار اخباره وآثاره ، وتواترت الكتب والرسل والوعود والوفود لاسيما من كوفة العراق ـ عاصمة أبيه ـ من وجوه شيعته ومواليه اذ بلغهم هلاك معاوية فأرجفوا بيزيد وعرفوا خبر الحسين وامتناعه من بيعته وما كان من أمر ابن الزبير في ذلك وخروجهما الى مكة ، فاجتمعت الشيعة بالكوفة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فذكروا معاوية فحمد الله سليمان وأثنى عليه . ثم قال : « إن معاوية قد هلك وإن حسيناً أعلن على القوم خلافه وخرج الى مكة وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فان كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا اليه ، وإن خفتم الفشل والوهن فلا تغروا الرجل في نفسه » قالوا : « لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه » كتبوا اليه في أواخر شعبان ، وشذان ترى في الكتب المرسلة اليه كتابا بامضاء الواحد والأثنين ، وإنما هي رقاع (مضابط) موقعة باسماء آحاد وعشرات من وجهاء ورؤساء وشيوخ يعترفون بامامته ويتمنون قدومه اليهم . بألفاظ جذابه ولكنها كذابة ، ومواعيد جلابة لكنها خلابة ، المشهور أحصوا عليه في أيام قلائل اثنى عشر الف كتابا ، فاختلفت عند ذلك الاشارات عليه من أصحابه وخاصته : فمنهم المشير عليه باقامة مكة وارسال عماله ودعاته الى الجهات ، ومنهم المشير عليه بالذهاب الى اليمن منبت الاخلاص والايمان ومهب الحكمة والعروبة . وقد

سبق منهم لابيه ولاؤهم الصادق منذ ولاه النبي (ص) عليهم ـ لولا أن المتوجه الى اليمن ينقطع خط رجعته كما تنقطع مواصلاته مع الآفاق ـ ومنهم المشير عليه بالمسير الى العراق عاصمة أبيه ، وموطن أصحابه ومواليه، ومعدن الفروسية والفراسة ، ومنبت الأموال والرجال ـ وهما قوام كل حكومة ـ

الحسين يختار الكوفة

كانت خطة الحسين (ع) الى حين تواتر الرسل والكتب اليه خطة دفاع عن نفسه والالتجاء من آثام بيعة يزيد الى ملجأ حصين .

غير أن صريخ البلاد والعباد وهتاف الانصار والامصار به وله واليه حولا فكره من دفاع محدود الى دفاع وسيع النطاق ، رجاء نصرة الدين ودفع عادية الظلمة عن المسلمين ، فاستخار الله وندب الى العراق ـ بعد ما كتب اليهم ـ ليث بنى عقيل مسلماً بن عمه حتى إذا وجدهم على ما كتبوا اليه توجه اليهم بنفسه وأهله . وكان مسلم كبقية آل علي رجل الصدق والصفاء ومثال الشجاعة والايمان ، فقام لأمر صهره وسيده الحسين (ع) وما قدم الكوفة الا وتكونت جماهير الرؤساء لاخذ يمينه يبايعونه نائبا عن الحسين وقد كان لآل علي (ع) وفي صدورهم عتاب مع أهل الكوفة في خذلانهم الحسن بن علي (ع) واغترارهم بدراهم معاوية . إلا أن لحسن إستقبالهم لمسلم محا كل عتاب وكفر كل ذنب ، لاسيما وان الكرام سريعو الرضا والمصلح لا يحفظ غلا أو حقداً .

فكتب مسلم الى الحسين (ع) باقبال العامة وإخلاص الخاصة نادمين على ما فرطوا في جنب البيت الهاشمي الذي كان سلطانه أنفع لدينهم ودنياهم ، وحث الحسين (ع) على القدوم الى العراق ليجدد على ربوعه معالم اسلافه .

بنو امية والخطر الحسيني

اخذت قضية الحسين (ع) تحرك العزائم وتنبه المشاعر في الدوائر الأموية ، وساد القلق على حلفائهم واوليائهم وهم عالمون ان حسينا يضرب على ايدي الجائرين ولا يولي فاسقا أمر المسلمين ، فعدت رجال الحكم الاموي السنة وعيونا واقلاماً وسيوفاً ضد الحركة الحسينية ـ لا سيما في مناطق العراق والحجاز ـ واستفزوا قبل كل شيء حكومة الشام والهيئة المركزية بالتأهب للخطر الهاشمي • فكتب عمر بن سعد وعمارة بن عقبة وعبدالله بن مسلم وأضرابهم الى يزيد : « اما بعد ، فأن مسلم بن عقيل قدم الكوفة وبايعته الشيعة للحسين (ع) فان يكن لك حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك ، فان النعمان بن بشير ـ والي الكوفة ـ رجل ضعيف او يتضعف » وكأنهم ورسلهم استلفتوا أنظار حكومة الشام الى أنه إذا رسخت أقدامه بين النهرين وأهلوهما شيعة أبيه ومدائن كسرى توالية ـ منذ وليها سلمان وتزوج بشاه زنان ـ فأنوار مباديه تشع ربوع ايران فيكون له منهم أنصار المال ، وأنصار الحرب ، وأنصار الرأي والادارة، وأنصار لنشر معارف القرآن وعلوم شرع جدّه الزاهر • فاذا توفق بهم على تكوين حكومة راقية صار أولى من امية بالولاية على الأقطار حتى الحجاز والشام ، لان المهيمن على العراق يهدد الحرمين وخطوط مواصلات الشام اليهما ، وربما يجدد العراق على الشام حرب صفين حينما أرض الشام خالية من الداهيتين معاوية وابن العاص •

أما يزيد فلم يكن منه بادىء بدء سوى استشارة « سرجون » مولى أبيه معاوية في كتب القوم اليه ، فأشار عليه باستعمال عبيدالله بن زياد على

العراق ، وكانت بينه وبين يزيد برودة وأبرز سرجون ليزيد عهداً كان معاوية قد كتبه في هذا الشأن قبيل وفاته حسب ما ذكره المؤرخون[1] فوافق يزيد على ذلك وانهى الى ابن زياد عهده وكتب اليه : « اما بعد ، فانه كتب الي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني ان ابن عقيل فيها يجمع الجموع ليشق عصا المسلمين ، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتى تثقفها وتوثقه أو تقتله أو تنفيه » فأخذ ابن زياد من كتاب يزيد ورسوله قوة وبصيرة وصلاحية واسعة في المال وبث المواعيد .

رأت حكومة يزيد من الدهاء والحزم سكوتها عن ابن الزبير موقتاً حتى يحسم الزمان أمر الحسين (ع) الذي أصبح يهدد كيان أمية أي تهديد ، فاذا قضت أمية لبانتها من الحسين سهل أمر ابن الزبير عليها لان الرعب يسود على أضداد يزيد بعد الاجهاز على الحركة الحسينية ، ولان موقع ابن الزبير في النفوس ليس كموقع الحسين منها ، لاسيما وابن الزبير شحيح ــ ولا يسود الا من يجود ــ ولان ابن الزبير لم يرتبط ببلاد ذات خيرات وبركات كالعراق حتى يستفيد من ميرتها وذخيرتها لجيشه لو انتضى له جيش . فلو فرض استمراره على خلاف يزيد بعد الحسين فجند أمية يحاصره في بلاد الحجاز القاحلة بين الجبال والرمال حتى يسلم هو وجنده أو يقاتل وحده والوحيد مغلوب .

(١) كما في العقد الفريد ج٢ ص ٣٠٦ وارشاد المفيد ص ٢٠٤ .

الكوفة بنظر الحسين

شاعت مبايعة العراق للحسين (ع) بالامامة ففرح اولياؤه واهل الحرمين وتفاءلوا من ذلك بعود الحق الى اهله ، عسى ان تموت البدع وتحيا السنن. لكن خاصة الحسين ــ بعد الاطلاع على سفر مسلم الى العراق ــ كانوا بين محبذ ومخطيء ويمثل الاخير عبدالله بن عباس فجاء الى الحسين (ع) يحذره من الرواح الى العراق ويذكره بخذلانهم أخاه وعصيانهم أباه في حين أنهم لم يكونوا يحلمون بامام كأبي الحسن (ع) أشرف الناس ، واذكاهم ، وافصحهم واسخاهم ، واعلمهم ، واتقاهم يلبس الخشن ويكسوهم حلله ، ويبيت طاويا وينفق عليهم مأكله ، ويكد من سعي وسقي ، ويتصدق على الفقراء . واذا شنت عليهم الغارات فهو في مقدمة المدافعين عنهم ، يخوض بنفسه حومة الوغى حتى يهزم الجمع ويولون الدبر . فأي إمام يكون لهم كعلي وكيف كافئوه واهله في حياته وبعد وفاته ؟!

نعم ابن عباس كان حبر الأمة ووليّ الائمة رباه أمير المؤمنين (ع) وعلمه وأسر اليه من صفوة معارفه ، وكان راجح العقل والفضل والخلق ، وكان من أعز أقرانه على الحسين ، فان علياً قام في سنوات اعتزاله الخلافة بتربية غلمة في المدينة من أسرته وأحبته .

لكن الامام لم يأخذ برأي محذر اذ كان يحسب نفسه في واد والمحذر في واد . فحسين الفتوة ــ ونفس ابيه بين جنبيه ــ لا يسعه إلا أن يلبي المستغيث به ولا يطيق الصبر على محق الدين وسحق الموحدين ولو ذلق في جهاده الأمرين .

إن غاية ما كان يراه (ع) في تحذير المحذرين أن العراق لا يفي بوعده

ولا يقوم على عهده ، فهب إن ذلك كذلك فما ضر الامام أن يتم الحجة عليهم قبل ان يتموا الحجة عليه ، فان ظفر بمطلبه من إبادة الظالمين فيها ونعمت وإلا سار عنهم الى الثغور القاصية حتى يفتح الله عليه بالحق وهو خير الفاتحين ، أو يأتيه الموت فيلاقي ربه غير خاضع لأعدائه .

أما رحل الحسين (ع) وفتيته فكانوا كلما ذكروا العراق تجلت لديهم ذكرياته الحسنى ، وتذكروا حنانه نحو الغريب وطلاوة الحديث الجذاب والعواطف الرقيقة ، وذكروا عذوبة مائه وطيب هوائه علاوة على ذكر من القوه بالكوفة ممن تبودات بينه وبينهم الحقوق والنعم والعواطف والحسنات .

فكان هذه والتي سبقت خواطر مهمة أدت الى المسير نحو العراق وقبول ما استدعاه وكيله الامين (مسلم) في كتابه ، غير أن الجميع واثقون من أن الرحيل الى العراق لو كان فانما يكون بعد فريضة الحج وبعد الأضحى .

خروج الحسين من مكة

كان الحسين (ع) اوسع علماً وأقوى ديناً ممن انتقدوا عليه الخروج من مكة قبل إكمال الحج مستبدلاً حجه بعمرة مفردة ليتسنى له الخروج يوم التروية[1] ومجاوزة حدود الحرم بأقرب وقت ممكن إذ صار بين جاذب ودافع تجذبه ظاهراً أنباء حجاج العراق بأن ابن زياد تأهب للخروج من البصرة نحو الكوفة ، والحسين يعرف مبلغ دهائه وريائه وقوة إقدامه وجسارته ، وانه اذا سبق الحسين (ع) الى الكوفة قلب القلوب وقطع عليه الدروب واستعمل لخذلان مسلم كل وسيلة وحيلة ، وان مسلماً بنفسيته الحربية قد تخفى عليه الحركات السياسية فلا ينجح مع ذلك الشيطان وهو رجل المروءة والايمان . فخرج الى الكوفة مسرعاً انقاذاً لمسلم وللمسلمين .

واما دفاعه عن الحرم فعلمه بالمكايد المدبرة من خصومه لحصره أو اغتياله في مكة من حين تفرق الحاج منها . فيصبح إما مقتولا او مقاتلا وفي كلا الأمرين هتك للحرم الممنوع فيه سفك الدماء ، وقد بدت بوادر مناوأته من قدوم عمرو بن سعيد عامل يزيد قبل التروية بيوم ، وتقدمه الى الصلاة بالمسلمين ، وبثه العيون حول الحسين وحول ابن الزبير فصلى الامام وطاف وسعى وحل الاحرام ثم خرج . وبعد ما عرف عمرو بن سعيد صرخ بالناس قائلا : « اركبوا كل بعير بين السماء والارض واطلبوا حسيناً » ولم يحتشم حرمة البلد الامين ولا النبي الامين .

بادر الحسين (ع) بمسيره قبل ان يبادر العدو الى صده واحصاره واغتياله ، وألجأته الضرورة الى حركة غير منتظرة وخارجة عن الحسبان ، وأوجد بمسيره هذا ثورة فكرية أو جبت انتشار خبره بسرعة البرق . وحقاً

(١) وقصة خروجه مذكورة في إرشاد المفيد ص ١٩٨ .

أقول : ان الحسين (ع) مجتهد في نيته ومستفرغ كل ما في وسعه لنشر دعوته في كل عصر ومصر شحت وسائل النشر فيها ، فكان لخروجه في غير أو انه دوي يرن صداه في الداخل والخارج والناس يتساءلون عن نبأه العظيم وعن ان الحسين هل حج وخرج ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ والى أين ؟.

هذا والحسين (ع) يسير بموكبه الفخم وحوله أهله كهالة حول القمر كأن موكبه داعية من دعاته ، فأن الخارج يومئذ من أرض الحج والناس متوجهون الى الحج لا بد ان يستلفت الى نفسه الأنظار وان كان راكباً واحداً فكيف بركب وموكب ..! إنه لأمر مريب وغريب يستوقف الناظر ويستجوب كل عابر .

وهذه أيضاً عملية من شأنها شهرة أمر الامام وانتشار خبره الهام . وممن كان قادما الى الحج واستجلب نظره الركب والموكب الفرزدق الشاعر قال : « حججت بامي في سنة ستين فبينا انا أسوق بعيرها حين دخلت الحرم إذ لقيت الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ خارجاً من مكة مع أسيافه وأتراسه فقلت : « لمن هذا القطار ؟ » قيل : « للحسين بن علي » فأتيته وسلمت عليه وقلت له : « اعطاك الله سؤلك بابي أنت وأمي يا بن سول الله، ما أعجلك عن الحج ؟ » فقال : « لو لم أعجل لأخذت » ثم قال لي : « من أنت ؟ » قلت : « امرؤ من العرب » فلا والله ما فتشني عن أكثر من ذلك ثم قال لي : « اخبرني عن الناس خلفك » فقلت : « من الخبير سألت ، قلوب الناس معك وأسيافهم عليك والقضاء ينزل من السماء » وسألته عن أشياء من نذور ومناسك فاخبرني بها وحرك راحلته وقال : « السلام عليك » .

وكان موكب الحسين (ع) يسير في بطون الفيافي والمفاوز وقوافل القلوب تشايعه من بعد بعيد وخفيف الحاذ من عشاقه مصمم على الالتحاق بموكبه بعد أداء فريضة الحج باقرب ساعة ، لكن الامام يجد في مسراه والقمر دليل الركب ورفيقه ولما بلغ بطن عقبه لقيه شيخ من بني عكرمه فسأله . « أين تريد ؟ » فقال الامام : « الكوفة » فقال الشيخ : « أنشدك الله لما انصرفت،

فو الله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف ، وان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطأوا لك الاشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً» فقال له الامام : « ليس يخفى علي الرأي[1] ولكن الله تعالى لا يغلب على امره » ثم قال (ع) : « والله لا يدعونني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي ، فاذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل فرق الامم ».

---

(١) هنا حق الجواب عمن اعترض على حسين الشرف : ولماذا لم يصالح يزيد كصلح الحسن (ع) لمعاوية فينجو بنفسه وعياله من الهلكة ؟.

بلى جرب آل النبي الغدر بني امية عدة مرات ولم ينجحو ، اذ تصالح الحكمان في دومة الجندل ، وغدر ابن العاص مندوب معاوية بابي موسى الاشعري مندوب الامام (ع) وصالح سيدنا الحسن معاوية فغدره هذا فيوعوده وعهوده وأخيراً دس اليه السم فقتله ، ثم جردوا ابن عمه مسلما من سلاحه بالايمان والعهود وسرعان ما حثوا ونكثوا وقتلوه . أفبعد هذا كله يثق حسين العلا بوعود هؤلاء أو يظن في صلحهم السلامة ؟ ومن جرب المجرب حلت به الندامة . نعم علم الحسين (ع) انه مقتول اذا بايع ومقتول اذا لم يبايع . وفي حالة خطرة كهذه لا يسوغ شرع أو عقل اختيار قتلة خسيسة على قتلة شريفة (فقتل امرىء في جانب الله أفضل) لا سيما وفي اعلانه الخلاف ظن النصرة والنجدة ومظنة ارجاع مجده واحياء شعائر شرع جده (ص) .

ابن زياد على الكوفة

اما عبدالله بن زياد فقد ضم يزيد الكوفة اليه مع البصرة فحسب ذلك ضرباً من الرفعة لا سيما وقد أعطي سعة النفوذ والسلطة التامة العامة • فمهد أمره في البصرة وعهد بازمتها الى أخيه عثمان والى أعوانه المجربين خوفاً من الدعاية فيها لابن الزبير أو الحسين (ع) وتأهب الى الكوفة ومعه شريك الحارثي من حيث لم يعلم العامة أمرهما ، وسرعان ما قدمها بكل جسارة ودخلها متنكرا ومتلثما وعليه عمامة سوداء يوهم الناس انه الحسين بن علي (عليهما السلام)[1] وصار من يصادفونه في خطط الكوفة وطرقاتها يزعمونه الحسين السبط فيسلمون عليه بالامامة، ويحيونه بكل كرامة، ويقبلون يديه ورجليه، وهو لا يكلم أحدا فوق راحلته ، حتى بلغ قصر الامارة ، فطرق الباب على واليها المحصور النعمان بن بشير ، حتى اذا عرفه فتح الباب ودخل •

عند ذلك فشي خبره ، وأنه ابن زياد فباتت الكوفة تلك الليلة تغلي كالمرجل ، والناس بين مثبت ومثبط ، وابن زياد دخل البلدة وحده وعلى حين غرة ولم ينزل الا في مركز الحكم ، واخذ في قبضته المال والسلاح ، ورتب في ليلته على الدوائر المهمة من لم يتجاهروا بصحبة مسلم ، وأصبح مناديه يجمع الناس لخطابته في الجامع الأعظم ، فرقى المنبر بكل جسارة ــ وجسارة الخطيب تعطي لكلامه قوة وتأثيراً على الاوهام ــ فصار يعد ويوعد لاعن الله ورسوله بل عن لسان أميره يزيد ، فبلغهم سلامه ولكن الناس لم يردوا السلام عليه أولاً حتى اخذ يطمع المطيع بمواعد جسام ويهدد مخالفيه بحد الحسام ــ والسيف مصلت بيده ــ فعند ذلك رد السلام عليه نفر قليل ثم أضحى مناديه يجمع الرؤساء والعرفاء اليه لأخذ المواثيق وانجاز المواعيد وتوزيع العطايا ومعاقبة المتخلفين عقوبة صارمة ، فهرع لندائه خلق كثير وانقلبت القلوب وانحرفت الوجوه وتبدلت لهجات الأندية ونشرات الشيع •

---

(١) كما في الارشاد ص ١٨٥ .

نعم ! لا ينقضي العجب من خيبة الكوفة في نهضتها الا بعد التدبر في اسبابها وأسرارها ، إذ باغت ابن زياد الكوفيين بزي الحسين (ع) حتى استقر في دار الامارة بين حامية مستعدة ، وقد كان الواجب على أهل الكوفة بعد ما لبى الحسين دعوتهم وإرساله مسلماً وكيلا عنه أن تجتمع أحياؤها ويتحدث رؤساؤها فيخرجوا عامل يزيد وحاشيته ، ويسلموا دوائرها الى وكيل الحسين (ع) ، وان يقترحوا عليه من الاعمال المهمة ما هم أدرى به وأعرف ، ومسلم لم يقدم عليهم كوال مختار أو مفوض مطلق ليستقل في أعماله واعمالهم بالتصرف والمسؤولية، وانما بعثه الحسين (ع) كمعتمد يشرف على أمرهم ويستطلع حقيقة خبرهم . لكن الكوفيين ـ ياللاسف ـ غروا مسلما واغتروا ، ولم يغتنموا صفاء جوهم وتواني عددهم الى أن دهمهم ابن زياد وفرق جمعهم بالوعد والوعيد وسكن فورتهم بالطمع والتهديد ، حتى إذا سكت الضجيج من حول مسلم نفى الرجال العاملين لمعونة مسلم من بلده ، وزج في السجن من وجوه الشيعة ـ امثال المختار الثقفي، والمسيب بن نجبة ، وسليمان ، ورفاعة وغيرهم ـ ممن لم تؤثر عليهم التضييقات ولا اغتروا بباطل الوعد واستوظف آخرين ، ثم اختفى بعد ذلك اكثر المتهوسين في زوايا البيوت .

مقتل مسلم وهانىء

إن مسلماً ـ وهو الذي بايعه أكثر من ثلاثين الف مسلم ـ بقي وحيداً فريدا بعد القبض على الوجوه من أوليائه ، فلاذ بصديقه هانيء ـ أكبر مشايخ الكوفة سنا وشأنا وبصيرة وعشيرة ـ إذ كان معمرا فوق الثمانين وشيخ كندة أعظم ارباع الكوفة ، وكان إذا صرخ لباه ثلاثون الف سيف ، وكان هو وابوه من احبة علي (ع) وأنصاره في حروبه العراقية الثلاث .

فأنزل هانيء مسلما على الرحب والسعة والحفاظ حتى يفرج الله عنه ، وتظاهر هانيء بالتمارض مجاملة مع ابن زياد في عدم إجابته لدعوته ، لكن ابن زياد يطمع في هانيء وسابقته معه ويرى فيجذب أمثاله من المتنفذين معونة كبرى لأنفاذ مقاصده .

ويروى أن هانئاً (١) اقترح على عميد آل عقيل ومندوب الحسين (مسلم) الفتك بابن زياد غيلة وغفلة لكن مسلماً لم يجب بسوى كلمة : « إنا أهل بيت نكره الغدر » .

كلمة كبيرة المغزى بعيدة المرمى ، فان آل علي (ع) من قوة تمسكهم بالحق والصدق نبذوا الغدر والمكر حتى لدى الضرورة ، واختاروا النصر الآجل بقوة الحق على النصر العاجل بالخديعة ، شنشنة فيهم معروفة عن أسلافهم وموروثة في أخلافهم ، كأنهم مخلوقون لاقامة حكومة الحق والفضيلة في قلوب العرفاء الأصفياء ، وقد حفظ التاريخ لهم الكراسي في القلوب .

وبالجملة ، فقد دبر ابن مرجانة حيلة الفتك بهانيء فأحضره لديه بحجة مداولة الرأي معه في الشؤون الداخلية .

---

(١) كما في العقد الفريد ج٢ ص ٣٠٦ ، ومقاتل الطالبيين وتاريخ الطبري وغيرهما .

غير أن هانئاً بعد ما حضر لديه سر به ابن زياد ، وشتم عرضه ، وهشم أنفه ، وقطع رأســـــه .

وكان لهذه الحادثة دوي في الرؤوس وفي النفوس ، واستولت بذلك دهشة على الجمهور أدت الى تفرق الناس من حول مسلم ، فأمسى وحيداً حائراً بنفسه ومبيته ، واشرف في طريقه على امرأة صالحة في كندة ــ تسمى طوعة ، وهي ام ولد حازت شرف التاريخ ، إذ عرفت قيمة الفضيلة ، بينما قومها ضيعوا هذا الشرف الخالد وغرتهم المطامع ــ جالسة على باب دارها فاستسقاها ماء فجاءته به وشرب ثم وقف يطيل النظر الى مبدء الشارع تارة والى منفذه أخرى ــ كأنه يتوقف من يتلطبه ــ فتوسمت المرأة فيه غربته وسألته فقال : « نعم أنا مسلم بن عقيل ، خذلني هؤلاء » فاستعظمت طوعة ذلك ودعته الى بيتها لتخفيه حتى الصباح ، وفرشت له في بيتها وعرضت عليه العشاء فلم ياكل ، ولم يكن باسرع من أن جاء ابنها وقد كان مع الغوغاء ، فأوهمه تردد أمه الى البيت وقال لأمه : « والله ليريبنى كثرة دخولك هذا البيت » ثم ألح عليها فأخذت عليه العهود كي لا يفشى سرها وسر مندوب الحسين (ع) وأخبرته بالامر بعد الايمان ، ثم إن الغلام غدا عند الصباح الى ابن الاشعث وأفشى له سر مسلم ومبيته ، فأبلغ بذلك ابن زياد فأرسل الجموع للقبض عليه .

بلى ! إن أبطال صادقين كبني هاشم إن تأخروا في ميدان السياسة والخداع فلهم قصب السبق في ميادين العلم والدين والجود والشرف ومقارعة الكتائب .

وكان ندب بني هاشم يتلو القرآن دبر صلاته إذ سمع وقع حوافر الخيل وهمهمة الفرسان ، فأوحت اليه نفسه بدنو الأجل ، فبرز ليث بنى عقيل من عرينه مستقبلا باب الدار والعسكر ــ وعليهم محمد بن الأشعث ــ وانتهى أمر المتقابلين الى النزال ونزيل الكوفة راجل وهم فرسان ، لكن فحل بني عقيل شد عليهم شد الضرغام على الانعام وهم يولونه الأدبار ، ويستنجدون بالحاميات ، وقذائف النار ترمى عليه من السطوح .

اضطر ابن الأشعث الى وعده مسلماً بالامان إذا ألقى سلاحه فقال : « لا أمان لكم » وبعد ما كرروا عليه رأى التسليم فريضة محافظة للنفس وحقنا للدماء فسلم اليهم نفسه وسلاحه ثم استولوا عليه فعرف انه مخدوع فندم ولات حين مندم .

ولما أدخلوه على ابن زياد لم يسلم عليه بالامرة فقال له الحرس : « الا تسلم على الامير » فقال : « إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه ؟! » فقال له ابن زياد : « لعمري لتقتلن » قال : « فدعني أوصي بعض قومي » قال : « افعل » .

فنظر مسلم الى جلساء عبيدالله وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال : « يا عمر ان بيني وبينك قرابة ولي اليك حاجة وهي سر » فامتنع عمر أن يسمع منه . فقال له عبيدالله : « لم تمتنع أن تنظر في حاجة ابن عمك ؟ » فقام معه فجلس حيث ينظر اليهما ابن زياد فقال له : « إن علي بالكوفة دينا استدنته منذ قدمت الكوفة وهي سبعمائة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عني ، وإذا قتلت فاستوهب جثتي من ابن زياد فوارها ، وابعث الى الحسين (ع) من يرده ، فاني قد كتبت اليه وأعلمته أن الناس معه ، ولا أراه إلا مقبلا، ومعه تسعون إنسانا بين رجل وامرأة وطفل » .

فقال عمر لابن زياد : « أتدري أيها الأمير ما قال لي ؟ » فقال له ابن زياد : « أكتم على ابن عمك » قال . « هو أعظم من ذلك ، ، إنه ذكر كذا وكذا » فقال له ابن زياد : « إنه لا يخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن . أما ماله فهو له ولسنا نمنعك أن تصنع به ما أحببت ، وأما جثته فانا لا نبالي إذا قتلناه مما صنع بها ، وأما الحسين فان هو لم يردنا لم نرده » ثم قال لعمر أبن سعد : « اما والله اذ دللت عليه لا يقاتله أحد غيرك » .

ثم أقبل ابن زياد على مسلم يشتمه ويشتم الحسين وعليا وعقيلا ومسلم لا يكلمه ، ثم قال ابن زياد : « اصعدوا به فوق القصر واضربوا عنقه ثم أتبعوه جسده » فصعدوا به وهو يكبر ويستغفر الله ويصلي على رسوله ويقول : « اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا وكذبونا » فضربت عنقه واتبع

جســـــــده .

كان مقتل مسلم يوم الأربعاء لتسع مضين من ذي الحجة ـ يوم عرفة ـ سنة ستين من الهجرة وقد كان خروجه في الكوفة يـوم الثلاثاء ثامـن ذي الحجة ـ يوم التروية ـ وهو اليوم الذي قتل فيه هانيء ويوم خرج فيـه الحسين (ع) من مكة يقصد الكوفة ملبيا دعوتها .

أجل ! قتل مسلم وقتل به أمل كل مسلم وأسقطوا بجسمه من أعـلا القصر ـ سقوط الجسم لا سقوط الاسم ـ .

هذا ، وعيون الناس ترى هانئا في السوق وابن عقيل، وما جثة الرجلين بذلك المنظر الفظيع إلا آية انحراف الحزب السفياني عن سنن الدين ،وموعظة موقظة للغافلين ، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر ، وفي كوفة الخذلان ما أكثر العبر وأقـل المعتبـر .

حالة الحسين بعد مقتل مسلم

روى عبدالله بن سليمان والمنذر بن المشعل الأسديان قالا :

لما قضينا حجنا لم تكن لنا همة إلا اللحاق بالحسين (ع) في الطريق ، لننظر ما يكون من أمره ، فاقبلنا ترفل بنا ناقتانا مسرعين حتى لحقناه بزرود، فلما دنونا منه إذا نحن برجل من أهل الكوفة قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين ، فوقف الحسين (ع) كأنه يريده ، ثم تركه ومضى . فقال أحدنا لصاحبه : (إذهب بنا الى هذا لنسأله ، فان عنده خبر الكوفة) فمضينا حتى انتهينا اليه فقلنا : (السلام عليك) فقال: (وعليكم السلام) قلنا «من الرجل؟» قال : (أسدي) قلنا له : (ونحن أسديان ، فمن انت ؟) قال : « انا بكر بن فلان» وانتسب وانتسبنا ثم قلنا له : (اخبرنا عن الناس وراءك) قال : (نعم لم اخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ، ورأيتهما يجران من أرجلهما في السوق) فأقبلنا حتى لحقنا الحسين فسايرناه حتى نزل الثعلبية ممسيا فجئناه حين نزل ، فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا له : (رحمك الله إن عندنا خبراً إن شئت حدثناك علانية وان شئت سراً) فنظر الينا والى أصحابه ثم قال : (ما دون هؤلاء سر) فقلنا له : (رأيت الراكب الذي استقبلته عشية أمس ؟) قال : (نعم ، وقد أردت مسألته) فقلنا : قد والله استبرأنا لك خبره وكفيناك مسألته ، وهو امرؤ منا ذو رأي وصدق وعقل ، وانه حدثنا انه لم يخرج من الكوفة حتى قتل مسلم وهانيء ،ورآهما يجران في السوق بأرجلهما) فقال : (إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمة الله عليهما) يردد ذلك مرارا .فقلنا له : (ننشدك الله في نفسك وأهل بيتك الا انصرفت من مكانك هذا ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل تتخوف أن تكون عليك) .

فنظر الى بني عقيل فقال . ما ترون ؟ فقد قتل مسلم) فقالوا : (والله لا نرجع حتى نصيب ثأرنا او نذوق ما ذاق) فأقبل علينا الحسين (ع) وقال: (لا خير في العيش بعد هؤلاء) فعلمنا أنه قد عزم رأيه على المسير[1] .

سمع الحسين (ع) حوالي (زرود) نعي عميد بيته ولكنه لم يتحول عن نيته ، ولا غير وضعيته مع صحبه وأهله ، ولا أبدى من مظاهر الحزن سوى الاسترجاع ، وأخفى كل حزنه في أعماق قلبه ، لان العيون لدى الشدائد شاخصة إلى الزعيم ، فان بدا عليه لائحة حزن عم الغم احباءه ، وتوهم كل منهم ما شاء الله أن يتوهم ، وارتبك على الزعيم أمر نظمه وحكمه . غير أن حسيناً دخل خباه وطلب طفلة مسلم واجلسها في حجره يمسح على رأسها بيده يسلي بها نفسه ويسليها بذلك .

نعم ! حس الجميع وفي مقدمتهم الحسين (ع) بالانكسار النهائي بعد ما جرى على مسلم وتبدل حالة الكوفة . وكانت هي المطمع الوحيد لصحب الحسين (ع) والملجأ الحصين لرحله وأهله ، فاذا كانت آمال الحسين معقودة على الكوفة وقد انقلبت هي عليه وقتلت معتمد الحسين فما معنى التوجه اليها ؟ وأي اعتماد بقي عليها ؟ لكن ثبات الحسين على سيرته ومسراه ضرب على هذه الاوهام وصانها من التفرق .

وشبل علي (ع) يرى في توجهه الى الكوفة ـ بعد كل ذلك ـ ابلاغ الحجه ، والاعلام بأنه أجاب دعوتهم ولبى صرختهم ، وانه لم ينحرف عن نصرته وقتلهم مبعوثه مع شيعته ـ فان الامام يعامل الامة دون الاشخاص والشخصيات ، وهو يأمل مع ذلك في مسلكه التحاق الانصار ، وتلبية الامصار ، وانقلاب حالة الكوفة كرة أخرى .

ولما شاع نعي مسلم في ركب الحسين (ع) وانقلاب الكوفة ضده بعد أن كانت المطمع الوحيد لتحقيق آمال أهله وصحبه ، لا سيما بعد

(١) الارشاد ص ٢٠١ وغيره .

ما خطب فيهم الامام وحل عنهم البيعة والذمام صار كثير من ذوي الطمع وذباب المجتمع يتفرقون عنه سراً وجهارا ليلا ونهاراً ، وسلموا ولي نعمتهم حين الوثبة ، وخذلوه عند النكبة ، بعد ما كانوا يضيقون فسيح خوانه حتى على أخوانه .

لا ضير ! فان خف رحل الحسين (ع) من القش وذوي الغش فقد ملأ فراغهم ابطال صدق ممن عشقوا الحسين (ع) فالتحقوا به لا خوفا من رجاله ولا طمعا في ماله ، بل وجدوا من اختار نفسه ونفيسه فداءً للاسلام فقدوه بكل ما عز وهان .

مقابلة الحر للامام

بعد ما تمكن ابن زياد من ابطال الحركة الحسينية في داخلية الكوفة، واستأصل جذورها ، واباد بذورها بالوعد والوعيد والسجن والتبعيد والفتك والهتك والتخويف والتوظيف واستعماله السيف والرغيف ومزاج الضرب بالضرب ، واطمأن من داخلية الكوفة ، وكسب الامنية التامة عمد الى الخارج وتمسك بالوسائل الفعالة ضد الحسين (ع) حينما استخبر نزوله في ذات عرق ودخوله العراق ـ وبابه القادسية (الرحبة) ـ فأرسل اليها جيشا عليه الحصين بن نمير ـ صاحب شرطة عبدالله في الكوفة ـ ليقطع على القادمين من الحجاز طريقهم ، ويؤمن الضواحي والنواحي من الغارات والثورات ، ويحفظ خطوط المواصلات بين الكوفة والشام . فأمر ان تؤخذ الطرق بينها وبين واقصة الى البصرة فلا يدعون احدا يخرج ، وحصرها بنطاق جيشه الى جذعان (خفان) من جهة والى القطقطانية من الاخرى ، فاحتلها حصين بجيشه وحصنها . ثم ارسل الى العيون والآبار التي على طول طريق الحجاز مفرزة من العسكر ، اذ القوافل مهما حادت في مسيرها عن الطريق المعروفة فهي مضطرة الى النزول على الآبار والعيون سقيا للراحلة او ترويحا للسابلة .

وكان ممن ارسله الى حراسة البر الحر بن يزيد الرياحي ، وقد تلقى ركب الحسين (ع) بعد وصوله الى اشراف امره بالتزود من مائها فوق قدر الحاجة بكثير ولم يعرفوا سر ذلك ، حتى اذا بلغوا ذي حسم كبر رجل من اصحابه تكبيرة الاعجاب زاعما انه رأي نخيل الكوفة ، وبعد ان اجمعوا على استبعاد رأيه وتحققوا علموا انها رؤوس رماح وطليعة كفاح ، فتحيز الحسين (ع) برحله الى هضاب ذى حسم قائلا : « نحط بالرحل وراءه لنلق القوم من وجه واحد » .

واخذ الحسين الاحتياطات الحربية ليلوذ رحله بالهضاب فيدفع الرمات من فوقها تأمينا لخطة الدفاع عن النواميس بكل معانيها ، وما لبثوا حتى اسفرت الآثار عن الحر بن يزيد الرياحي ومعه الف فارس ارسلته القيادة العامة الاموية لحراسة البر ، ولكي يقطعوا على الحسين (ع) طريقه اينما صادفوه ثم لا يفارقونه الى ان يأتوا به الى اقرب مركز للحكومة حتى اذا اطمأنوا من مسالمته ومبايعته ادخلوه على ابن زياد .

اما الحر واصحابه فقبل ان يظهروا مهمتهم اظهروا بلسان الحال والمقال عطشهم المفرط ، وانهم من طول جولاتهم في البر والحر حيث لا ماء ولا كلاء ، وقد اشرفوا على العطب فأمر حسين الفتوة فتيانه وغلمانه بسقاية الاعداء وارواء خيلهم(١) .

فعرف عندئذ صحب الحسين (ع) سر استعداده بالماء ليوم سماح وكفاح ، ولما استعبد الحر بالبر ـ وبالبر يستعبد الحر ـ سأله عن غايته ، فأجاب على استحياء بانه مرسول اليه ليوفده على ابن زياد .

ولما قال له الحسين : « قم الى اصحابك فصل بهم ونحن نصلي مع اصحابنا » اجابه الحر : « بل تقدم الى الصلاة يا ابن رسول الله ونحن نصلي بصلاتك » كأنه يذكر الحاضرين ان الحسين (ع) امام حق واين امام ، وان صلاة غيره بصلاته تصح وبصلاته تقام .

ثم ان الحسين (ع) لم يسمعه ـ بعد ان رأى من كتبوا اليه كتائب عليه ـ الا الذكرى والاحتجاج ، فقال : « ياأهل الكوفة ! انكم كتبتم الي ودعوتموني الى العراق لانقاذكم من سلطة الجور والفجور ، فجئتكم ملبيا دعوتكم فان كنتم قد تغيرتم عماكنتم عليه فاتركوني ارجع من حيث اتيت » .

قال هذا واخرج لهم الكتب اعتمادا على شهامة الحر ـ وصدور الاحرار قبور الاسرار ـ ولاتمام الحجة على الحاضرين من اصحابه فأعتذر الحر بانه ليس ممن كتب اليه .

---

(١) في الارشاد ص ٢٠٣ والطبري وغيرها .

ولا ننسى ان الحر هاجت عليه في ذلك الموقف الرهيب افكار متضاربة لم تسمح له الظروف الحاضرة ان يختار منها سوى طريقة وسطى عرضها على الامام ، وهي : ان يسلك من فجاج البر سبيلا وسطا لا يؤدي الى الشام ولا يدخله الكوفة حتى يكون بذلك نجات الطرفين . فاستحسنه الحسين (ع) لانه يريد الاتقاء من شر الاشرار دون ان يبلغ احدا بسوء ، وظن الحر لنفسه في ذلك مناصا من مظلمة ايذاء العترة النبوية ، ومقنعا لامرا ءامية ، فيدفع عن عراقهم نهضة الحسين (ع) واراحهم منها بدون سفك مهج ، ولا خوض لجج . فكتب بعد نزوله (اقساس) مالك كتابا الى ابن زياد يتضمن الرأي والرواية .

الكوفة تقاد الى الحرب

خضعت الكوفة لدهاء ابن زياد بعد مقتل مسلم ، وانقادت اليه احياؤها ورؤساؤها ، وذللت صعابها تذليلا لكنه لم يزل قلق البال لعلمه بمبلغ تأثير الدعوة الحسينية في المجامع والمسامع وماله في العراق من سابقة ولاء واولياء ، وكان ابن زياد محنكا قد درس هو وابوه حالة العراق الروحية وسرعة انقلاب هوائه واهوائه ، وان لابنائه نائمة وقائمة ، كم اغترت بهما اولياء الامور والساسة ، فجائز ان يأتيها الحسين (ع) بجنود لا قبل له بها ، او يتمركز بالقادسية فتلتف حوله قبائل بادية الشام وعشائر الفرات — ما بين الكوفة والبصرة — او يحدث من اقترابه دوي ينعكس صداه في داخل الكوفة فيستفز الحسيات والنفسيات فيثورون عليه ويستخرجون من سجونه وجوه الشيعة ورؤوس القبائل ، فلا يمسي ابن زياد الا قتيلا او اسيرا .

وعلى اي يتهدم كل ما بناه ولا يعود عليه التسامح الا بالخسران وعليه اندفع ابن زياد بجميع قواه الى تأمين الخارج بعد تعزيز الامن في الداخل وتحشيده الكوفيين لمحاربة الحسين (ع) ، فبادر الى احتلال القادسية قبل ان يسبقه اليها الحسين والنقاط المهمة في الحدود على خطوط سابلة الحجاز ، وما لبث ان ورد عليه كتاب الحر الرياحي واتته البشائر تترى على ان الحسين (ع) ورد وابعد عن حدود الكوفة الى جهة الشمال الغربي مسافة قاصية هو ونفر قليل من خاصته ، بحيث لا يعود من الممكن ان يهيمن على ضواحي الكوفة فضلا عما بينه وبين البصرة ، وان جيش الحر الرياحي اصبح يراقبه في المسير وهو كاف لصده او رده .

بات ابن زياد ليلته هادىء البال ، وكتب بذلك كله الى يزيد لتأمين خواطر الهيئة المركزية ، والمبادرة بتسجيل خدماته عند سلطانه . وكأنى به قد نبه على ميلان الحر وصلاته بجيشه مع الحسين (ع) وقال ابن رسول الله جذاب النفوس بهديه ومستملك القلوب بحديثه ، فلا يبعد ان يعلن الحر في صحبته ولاءه وانضمامه اليه ، ويسري نبأ تمرده في امثاله من اركان القيادة العسكرية ، ويتسع الخرق على الراقع ، او يتمركز الحسين في الانبار فيحصر على ابن زياد الميرة والذخيرة ، ولا يسع ابن زياد الميرة والذخيرة ، ولا يسع ابن زياد ان يحاصره بسبب شكل النهر ، وموالاة عشائر البر ، وقربه من مدائن كسرى .

واينما حل سبط الرسول (ص) ناشرا دعوته الصالحة ـ سواء العراق وايران ـ فانها تصادف انتشارا ولا تعدم انصارا . فوثب ابن زياد يبث المواعيد ثائية ويوزع الاموال بين العشائر والاكابر ليؤلف منها اجنادا وقوادا .

ولاية ابن سعد وقيادته

كان التخوف من تسرب الدعوة الحسينية الى وراء الفرات وحدود العجم لا يقصر عن التخوف من قدومه الكوفة ، لان القطرين العراقي والفارسي بينهما علائق متواصلة ومصالح متبادلة . حتى لقد كان اعزام عمر بن سعد الى حرب الحسين (ع) مع ترشحه لولاية الري بعض فصول هذه الرواية المحزنة ، فا ذولاية ايران لا تكاد تستقر لابن سعد والحسين (ع) متوجه اليها بدعوة نافعة وحجة بالغة وعائلة من لحمة النبي (ص) وبين الحسين وبين الفرس مصاهرة في العائلة المالكة المنقرضة .

وكل هذه عوامل قوية لنفوذ الدعوة الحسينية في بلاد كسرى ، فلم يجد والي العراقين سبيلا الى اماتة هذه الظنون خيرا من ترشيح عمر بن سعد لولاية الري ، وقد كان ابوه سعد بن ابي وقاص من قواد جيشها الفاتح ، فلهم من شهرته كل الرعب وله تمام الرغبة فيهم ، اذ كانت ولاية جمة المنافع متنوعة المطامع ، وظاهر ان ولايتها يومئذ كانت ذات صلة قوية بايقاف الحركة الحسينية ليتسنى لواليها حرية الادارة والارادة لذلك لما رأى من ابن سعد تزلفا اليه والى يزيد ، ونقمه على نهضة الحسين (ع) يوم كتب الى يزيد بقوة امر مسلم في الكوفة ، ويوم افشى الى ابن زياد سر ابن عقيل في وصيته اليه اقنع ابن زياد عمر بأخذ التدابير اللازمة لاخضاع الحسين الشرف قبل التوجه الى مهمته الاولى في ايران .

نعم ! وجد ابن زياد عمر اصلح الناس لاخضاع الحسين (ع) سواء بغرض الاخضاع او الاقناع ، اذ كان يومئذ امس الكوفيين رحما بالحسين (ع) وعليه مسحة شرف من قريش ونسبة الى الحرمين ، فسرحه لمقابلة الامام خداعا واستطماعا . . واكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع — .

اما ابن سعد فقد استمهل ابن زياد ليلته ليفكر مستعظما اقدامه الى مقابلة الحسين (ع) لعلمه ان الحسين داعية حق ، وانه كأبيه علي (ع) أفضل من ان يخدع واعقل من ان ينخدع ولا يسع ابن سعد اذا قابله ان يقاتله ، بل يقضي عليه واجبه الديني والرحمى ان ينضم اليه ويقاتل خصومه بين يديه . غير ان له في ملك الرى قرة عين ، وبهجة نفس،وراحة عائلة ، وتأمين مستقبل مديد فبات قلقا ارقا بين جاذب ودافع ، يجيل فكرته بين المضار والمنافع ، ويردد ابياته المعروفة :

فوالله ما ادري واني لحائر ... افكر في أمري على خطرين
أأترك ملك الري والري منيتي ... أم ارجع مأثوما بقتل حسين
حسين ابن عمي والحوادث جمة ... لعمري ولي في الري قرة عين
وان إله العرش يغفر زلتي ... ولو كنت فيها اظلم الثقلين
الا انما الدنيا بخير معجل ... وما عاقل باع الوجود بدين
يقولون ان الله خالق جنة ... ونار وتعذيب وغل يدين
فان صدقوا فيما يقولون انني ... أتوب الى الرحمن من سنتين
وان كذبوا فزنا بدنيا عظيمة ... وملك عقيم دائم الحجلين

وكأن خاطره الاخير حدثه بانه : ان اظهر على الحسين (ع) فبها ، والا فحسين الفتوة اكرم من ان يعاقبه او ينتقم منه .

وبالجملة ، فلم يشعر بنفسه الا قائدا جيشا كثيفا الى حرب الحسين (ع) في نينوى ، إذ بها يلتقى الخط العراقي الايراني بالخط العراقي الحجازي وهي المرحلة المشرفة على نقطة الانبار ، فبلغه نزول الحسين (ع) بكربلاء قبله بيوم ولد مع قائد المفرزة الحر الرياحي .

منزل الحسين بكربلا

ان عوامل اليأس التي تبعث نعي مسلم وسوء صنيع الكوفة به لم تؤثر في عزيمة الحسين (ع) ، ولا ما بلغه من فاحش فعلهم برسوليه عبدالله ابن يقطر وقيس بن مصهر الصيداوي ، ولا ما رآه في ملتقاه بجيش الحر ، لان داعي الحق لا يقنط من روح الله . ولكنما جيش الكوفة هو الذي صده عنها وعن كل آماله فيها فسلك ركبه وموكبه سبيلا وسطا لا يدرون الغاية ولا يعرفون النهاية . الحر يساير الامام كي يخرجه عن حدود اميره حتى يعود اليه ببشارة تؤمن باله وتطمن خياله .

ويخيل للناظر في الحركة الحسينية ان في خلد الامام ان يعبر الفرات الى الانبار والمدائن عسى ان يجد لدعوته انصارا وشيعة وبيئة وسيعة ، فبيناهم والحر في تيامن وتياسر اذ لحقهم راكب متنكب قوسه فسلم على الحر واصحابه ودفع اليه كتاب ابن زياد ، فقرأه الحر على الحسين (ع) واذا فيه : (اما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي هذا ، ولا تتركه الا بالعراء في غير خضر وعلى غير ماء) .

فعرضوا عليه النزول فسأل الحسين (ع) عن اسم الارض فقيل : (كربلا) فقالا : (نعوذ بالله من الكرب والبلاء ، هل لها اسم غير هذا ؟) فقيل له : (العقر) فقال : (نعوذ بالله من العقر ، ما شاءالله كائن) ثم قال للحر : (دعنا ننزل في هذه القرية ـ يعني نينوى ـ او هزه ـ يعني الغاضرية ـ ، او هذه ـ يعني الشفثية ـ) فقال الحر : (هذا رجل قد بعث الي عينا علي) فقال زهير بن القين : (اني والله لا ارى ان يكون بعد الذى ترون الا اشد مما ترون ، وان قتال هؤلاء القوم الساعة اهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمري ليأتينا من بعدهم مالا قبل لنا به) فقال الحسين (ع) : (ما كنت لابدأهم بالقتال (ثم نزل وذلك يوم الخميس ثاني محرم .

جغرافية كربلا القديمة

ان لهذا البحث صلة قوية بوضوح مقتل الحسين (ع) وحوادثه التاريخية . واستيفاء هذا البحث يكلف صاحبه ، اذ لا يجده المنافع الوافية بالتفاصيل الجغرافية عن كربلاء القديمة في ايام قتل الحسين (ع) . واني اجتزيء في اداء هذا الواجب بالممكن ، فحسب ما اظنه .

ان كربلاء اسم قديم مأثور في حديث الحسين وابيه وجده ـ عليهم السلام ـ ومفسر بالكرب والبلاء ، وان كربلاء منحوتة من كلمة (كور بابل) العربية بمعنى مجموعة قرى بابلية منها نينوى القريبة من اراضي سدة الهندية ، ثم الغاضرية ـ وتسمى اليوم اراضى الحسينية ـ ، ثم كربلة ـ بتفخيم اللام بعدها هاء ـ وتقرب اليوم من مدينة كربلاء جنوبا وشرقا ثم كربلاء او عقر بابل وهي قريبه من الشمال الغربي من الغاضريات وباطلالها آثار باقية ، ثم النواويس[1] وكانت مقبرة عامة قبل الفتح الاسلامي ، ثم الحير ويسمى (الحائر) وهو واليوم موضع قبر الحسين (ع) الى حدود رواق روضته المشرفة او حدود الصحن . وكان لهذا الحائر وهدة فسيحة محدودة بسلسلة تلال ممدودة[2] وربوات تبدأ من الشمال الشرقي

---

(١) « النواويس » جمع ناووس ، وهو ظرف من خزف أو من خشب . كان البابليون يضعون موتاهم فيها ثم يدفنوها ، والنواويس مقبرة في كور بابل.
وقد جاء في خطبة الحسين (ع) المروية في الارشاد : « وكأني باوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء ... الخ » .

(٢) ويستنبط شكل الحائر على هذه الوضعية مما ثبت في تاريخ المتوكل العباسي عندما اجرى الماء على قبر الحسين لمحو مزاره وآثاره ، فحار واستدار حول القبر والماء بطبعه يجري على الارض المنخفظة . وجوانب الحائر كانت ولا تزال نواشر لا يعلوها الماء غير الجانب الشرقي مما يلي نهر الفرات يومئذ ، حيث كان الفيضان يشكل فيه من المشرعة احواراً وآجاماً ، ثم يعود طفا ايام الفيضان.

متصلة بموضع باب السدرة في الشمال وهكذا إلى موضع الباب الزينبي من جهة الغرب ، ثم تنزل الى موضع الباب القبلي في جهة الجنوب ، وكانت هذه التلال المتقاربة تشكل للناظرين نصف دائرة مدخلها الجبهة الشرقية حيث يتوجه منها الزائر الى مثوى سيدنا العباس بن علي ـ عليهما السلام ـ ويجد المنقبون في اعماق البيوت المحدقة بقبر الحسين (ع) آثار ارتفاعها القديم في اراضي جهات الشمال والغرب ، ولا يجدون في الجهة الشرقية سوى تربة رخوة واطئة ، الامر الذي يرشدنا الى وضعية هذه البقعة وانها كانت في عصرها القديم واطئة من جهة الشرق[1] ورابية من جهتي الشمال والغرب على شكل هلالي ، وفي هذه الدائرة الهلالية حوصر ابن الزهراء (ع) في حربه حين قتل كما سيأتي :

واما نهر الفرات فكان عموده الكبير ينحدر من اعاليه يسقي القرى الى ضواحي الكوفة ، وكذلك ينشق من عمود النهر (الشط) من شمالي المسيب نهر كفرع منه يسيل على بطاح ووهاد شمالي شرقي كربلاء حتى ينتهي الى قرب مثوى سيدنا العباس ـ رضى الله تعالى عنه ثم الى نواحي الهندية ، ثم ينحدر فيقترن بعمود الفرات في شمال غربي قرية ذي الكفل ويسمى حتى اليوم العلقمي ، وكان هذا الفرات الصغير من صدره الى مصبه يسمى العلقمي . والطف اسم عام لاراضي تنحسر عنها مياه النهر وسميت حوالي نهر العلقمي البارزة من شواطئه طفا لذلك ، وسميت حادثة الحسين (ع) فيه بواقعة الطف .

---

(١) ويؤيد هذا ما رواه جعفر بن قولويه في كامل الزيارة، وشيخه الكليني في الكافي ، والمجلسي في مزار البحار ص ١٤٥ عن الامام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « ان زائر الحسين يغتسل على نهر الفرات ويدخل من الجانب الشرقي الى القبر الخ » .

الامام مصدود محصور

حل حرم الحسين (ع) حدود كربلاء في ثاني محرم سنة ٦١ هـ ، وانزل في بقعة منها جرداء بعيدة عن الماء والكلاء ، وصار معسكره زاوية مثلث يقابله جيش الحر في الغاضريات وجيش ابن سعد في نينوى . وكان الحر يرى مهمته المراقبة على مسير الحسين (ع) فقط غير مهتم في اخضاعه ولا في اقناعه ولا في ارجاعه ، حتى وافاه عمر بن سعد مهتما في اقناعه واخضاعه ، فصار هو والحسين (ع) يتبادلان الرأى والرسل ابتغاء الوصول الى حل مرضي .

وكلف ابن سعد من بين حاشيته رجالا لمواجهة الامام فأبوا معتذرين انهم ممن كتبوا اليه يدعونه ، فعم يتساءلون ؟ فارسل ابن سعد الى ابن الرسول (ص) رسوله الحنظلي ، فجاء الى الامام وسأله على لسان اميره عن موقفه ومسيره فأجابه الحسين : « قد كتب الي اهل مصر كم يدعونني اليهم ، اما اذا كرهتم ذلك فأنا انصرف عنكم » قال حبيب بن مظاهر للرسول ــ وهو من اخواله ــ : « ويحك يا قرة اين نرجع الى القوم الظالمين ؟ انصر هذا الرجل الذي بآبائه ايدك الله بالكرامة» فقال له الحنظلي : « ارجع الى صاحبي بجواب رسالته وارى رأيي » ثم انصرف الى عمر بن سعد واخبره الخبر ، فقال عمر : « ارجو ان يعافيني الله من حربه وقتاله » ثم كتب الى ابن زياد ما جرى بينه وبين الحسين (ع) وان الامام مستعد للانصراف عن العراق وعن كل امل فيه .

قال حسان العبسي : كنت عند ابن زياد حينما جاءه هذا الكتاب وقرأه فقال :

الان اذ علقت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص[1]

ثم اجتمع الحسين (ع) بعمر بن سعد تحريامنه للسلم واحتراما للدماء فتناجيا طويلا فكتب هذا إلى ابن زياد :

(اما بعد ، فان الله قد اطفى النائرة ، وجمع الكلمة ، واصلح امر الامة ، هذا حسين قد اعطاني عهدا ان يرجع الى المكان الذي أتى منه أو يسير الى ثغر من الثغور ، فيكون رجلا من المسلمين له ما لهم وعليه ماعليهم» .

ولما تلاه ابن زياد قال : « هذا كتاب ناصح مشفق على قومه » يعني على قريش ، فقام شمر بن ذي الجوشن قائلا : « اتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك ؟ والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن اولى بالقوة ولتكونن اولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، فانها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه ، فأن عاقبت فأنت اولى بالعقوبة وان عفوت كان ذلك لك » . فلما رأى ابن زياد في شمر التجاءً الى قوته وتحزبا لحكومته واستخفافا بعدوه الحسين وعصبته قال له : « نعم ما رأيت والرأي رأيك ، اخرج بكتابي الى ابن سعد فان اطاعني فأطعه والا فانت امير الجيش واضرب عنقه » وكتب الى عمر كتابا يقول فيه : « اني لم ابعثك الى الحسين شفيعا ، ولا لتمنيه السلامة ، ولا لتعتذر عنه . فان نزل هو واصحابه على حكمي فابعث بهم الي والا فازحف عليهم واقتلهم ومثل بهم ، فانهم بذلك مستحقون . وان قتلت حسينا فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق ظلوم ، ولست ارى ان هذا يضر بعد الموت شيئا ولكن على قول قد قلته » .

---

(١) وفي الارشاد فكتب الى ابن سعد « اما بعد فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فاعرض على الحسين ان يبايع ليزيد هو وجميع اصحابه فاذا هو فعل ذلك رأينا ورأينا والسلام » فلما ورد الجواب على ابن سعد قال قد خشيت ان لا يقبل ابن زياد العاقبة وورد كتاب ابن زياد في الاثر الى ابن سعد « ان حل بين الحسين (ع) وأصحابه وبين الماء فلا يذوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي عثمان بن عفان » .

جاء شمر بكتابه الى ابن سعد ـ والرجل السوء يأتي بالخبر السوء ـ فلما قرأ ابن سعد كتاب اميره وتلقى اسوأ التعاليم من نذيره تغير وجهه وقال : « لعنك الله يا شمر ، لقد افسدت علينا امرا كنا نرجو اصلاحه » لكنما ابن سعد بعد ما حسب شمرا رقيبا عليه ومهددا له تجاهر اذ ذاك بلزوم اخضاع حسين العلا ، فتبدلت منه لهجته وفكرته وهيئته ، فانتقل بجنوده الى مقربة من الحسين (ع) وثلت جبهات الحرب فصار هو في القلب بين الحيرة والنهر لصد الحسين من عبور النهر ومن الورود منه ، فاذا وجد الحسين (ع) سبل سيره مقطوعة ومشارع وروده ممنوعة اضطر الى النزال معهم ا والنزول على حكمهم وهم واثقون من الغلبة عليه في الحيالين .

ولما رأى الامام ذلك علم انه مقتول لا محالة اذ هو نازل بالعراء في منطقة جرداء لا ماء فيها ولا كلاء ، فان انتظر قدوم الانصار من اقاصي الامصار هلكت صبيته وماشيته وتفرقت حاشيته ، ولقي من الجوع والعطش اشد مما يلقاه من عدوه ، وان خضع للقوم وبايع امية فقد باع الامة والشريعة بعد ما انعقدت فيه الامال ، وان بدأ بحربهم خالف خطته الدفاعية حين لا مأمل في الانتصار عليهم في ظاهر الحال ـ والحر آن لم يستطع ان يعيش عزيزا فاحرى به ان يموت كريما ..

الحسين مستميت ومستميت من معه

في مكارم الاخلاق تتلألأ خلة التضحية تلألأ القمر البازغ بين النجوم الزواهر ، فاذا شوهد في امرء شعور التضحية اكتفى الناس بها عن اي مكرمة فيه او اية مأثرة له. ولا عجب ، فان الصدق اذا عداصل الفضائل فان شعور التضحية هو من اجل مظاهر الصدق والمستميت يميت مع نفسه كل شبهة وشائبة من سمعة أو رياء أو مكر أو دهاء .

اذاً فشعور شريف كهذا ينجم في تربة الصدق ويسقى بماء الاخلاص لابد وان يثمر لاهل الحق بالخير الخالد ، واذا كان الموت ضربة لازب لا مهرب منه ولا محيد عنه فاشتر بهذا العمر القصير نفعا عاما وخيرا خالدا . هي هي والله صفقة رابحة وتجارة لن تبور ، فخير الموت الفداء ، وافضل الاضاحي من امات هيكله البائد لا حياء نفع خالد .

كذلك الشهداء في سبيل اصلاح الامة او تحريرها من اسر الظالمين ، وسيد هؤلاء الشهداء الحسين بن علي (ع) الذي احي — هو والذي معه — مجد هاشم ، ودين محمد (ص) ، ومعارف القرآن، وشعائر الاسلام ، واخلاق العرب في وثباتهم ضد سلطة الجور والفجور. فلم تختلف لهجته ، ولا تخلفت سيرته ، ولا وهنت عزيمته ، ولا ضعفت حركته ، ولا ضيع مصالح اعوانه لترضية عدوانه . ونفس قوية وابية مثل هذه اضحت كالمغناطيس جذابة اليها امثالها ومن على شاكلتها في الاخلاص والتضحية — وشبه الشيء مجذوب اليه — فالتف حول الحسين الحق من صحبه وآله من نسجوا على منواله بتضحية النفس والنفيس في سبيل الدين وصالح المؤمنين، حتى انه يوم احس بالصد والحصار بكربلاء وأنه مقتول

لا محالة عز عليه ان يقتل بسببه غيره[1] فأذن لاهله وصحبه بالتفرق عنه، حيث ان القوم لا يريدون غيره يدرأ عنهم الموت ، ويحل بيعته عن ذممهم ، فخطب فيهم قائلا : « أثني على الله احسن الثناء ، وأحمده على السراء والضراء ، اللهم اني احمدك على ان اكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا اسماعا وابصارا وافئدة ، فاجعلنا من الشاكرين اما بعد : فاني لا اعلم اصحابا اوفى ولا خيرا من اصحابي ، ولا اهل بيت أبر ولا اوصل من اهل بيتي ، فجزاكم الله عني خيراً ، الا واني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعا في حل من بيعتي ، ليس عليكم حرج مني ولا ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً » الخ .

فقال له اخوانه وابناؤه وبنو اخيه وابناء عبدالله بن جعفر : « لم تفعل ذلك لنبقى بعدك ، لا ارانا الله ذلك ابداً » فقال الحسين (ع) : « يا بني عقيل حسبكم من القتل ما صنع بمسلم ، فاذهبوا انتم فقد اذنت لكم» قالوا : «سبحان الله! فما نقول للناس ويقولون لنا؟ انا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عاومتنا ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف ، ولا ندري ما صنعوا؟ ولا والله لا نفعل، ولكن نفديك بانفسنا واموالنا واهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك» .

وقام اليه مسلم بن عوسجة فقال : « انحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر الى الله في اداء حقك ؟ حتى اطعن في صدورهم برمي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدى ، ولو لم يكن معي سلاح اقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة ، والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسوله فيك ، اما والله لو قد علمت انى اقتل ثم احي ثم احرق ثم احيى ثم اذرى

---

(١) في العقد الفريد ج٢ قال «لما نزل ابن سعد بالحسين وايقن انهم قاتلوه قام في اصحابه فحمد الله واثنى عليه ثم قال قد نزل بى ما ترون من الامر وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وادبر معروفها واشمأزت فلم يبق منها الا صبابة كصبابة الاناء الاخنس عيش كالمرعى الوبيل الا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا ينهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله فاني لا ارى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا ذلا وندما » . الخ

يفعل ذلك بي سبعين ممرة ما فارقتك حتى القى حمامي دونك، وكيف لا افعل ذلك وانما هي قتلة واحدة ، هي الكرامة التي لا تفاد لها ابدا » .

وقام زهير بن القين فقال : « والله لوددت اني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى اقتل هكذا الف مرة وان الله عز وجل يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن نفس هؤلاء الفتيان من اهل بيتك » .

وتكلم جماعة من اصحابه بكلام يشبه بعضه بعضا في وجه واحد ، فجزاهم الحسين خيرا .

وروي ان رجلا جاء حتى دخل عسكر الحسين (ع) فجاء الى رجل من اصحابه فقال له : « ان خبر ابنك فلان وافى ان الديلم اسروه فتنصرف معي حتى تسعى في فدائه » فقال : « حتى اصنع ماذا ؟ عندالله احتسبه ونفسي » فقال له الحسين : « انصرف وانت في حل من بيعتي ، انا اعطيك فداء ابنك » فقال : « هيهات ان افارقك ثم اسأل الركبان عن خبرك ، لا يكن والله هذا ابدا ولا افارقك »[1] .

(١) انظر الارشاد ومقاتل الطالبيين وغيرهما .

رسل السلام ونذير الحرب

قدم الى كربلا شمر الخارجي شر مقدم ـ اذ كان نذير الحرب وحاملا من ابن زياد الى ابن سعد اسوأ التعاليم القاسية ـ وحسبه ابن سعد رقيبا عليه ومهددا له ، فأقلبت فكرته اذ ذاك رأسا على عقب لكي يدرأ عن نفسه تهمة الموالاة للحسين (ع) طمعا بامرة الري . فنقل معسكره الى مقربة من الحسين على ضفاف العلقمي ، وأوصد عليه باب الورد منه بمصراعيه ، وعهد بحراسة المشرعة الى عمر بن الحجاج ـ كما فعله معاوية بجيش امير المؤمنين (ع) في صفين ـ واخذ يتظاهر على الحسين (ع) تقربا الى ابن زياد ، ويتشبه بغلاة الخوارج ارضاءا لمن معه منهم ، ولم يقنع بكل ما وقع حتى زحف بخاصته على الحسين (ع) وتناول من دريد سهما ووضعه في كبد قوسه ورمى به الى معسكر الحسين (ع) قائلا : (اشهدوا لي عند الامير انني اول من رمي الحسين) ورأى المتزلفون هذه اسهل وسيلة الى نيل القربى من اولياء السلطة فتكاثرت السهام على معسكر الحسين ، فقال الحسين الجد لاصحابه : « قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم » يعني ان الخصومة بدؤونا بالنضال والنزال بدل النزول على حكم الكتاب والسنة ولا يسعنا في هذه الحال سوى استمهالهم الى حين ، حين تهدأ فورتهم وان ابوا امهالنا فلابد من الدفاع عن مقدساتنا والذب عن النواميس والحرمات ، اسوة بالكرام عند اليأس من السلام .

حول معسكر الحسين

بعدما ايقن الحسين (ع) ان اعداءه لا يتناهون عن منكر في سبيل النكال والنكاية به لدفاع الطوارىء عن اهله ورحلة وانتظار قتله ، لكنما وجد معسكره في اجرد البقاع عن مزايا الدفاع ، وكان مع العدو رجالة سوء من اسقاط الكوفة تبعوا شمرا الضبابي لطمعهم في الجوائز المشاعة وجشعهم على بقايا موائد الرؤساء وشوقا الى غنيمة بادرة ، ولا سلاح لدى هؤلاء سوى الحجارة والجسارة ، فكان يخشى منهم على معسكر الحسين (ع) من كل الوجوه ، لا سيما وان هؤلاء الاذناب لا يلتزمون بما تلتزم به رؤساء القبائل من آداب العرب ، فخرج الحسين من معسكره يتخير موضعا مناسبا للدفاع .

وبعدما سبر غور الوهاد والانجاد اشرف على سلسلة هضاب وروابي تليق حسب مزاياهم الطبيعية ان تتخذ للحرم والخيم ، الروابي والتلال متدانية على شاكلة الهلال وهو المسمى « الحير » او « الحائر » لكن هذا الحصن انما يفيد من استغنى عن الخروج لطلب ماء او ذخيرة او عتاد واما من لا يجد القدر الكافي منها كالحسين (ع) فان تحصن في مثل الموضوع فكأنه يبغي الانتحار او القاء اهله في التهلكة ، لان عدوه يتمكن من حصاره من فرجة الجهة الشرقية بكمية قليلة واهلاك المحصور جوعا وعطشا في زمن قصير المدى .

لكنما الحسين (ع) رأى بجنب هذه وجنوبها رابية مستطيلة اصلح من اختها للتحصن ، لان المحتمى بفنائها يكتنفه من الشمال والغرب ربوات تقي من عاديات العدو برماة قليلين من صحب الحسين (ع)

اذا اختبأوا في الروابي وتبقى من سمتى الشرق والجنوب جوانب واسعة تحميها اصحاب الحسين ورجاله ، ومنها يخرجون الى لقاء العدو أو تلقى الركبان ، فنقل الى هذا الموضوع حرمه ومعسكره ويعرف الآن «بخيمكاه» أي المخيم فصارت محوطة الحير فاصلة بينهم وبين معسكر الاعداء ، وامر اصحابه ان يقربوا البيوت بعضها من بعض ، وان يضرموا النار في قصب وحطب كانا من وراء الخيم في خندق حفروه من شدة الاحتياط، واوجد في مخيمه مزايا الدفاع الممكنة ، وهو ينتظر الفرج كلما ضاق المخرج .

عطاشى الحرب في الشريعة

لا يبرح البشر من احترام بعض الآداب في المحاربات مهما كان المحاربون وحوشا وكفرة ـ كاجتنابهم قتل النساء والابرياء ومنع الماء والطعام عنهما ـ واصبحت حكومات اليوم تراعي هذه الاصول بعين الاحترام وتعد ارتكاب هذه المظالم من اقبح الجرائم ، وقد نهى شرع الاسلام كبقية الشرائع حصار الابرياء والتعرض بالنساء ومنع الماء والطعام عنهما او عن المرضى والاسرى والاطفال ، لانهم برآء مما قامت به رجالهم المحاربون ، وقد منعت الشريعة العاطفة ذبح الحيوان عطشانا .

اما الحزب السفياني فقد ارتكب كل هذه المظالم والجرائم حنقا على حسين الفضيلة وآله .

ولا ننسى ما حدث يوم الدار يوم ثار المهاجرون والانصار فحاصروا الخليفة عثمان بن عفان وطالبوه ان يسلم اليهم ابن عمه (مروان) فاستغاث بعلي (ع) وشكا اليه العطش وغير العطش ـ وعلي يومئذ قد اغلق بابه ولازم حياده ـ فارسل اليه مع ذلك ولديه الحسن والحسين (ع) ومولاه قنبراً يحملون الماء وهو محصور ، ويحامون عنه وعن بيته الجمهور ، وتحملوا في سبيله الجروح والحرائج . غير ان محمد بن ابي نسور هو ومن معه من وراء البيت وكان منهم ما كان .

أما معاوية الدهاء فقد شيع الامر في أهل الشام بالعكس مما كان بغرض بعثهم الى حرب امير المؤمنين ، فنشر بينهم ان عثمانا قتل عطشانا وان عليا منع الماء عنه ، لذلك سبق عليا في صفين الى استملاك المشرعة ومنع اهل العراق من وردها ، اما علي (ع) فأرسل من ابطال العراق

من فتحوها ثم تركها مباحة للجانبين ، فأبت نفسه الكريمة ان يقابلهم بالسوء قائلا : « كلا ! لست امنع عنهم ماء احله الله عليهم » فجدد ابن زياد هذه البدعة وامر بمنع الماء عن الحسين ومن معه ، وروج اكذوبته فكتب الى ابن سعد : « حل بين الحسين واصحابه وبين الماء ، فلا يذوقوا منه قطرة كما فعل بالتقى الزكي عثمان » الخ مع ان الحسين (ع) هو الذي حمل الماء الى عثمان يوم الدار وعانى في سبيله المشاق ، وحاشا حسين الفضيلة وعلي الفتوة ان يرتكبا منع الماء على ذى نفس ، ولو فرض الامر كذلك فعلى م تؤخذ عشرات النساء ولفيف من الصبية والاطفال والمرضى بذلك فيحرمون من الماء المباح ؟ كلا ! فالاسلامية بريئة والانسانية ناقمة من هذه المظلمة الفاحشة .

ترك ابن زياد ساقى الكوثر ممنوعا من الماء المباح ثلاثة ايام ــ هو وصحبه وآله وعشرات من نسوته وصبيته ــ يعانون هم وخيلهم العطش في شهر آب اللهاب بغراء لا ماء فيه ولا كلأ ، والخيل تصهل طالبة الماء ، والنسوة تعج لحاجتها الى الماء ، والصبية تضج وتنتظر الماء ، والرضيع يصرخ اذ جفت مراضعه ، والماء يلمح جاريا باعينهم والمانعون ينتحلون الاسلام . وكل هاتيك المظالم القاسية من اجل ان الحسين (ع) لم يضع يده في ايدى الظالمين على محو كتاب نبيه (ص) ، وقد كان لسان الحال من حسين العلا : « ان في وسعكم ــ ايها الاعداء ــ ان تضيقوا علي الفضاء الوسيع ، وليس في وسعكم ان تضيقوا حدود مبدئي العالي ومقصدى العام ، وكذا في وسعكم ان تقضوا على حياتي وعلى صحبي وعلى صبيتي ولكن ليس في وسعكم قط ان تقضوا على قضيتي ولا على دعوتي ولا على فكرتي ما دمت حيا وما دام المسلمون احياء » .

اهتمام الامام بالموعظة والنصيحة

سيرة الحسين (ع) سلسلة أدلة على حسن ظنه بالنـــاس ، وان نفسه كانت مفعمة بآمال الخير فيهم لولا استقباله المزعجات فى نواحـي الكوفة وشواهد التحول في حالة البدو والحضر لادنى طمع ، حتى افشى من صميم الحقيقة سرها في كلمته الخالدة : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على السنتهم ، يحوطونه مادرت به معايشهم ، فاذا محصوا بالبلاء قل الديانون » لكنما المعهود من رسل الاصلاح وائمـة الهداية اقامـــة الحجج على الهمج والسذج « ليهلك من هلك عن بينـة ويحيـا من حـي عـن بينة » ولئلا تبقى لعصاة عصاة فلم يزل حسين الهداية يبـــذل قصارى الجهد في تنوير افكارهم بالاحتجاجات واقامة المظاهـــرات ، ويستفرغ وسعه في انذارهم واخطارهم بالرسـل والخطب ، في حـين ان جمهور خصومه كانوا من سفلة البشر وعبدة الطاغوت ــ اولئك الذين لا يقيمون للحق وزنا ولا يرون لغير المال والقوة شأنا ــ وعليه قام حسـين الايمان بمظاهرة باهرة بعد اليأس من سماح القوم له بالرجوع ، فلبـس عمامة رسول الله (ص) ورداءه وتقلد بسيف جده النبي وركب ناقتـه او فرسـه المعروفة وخرج الى العدو بهيئة جده النبي (ص) وزيـه ، وقد كان هو في ملامحه شبيه جده وكانت هذه الهيئة وحدها كافية لاعلان حقـه في خلافة جده دون طاغية الشام لو كانوا يعقلون ، فعرف شياطين القـوم ان هذه المظاهرة تعود على الحسين (ع) بفائدة ، لاسيما لو وجد مجالا للكلام وذكر السامعين بآيات من وحي جده ، فولولوا بلغط وضجيـــج ليضيعوا على السامعين كلام الله من فم ولي اله بهيئة نبي الله وهو ابن بنت رسول الله (ص) .

غير ان حسين المجد لم يضيع فرصته فاستنصتهم فأبوا انينصتوا له لجاجا وعنادا، فنادى فيهم، « ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى اعظكم

بواحدة وحتى اعذر اليكم ، فان اعطيتموني النصف كنتم بذلك سعداء والا فاجمعوا رأيكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون ، ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

فلما ساد الصمت وهدأ الضجيج خطبهم ، فحمد الله واثنى عليه ونعت النبي فصلى عليه ، فلم يسمع أبلغ منطقاً منه ثم قال :

« أما بعد ، فانسبوني من أنا ؟ ثم راجعوا انفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ الست ابن بنت نبيكم ؟ وابن وصيه وابن عمه ، وأول المؤمنين المصدق لرسول الله (ص) وبما جاء من عند ربه ؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمي ؟ أو ليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي ؟ او لم يبلغكم ما قال رسول الله (ص) لي ولاخي : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » فان صدقتموني فيما أقول وهو الحق والله ما تعمدت الكذب منذ علمت أن الله يمقت أهله ، وان كذبتموني فان فيكم من ان سألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبدالله الانصاري، وابا سعيد الخدري ، وسهل الساعدي ، وزيد بن أرقم ، وأنس بن مالك يخبروكم انهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله (ص) أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي ؟ (الى ان قال) فان كنتم في شك من ذلك او تشكون في اني ابن بنت نبيكم فوالله لا يوجد بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري ، ويحكم اتطلبوني بقتيل منكم قتلته او مال لكم استهلكته ؟ » ثم نادى : « يا شبث بن الربعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس ابن الاشعث ويا يزيد بن الحارث ويا عمرو بن الحجاج الم تكتبوا الي ان : « قد اينعت الثمار واخضرت الجناب وانما تقدم على جند لك مجند .. » الخ .

لقد أسمعهم شبل علي (ع) خطابا قويم اللهجة قوي الحجة ـ لو كان ثمة منصف ـ لكنما القوم لم يقابلوه الا بكلمة جامدة : « انا لاندري ما تقول ! انزل على حكم بني عمك والا فلسنا تاركيك » كلمة مرة طليت بالقحة وتبطنت بالعجرفة والانحراف نحو الزور والغرور ، فأجابهم حسين

العلا : « لا والله لا أعطيكم بيدي اعطاء الذليل ، ولا اقر لكم أقـــرار العبيد ، يأبى الله ذلك لنا ورسوله (ص) وحجـور طابت وطهرت ، فلا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام » لكنما المظاهرة باحتجاجه لم تذهب سدى وعبثا فما مد الظلام رواقه حتى انجذب الى الحسين (ع) عديد من فرسان ابن سعد من ذوي المروءة والفتوة ثائبين عند المخيم الحسيني .

الحسين ينعى نفسه لاخته

لزينب[1] ــ أخت الحسين ــ شأن مهم ودور كبير النطاق في قضية الحسين (ع) وفي نساء العرب نوادر أمثالها ممن قمن في مساعدة الرجال وشاركنهم في تاريخهم المجيد ، وقد صحبت زينب أخاها في سفره الخطـير صحبة من تقصد أن تشاطره في خدمة الدين وترويج أمره ، فكانت تدير بيمناها ضيافة الرجال وباليسرى حوائج الاطفال ، وذاك بنشاط لايوصف.

والمرأة قد تقوم بأعمال يعجز عنها الرجل ولكن ما دام منها القلب في

---

(١) لامير المؤمنين (ع) بنتان بهذا الاسم وبكنية أم كلثوم ، والكبرى هـي سيدة الطف . وكان ابن عباس ينوه عنها بعقيلة بنى هاشم . ولدتها الزهـراء بعد شقيقها الحسين بسنتين ، وتزوجها عبدالله بن عمها جعفر الطيار بعد وفاة أختها في خلافة عثمان أو معاوية ، وكانت قطب دائرة العيـال في المخيـم الحسـيني .

وقد أفرغ لسان الملك ترجمتها في مجلد خاص بها من موسوعته « ناسـخ التواريخ » .

وجاء في الخيرات الحسان وغيره : ان مجاعة أصابت المدينة فرحل عنهـا بأهله عبدالله بن جعفر الى الشام في ضيعة له هناك ، وقد حمت زوجته زينب من وعثاء السفر او ذكريات أحزان وأشجان من عهد سبي يزيد لآل الرسـول (ص) ثم توفيت على اثرها في نصف رجب سنة ٦٥ هـ ودفنت هناك حيـث المزار المشـهور .

وقال جماعة انهذا لزينب الصغرى ــ كما هو مرسوم على صخرة القبر ــ وان الكبرى توفيت بمصر ودفنت عند قناطر السباع حيث المـزار المشـهور بالقاهـرة » .

ارتياح ونشاط ، اما لو تصدع قلبها او جرحت منها العواطف فتراها زجاجه أو آرق وكسرها لا يجبر ، ولذلك اوصى بهن النبي (ص) اذقال : « ارفق بالقوارير » فجعلهن كزجاج القوارير تحتاج الى لطف المداراة .

فكانت ابنة علي (ع) قائمة بمهمات رحل الحسين وأهله غير مبالية بما هنالك من ضائقة عدو او حصار او عطش ، اذ كانت تنظر في وجه الحسين (ع) تراه هشا بشا فتزداد به أملا ـ وكلما ازداد الانسان املا ازداد نشاطا وعملا ، وان في بشاشة وجه الرئيس اثرا كبيرا في قوة آمال الاتباع ونشاط أعصابهم ـ غير أن زينب باغتت أخاها الحسين (ع) في خبائه ليلة مقتله فوجدته يصقل سيفا له ويقول :

يا دهر أف لك من خليل ... كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب او طالب قتيل ... والامر في ذاك الى الجليل

والمعنى : يا دهر كم لك من صاحب قتيل في ممر الاشراق والاصيل ، فأف لك من خليل .

ذعرت زينب عند تمثل أخيها بهذه الابيات ، وعرفت ان أخاها قد يئس من الحياة ومن الصلح مع الاعداء ، وانه قتيل لا محالة واذا قتل فمن يكون لها ؟ والعيال والصبية في عراء وغربة ، وألد الاعداء محيط بهم ومتربص لهم الدوائر . لهذه ولتلك صرخت أخت الحسين (ع) نادبة أخاها ، وتمثل لديها ما يجري عليها وعلى أهله ورحله بعد قتله وقالت : « اليوم مات جدي وأبي وأمي وأخي » . ثم خرجت مغشية عليها اذ غابت عن نفسها ولم تعد تملك اختيارها ، فأخذ أخوها الحسين (ع) رأسها في حجره وسقط على وجهها من مدامعه حتى أفاقت وسعد بصرها بنظرة من شقيقها الحسين ، واخذ يسليها ـ وبعض التسلية تورية ـ فقال : « يا اختاه ان أهل الارض يموتون ، واهل السماء لا يبقون ، فلا يبقى الا وجهه ، وقد مات جدي وأبي وامي وأخي وهم خير مني ، فلا يذهبن بحلمك الشيطان » ولم يزل بها حتى اسكن بروحه روعها ونشف بطيب حديثه دمعها .

ولكن في المقام سر مكتوم : فان زينبا ـ تلك التي لم تستطع أن

تسمع اشارة من نعي أخيها وهو حي ـ كيف تجلدت في مذبح أخيهـــا وأهلها بمشهد منها ، ورأت رأسه ورؤوسهم مرفوعة على القنا وتلعب بهـا الصبيان ، وينكت ابن زياد ويزيد ثنايا أخيها بين الملأ بالقضيب ، الى غـير ذلك من مصائب لا تطيق رؤيتها الاجانب فضلا عن أمس الاقارب .

فليت شعري ! ما الذي حول ذلك القلب الرقيق الى قلب أصـــلد واصلب من الصخر الأصم ؟ نعم ! كانت شقيقة الحسين (ع) اخته بتمـام معاني الكلمة ، فلا غرو ان شاطرت سيدة الطف زينب اخاها الحسين (ع) في الكوارث وآلام الحوادث ، فقد شاطرته في شـــرف الابوين ومواريث الوالدين خلقا وخلقا ومنطقا .

وعليه فانها على رقة عواطفها وسرعة تأثرها تمكنت من تبديل حالتها ، والاستيلاء على نفسها بنفسها ، من حين ما اوحى اليها الحســـين (ع) بأسرار نهضته وآثار حركته وانه لابد أن يتحمل اعباء الشهادة وما يتبعها من مصائب ومصاعب في سبيل نصرة الملة واحياء شريعة جده وشعائر مجـــده ـ لكنه سيار يطوي السرى الى حد مصرعه في كربلا ـ ثم لابد وان تنوب هي عن اخيها في انجاز مهمته وابلاغ حجته في تحمل الخطوب والقاء الخطب ومكابدة الآلام من كربلا الى الكوفة ثم الى الشام قائمة بوظيفته ، محافظة على اسرار نهضته ، ناشرة لدعوته في كل أين وآن ، منتهزة ســـــوانح الفرص ، وهو معها اينما كانت يباريها لكنه على عوالي الرماح خطيبـــا بلسان الحال كما هي الخطيبة بلسان المقال .

السباق الى الجنة

السباق الى النفع غريزة في الاحياء لا يحيدون عنها ولا يلامون عليها ، وقد يؤول الى النزاع بين الاشخاص والانواع ولكن التسابق الى الموت لا يرى في العقلاء الا لغايات شريفة تبلغ في معتقدهم من الاهتمام مبلغا قصيا أسمى من الحياة الحاضرة ، كما اذا اعتقد الانسان في تسابقه الى الموت نيل سعادات ولذات هي ارقى وأبقى من جميع ما له في الحياة الحاضرة .

ولهذه نظائر في تواريخ الغزاة والمجاهدين ففي صحابة النبي (ص) رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وتسابقوا الى القتال بين يديه ، معتقدين أن ليس بينهم وبين جنان الخلد الفردوس الا على سوى سويعات او تميرات يأكلونها او حملات يحملونها ، وهذا من أشرف السباق ، وموته أهنأ موت ، وشعاره أقوى دليل على الفضيلة والايمان . ولم يعهد التاريخ لجماعة بدارا نحو الموت وسباقا الى الجنة والأسنة مثل ما عهدناه في صحب الحسين(ع).

وقد عجم الحسين (ع) عودهم واختبر حدودهم ، وكسب منهم الثقة البليغة ، واسفرت امتحاناته كلها عن فوزه بصحب أوفياء وأصفياء ، واخوان صدق عند اللقاء ، قل ما فاز او يفوز بأمثالهم ناهض ، فلا نجد ادنى مبالغة في وصفه لهم عندما قال : « اما بعد ! فاني لا أعلم اصحابا خيرا من اصحابي ، ولا اهل بيت أبر وأوفى من اهل بيتي » وكان الفضل الاكبر في هذا الانتقاء يعود الى حسن انتخاب الحسين (ع) وقيامه بكل وجائب الزعامة والامامة ــ وقيام الرئيس بالواجب يقود اتباعه الى اداء الواجب ، واعتصام الزعيم بمبدئه القويم يسوق من معه الى التمسك بالمبدأ والمسلك والغاية ــ فكان سرادق الحسين (ع) بما فيه من صحب وآل ونساء

وأطفال كالماء الواحد لا يفترق بعضه عن بعض ، فكان كل منهم مرآة سيده الحسين (ع) بحاله وفعاله وأقواله ، وكانوا يفتدونه بأنفسهم كما كان يتمنى القتل لنفسه قبلهم ، وأخيرا توفقوا الى ارضاء سيدهم بأن يتقدموا الى جهاد أدبي في زي دفاع حربي واحدا بعد واحد يعلنون بالمباديء العلوية ، وينشرون الدعوة الحسينية ، ارشادا للجاهلين وعظة للجاحدين وايقاظا للغافلين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل حتى لو اثرت عظاتهم المتواترة ، كفى الله المؤمنين القتال ، وان قتلوا فسبيلهم سبيل من قبلهم من الانبياء والمصلحين الى روح وريحان وجنة ورضوان ، فيستريحون من آلام الحياة الدنيا الفانية ، ويسعدون بحياة راقية باقية ، فاذا كانت هذه الدنيا غير باقية لحي ولا حي عليها بباق فالاحرى أن يكون الهيكل الفاني قربان خير خالد ومهرا لحياة الامة .

اجل ! كانت جماعة الحسين (ع) كؤس رؤوسها مفعمة بشعور التضحية حتى اذا أذن لهم بذلك لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا يتهافتون كالفراش على المصباح لتضحية الارواح ، فكلما أذن حجة الله لاحدهم وادعه وداع من لا يعود ، وهم يتطايرون من مخيمه الى خصومه تطاير السهام لانفاذ الغرض المقدس بأراجيز بليغة وحجج بالغة من شأنها ازاحة الشبهات عن البعيد والقريب وعن الشاهد والغائب . لكن المستمعين صم بكم عمي فهم لا يعقلون قد غشيت الاطماع أبصارهم وغشت المخاوف بصائرهم ، فلا يفكرون بسوى دراهم ابن زياد وعصاه ــ ومن لا يهتم الا بالسيف والرغيف فلا نصح يفيده ولا دليل يحيده ــ .

بلى انما تجدي العظات في ظل المطامع والحجة تهدي تحت بارقة السلاح ، لذلك لم يجد رسل الحسين (ع) من عداهم الجواب الا على ألسنة الاسنة والحراب وقتلوا تقتيلا « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون » أحياء بأرواحهم أحياء بتاريخهم المجيد ، ولهم لسان صدق في الآخرين وأسوة بالاولين .

مقتل على شبه النبى

لم يزل ولا يزال عرفاء الامم من عرب وعجم يعتقدون وارث السجايا والمزايا بالتناسل والتناسب ، وان الولد يرث من أبويه ووالديهما مواهبهم العقلية او سجاياهم الاخلاقية كما يرثهم أشكال الخلقة وطبائع الجسم وأمراض الاعضاء ، وقد أكد الفن والحديث ذلك وان التشابه في الخلقة لا ينفك عن التشابه الاخلاقي . فنجد العائلة بعد فقدان أكبرها تجمع توجهاتها في أشبه أفرادها بالفقد ــ توسما بقيام الشبيه مقام الفقيد في اعادة آثاره لاجماع الغرائز ــ على أن الاعمال نتائج الاخلاق ، وان الطفل الشبيه بآبائه خلقا وخلقا يغلب أن يجدد مآثرهم ومفاخرهم . وكان آل محمد (ص) في أسف مستمر على فقدان النبي ، وخسارة كل مجد في فقده حتى ولد الحسين بن علي ولد أشبه الناس بجده محمد (ص) خلقا وخلقا ومنطقا ، فتمركزت فيه كل آمالهم وأمانيهم ، وصاروا كلما اشتاقوا الى زيارة النبي (ص) شهدوا محضره وشاهدوا منظره ، وسمي شبيه النبي فترعرع الصبي وترعرع معه جمال النبي (ص) ونما فيه الكمال ، وأزهرت حوله الآمال وبلغ تصابي آل النبي (ص) فيه مبلغ الوله والعشق ، فكان اذا تلا آية أو روى رواية مثل رسول الله (ص) في كلامه ومقامه ، وأضاف على شبه النبي (ص) في الجسم شبها بجده علي (ع) في الاسم كما شابهه في الشجاعة وفي تعصبه للحق ، حتى انه يوم قال الحسين (ع) أثناء مسيره : « كأني بفارس قد خطر علينا قائلا : القوم يسيرون والمنايا تسير بهم » أتاه قائلا : « يا أبت أو لسنا على الحق ؟ » فقال له الحسين (ع) : « أي والذي اليه مرجع العباد » قال علي : « اذن لا نبالي بالموت » فكان في موكب الحسين (ع) مثل كوكب الفجر يزهو بجماله وانظار أهله دائرة حوله .

غير أن الحصار والحزن ضيقا على نفسه مجرى النفس ، فلم يجد مظنة للخلاص منهما الا في الموت ، فجاء ليستأذن أباه لكنه منكسر الطرف ، اذ يعلم مبلغ تأثر الوالد من هذا الكلام . وقد شوهد سيد الطف في أقواله وأحواله على جانب عظيم من التجلد لكن قيام هذا الفتى ضيع جانبا من تجلده فصار كغيره لا يملك من التجلد شيئا فيما يقول في ولده أو عن ولده. وأيم الله انه أذن له مثل من يريد أن يجرح عاطفة فتاة فأسرع علي نحو الاعداء ، وعين أبيه تشيعه وترسل دموعها الحارة مصحوبة بالزفرات ، والنساء على أثره تولول ، وتعول أمه بشجو فاقدة الاصطبار اذ فقدت مركز آمالها . الامام ينادي بأعلى صوته : « يابن سعد قطع الله رحمك كما قطعت رحمي ، ولم تحفظ قرابتي من رسول الله » .

اما الغلام فقد تجلى على القوم بوجه رسول الله (ص) وعمامة رسول الله وأسلحة رسول الله وعلى فرس رسول الله ونطق بمنطق رسول قائلا :

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

أي انا المثل الاعلى لرسول الله (ص) فيكم بصورتي وسيرتي وحسبي ونسبي ، فانا تذكار جدي علي ، وأنا شبيه النبي ، وان أبي الحسين سبط النبي ، وان جدي عليا أخو النبي ووصيه ، فنحن جميعا اولو قرباه وأهل بيته ــ الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ــ فنحن أولى بخلافة جدنا النبي (ص) من الاجنبي ، وبعد هذا البرهان الجلي لا يسوغ ان نسلم أزمة دين جدنا النبي (ص) انى ابن الدعي ــ والدعي هو المنسوب الى غير ابيه الشرعي ــ وقد كان عبيد الله ابن مرجانة مستلحقا بزياد ، كما أن زيادا صار مستلحقا بأبي سفيان بخلاف حكم النبي (ص) القائل : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » . فهل يسوغ في شرع الشرف ودين العدل ان يخضع من يمثل النبي (ص) لدعي وابن دعي ؟

بارز الغلام جيش الكوفة وشد عليهم شدة الليث بالاغنام ، وبعد ما كر عليهم رجع الى أبيه قائلا : « العطش قد قتلني » فيقول له أبوه : « اصبر يا حبيبي ، فانك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله بكأسه الاوفى » والغلام يكر الكرة بعد الكرة . فنظر اليه ابن مرة العبدي فقال : « علي آثام العرب ان كر ومربي لو لم اثكل أمه » فبينا هو يشد على الجموع ويرتجز اذ ضربه العبدي وصرعه فنادى : « يا أبتاه عليك مني السلام ، هذا جدي قد سقاني بكأسه الاوفى ، وهو يقرؤك السلام ويقول لك العجل العجل » ثم شهق شهقة كانت فيها نفسه فانقض اليه الحسين (ع) قائلا : « يابني ! قتل الله قوما قتلوك ، ما اجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول ؟! يا بني ! على الدنيا بعدك العفا » ثم قال لفتيانه : « احملوا اخاكم الى المخيم » اذ كان اول قتيل من جيش الحسين ، وحاذر على النساء وعقائل الرسالة أن يخرجن الى مصرعه حاسرات (فانا لله وانا اليه راجعون).

توبة الحر وشهادته

من يدرس احوال البشر من وجهتها النفسية ويسبر غورها يجد الاخيار صنفين : صنف يتطلب مصالحه الشخصية في ظل احياء عقيدته واحترامها ـ وهؤلاء اكثر الاخيار ـ ثم ارقى منه صنف يقدم احياء عقيدته حتى على حياته الشخصية . وقد كانت وضعية الحر الرياحي بادىء بدء تنزل منزلة من يحب احترام مصالحه الذاتية في ضمن احترامه لعقيدته في الحسين ابن فاطمة (ع) ، زعما منه ان الحسين لابد وان سيصالح امية القوية او يسامحونه بمغادرته بلادهم ، فيكون الحر حينئذ غير آثم بقتال الحسين ، وغير خاسر جوائز الولاية وترفيعاتهم . وعليه فقد كان يساير الحسين بالسماح والتساهل ويصاحبه بتأدب واحترام . غير ان المظاهرات القاسية التي قام بها جيش الكوفة من جهة والمظاهرات الدينية الاخلاقية

التي قام بها حسين الفضيلة من جهة اخرى أنارتا فكرته وأثارتا عاطفته ، فارتقى في استكمال نفسه الى العلو او الغلو في حب السعادة والشهادة ، فجاء الى ابن سعد قائلا : « امقاتل انت هذا الرجل ؟ » فأجابه : « نعم قتالا ايسره ان تسقط الرؤوس وتطيح الايدي » فقال الحر : « أفيما لكم فيما عرضه عليكم رضى ؟ » فأجابه : « اما لو كان الامر الي لفعلت ولكن اميرك قد ابى » فرجع الحر وهو يتمايل ويرتعد ، واخذه مثل الافكل ، اذ شعر بانه كان السبب لحصر الامام .

فقال له من يجاوره وهو يحاوره : « ان امرك لمريب ! فوالله لو سئلت عن اشجع اهل العراق لما عدوتك ، فماذا اصابك يا ابن يزيد ؟ » فأجابه الحر : « ويحك ! اني أرى نفسي بين الجنة والنار ، ووالله لا اختار على الجنة شيئا ، وان قطعت وحرقت » قال هذا وضرب بجواده الى الحسين (ع) .

وصادف قرة بن قيس فقال له : « يا قرة هل سقيت فرسك ؟ » قال قرة : قلت له : « لا » وظننت انه يريد ان ينتحي القتال ، كراهة ان يشهده ، فوالله لو اطلعني على الذي يريد لخرجت معه الى الحسين ...

أخذ يدنو الحر من الحسين رويدا رويدا ـ وكان ذلك منه خجلا لا وجلا ـ حتى وقف قريبا منه فقال : « جعلت فداك يا ابن رسول الله ، انا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وجعجعت بك في هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت انهم ينتهون بك الى ما ارى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني تائب الى الله مما صنعت ، فهل ترى لي من توبة ؟ » فأجابه الحسين : « نعم يتوب الله عليك فانزل » فقال الحر : « أنا لك فارسا خير مني لك راجلا ، أقاتلهم على فرسي ساعة ويصير النزول آخر امري » فقال له الحسين : « فاصنع يرحمك الله ما بدا لك » .

قابل الحر بعدئذ جيش ابن سعد وصاح بهم : « يا أهل الكوفة ! لأمكم الهبل ! دعوتم هذا العبد الصالح لتنصروه حتى اذا جاءكم أسلمتموه ،

وكتبتم اليه انكم قاتلوا انفسكم دونه ثم عدوتم عليه تقاتلونه ، واملكتم بنفسه واخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة ، فصار كالاسير في ايديكم لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا ، وحلأتموه ونساءه وصبيته عن ماء الفرات الجاري تشربه اليهود والنصارى والمجوس وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، فهاهم قد صرعهم العطش ، بئس ما خلفتم محمدا في ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ » فساد القوم السكوت كأن على رؤوسهم الطير ، ثم لم يجيبوه بسوى النبال . فحمل عليهم وهو يرتجز ويقول :

اني اذا الحر ومأوى الضيف أضربكم ولا أرى من حيف

وقاتلهم قتالا شديدا حتى عقروا فرسه وتكاثروا عليه ، فلم يزل يحاربهم وهو راجل حتى أثخنوه بالجراح وصرعوه فنادى : « السلام عليك يا أبا عبدالله » وقد أبنه الامام (ع) عند مصرعه بقوله : « أنت كما سمتك أمك حر في الدنيا وسعيد في الآخرة » فطوبى له وحسن مآب .

أصدق المظاهر الدينية

ليس في التعبير عن الحسين (ع) بآية الحق او رمز السلام اونحوهما مبالغة ما اذا كان ــ والحق يقال ــ مثال الحق والاسلام في كل احواله وأفعاله وأعماله ، فلم تكن المرآة المواجهة للشمس أصدق حكاية عنها من الامام (ع) عن الاسلام . ولا بدع فان الناهض حقا بحقيقة يجب أن يمثلها بكل أطواره وأدواره ، والحسين بن علي غدا في نهضته أمثولة الحق الصراح وحاكيا عنه حكاية الزجاجة عن المصباح ، فأظهر الحقيقة في كتبه وخطبه وأقواله وأحواله ، فقدم خطورة الدين على خطورة السكن والوطن ، وقدم حرمة حرم الله وحرم رسوله (ص) على حرمة نفسه وحرمه ، واجاب دعوة من لا يوثق بولائهم ودعائهم ، وخسر في سبيل أمته صفوة أحبته

ونخبة عشيرته ، وضايق نفسه حفظا لطواهر الدين ، واستفرغ وسعه وقواه في نصيحة اعداء الدين وبذل النفس والنفيس في سبيل مصلحة الدين .

كل ذلك وغيره ليذكرهم الله ويستهديهم بكتاب الله حتى حانت ساعة القيام بأصدق المظاهرات الدينية ـ وهي ساعة الصلاة والشمس في الهاجرة من ظهير اليوم العاشر من المحرم ـ ولم يكن الحسين (ع) ممن ينسى أو يتناسى الصلاة الموقوتة ـ ولو في أحرج ساعاته ـ قدوة بأبيه علي (ع) رجل الايمان ، فانه لم يؤخر صلاته المفروضة في أحرج ساعات الوغى ليلة الهرير في صفين ، فصف قدميه لوجه الله مصليا والحرب ثائرة من حوله ودائرة ، ولما لاموه عليها أجاب : « ألسنا نحارب لاقامة الصلاة ؟ »

كذلك ابنه الحسين (ع) ـ والشبل من ذاك الاسد ـ فاهتم بها عندما صاح مؤذنه أبو ثمامة الصيداوي ، وصلى بأصحابه ولكن صلاة الخوف قصرا وسهام الاعداء تترى عليه بالرغم من استمهالهم .

أيخشى الامام (ع) قتله في الصلاة وقد مضى أبوه قتيلا في محرابه؟ ام يخشى الموت صحبه وهم يتسابقون اليه تسابق الجياع الى القصاع ويحبذون الموت بوجه الله وفي سبيله مع ابن رسوله (ص) ؟

ولكن كانت صلاة الحسين (ع) من اصدق مظاهر اخلاصه لله وتمسكه بالشريعة ، وبعيدة عن كل شبهة او شائبة ، واذا كانت المظاهرات الحسينية تكشف مساويء اخلاق أعدائه ومبلغ حرمانهم من الانسانية فان مظاهرة صلاة الخوف بين اولئك المعارضين برهنت على سوء نية العدو واستهانته بشريعة الاسلام . فهي ان لم تبطل سحر العدو في اعين الناظرين فقد أبلغت حجة الحسين (ع) الى مسامع الغائبين ، حيث أن العدو كان متذرعا بحبائل الدين ضد الدعوة الحسينية ، يوهم البسطاء والحمقاء ان يزيد خليفة النبي بمبايعة من أكثر المسلمين وان حسينا خارج على امام زمانه لغايات دنيوية فيجب اعدامه او ارغامه ـ واسم الدين قد يغش العامة ولو كان يقصد محو الدين ـ ولكم تذرع المبطلون بأسلحة الحق ضد اهل الحق فخدعوا بذلك العامة ـ كما انخدع الخوارج ضد امير المؤمنين

بشبهة رفع المصاحف ومخالفته للدين واي دين ؟ أهو ذلك الدين الذي قام واستقام بخدمات علي (ع) ومعاركه ومعارفه ؟ ـ وكان شمر الخارجي واشباهه من بقايا الخوارج قائمين بحركات اسلافهم في تمويه حقائق الدين بالظواهر الخداعة مستعملين اسم الاسلام آلة الاجراء لنوياتهم في الحسين (ع) ولكن اقامة الامام (ع) صلاة الخوف في احرج المواقف والمواقيت بين الأسنة والحراب بين العدى والردى كانت أقوى آلة فعالة في ابطال سحرهم ومكرهم ، فانهم لم يمهلوا الحسين (ع) وصحبه أن يتعبدوا لله في حين ان الدين يفرض امهال المتعبدين والعبادة شعار الموحدين ، فما عذرهم عند رسول الله (ص) في موقفه بعد موقفهم هذا ؟ أفلم يروا ريحانته يصلي الى قبلة الاسلام مع صحبه المسلمين ؟ أفلا تحترم الصلاة زهي حرم الله ؟ أو لم يسمعوا كلام الله : « ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مؤمنا » وصحب الحسين (ع) ألقوا السلاح ، واظهروا السلام والاسلام ، واستمهلوا للصلاة ، واستأمنوهم لذكر الله فهل ترى مظهرا للدين والحق اصدق من هذا ؟ لكن اعداء الحسين (ع) قست قلوبهم فهي كالحجارة او اشد قسوة ، فلم تعد تؤثر فيهم مظاهر اسلامية او عواطف انسانية سوى السيف المخيف او الرغيف ، وقد كانا يومئذ في يد اعداء الهدى (وما الله بغافل عما يعمل الظالمون) .

الطفل الذبيح

اذا وصف القرآن قربان ابراهيم بالذبح العظيم نظرا لآثاره الباقية في الحج والاسلام فان المظاهرة الاخيرة التي قام بها الحسين (ع) أثرت تأثيرا عظيما من بين مجاهداته الادبية في كشف حقائق النزعة الاموية وهذه الحادثة الأليمة بالرغم من استحقاقها التوسع فانني لا استطيع فيها سوى ايجاز فالحسين (ع) بعدما خلى رحله من الماء وطال على أهله الظمأ ــ حتى جفت المراضع وشحت المدامع ــ تناول طفله الرضيع ــ واسمه علي او عبدالله ــ ليقدمه الى العدو وسيلة لرفع الحجر من الماء ، فأشرف على الاعداء بتلك البينة المعصومة من أية جانحة أو جارحة قائلا ، « يا قوم ! ان كنا في زعمكم مذنبين فما ذنب هذا الرضيع ؟ وقد ترونه يتلظى عطشا ، وهو طفل لا يعرف الغاية ولم يأت بجناية ، ويلكم اسقوه شربة ماء فقد جفت محالب أمه » فتلاوم القوم بينهم بين قائل : « لابد من اجابة الحسين (ع) فان أوامر بن زياد بمنع الماء خصت الكبار دون الصغار ــ والصغير استثنته الشرائع والعواطف من كل جريمة وانتقام ، حتى لو كان من ذراري الكفار » وقائل : «ان الحسين قد بلغ الغاية من الظمأ والضرورة، فان صبرتم عز سقايته سويعة أسلم أمره اليكم وتنازل لكم » .

فخشي ابن سعد من طول المقام والمقال أن يتمرد عليه جيشه المطيع فقال لحرملة : « اقطع نزاع القوم » وكان من الرماة القساة ، فعرف غرض ابن سعد فرمى الرضيع بسهم نحره به ، وصار الحسين (ع) يأخذ دمه بكفه وكلما امتلأت كفه دما رمى به الى السماء قائلا : « اللهم لا يكونن أهون عليك من فصيل » يعني فصيل ناقة صالح .

ولما أحس الرضيع بحرارة الحديد وألمه فتح عينيه في وجه أبيه وصار

يرفرف كالطير المذبوح ، وطارت روحه رافعة شكاية الحال الى العدل المتعال ، وترك القلوب دامية من مصيبته المفتتة للاكباد . وقد بلغ أمر الرضيع الذبيح مبلغا من قوة الدلالة على انحراف قلوب القوم عن سنن الانسانية وعلى سفالة أخلاقهم بحيث يئس الحسين عند ذلك من رشدهم وعاد عنهم خائبا ، وربما كانت مصيبته في خيبته أعظم عليه من مصيبته في الرضيع ، فاستقبلته صبية قائلة : « يا أباه لعلك سقيت أخي ماء ؟ » فاجابها : « هاك أخاك ذبيحا » ثم حفر الارض بسيفه ودفن الرضيع ودفن معه كل آماله .

وكان حسين الحق لم يدخر في وسعه أي قوة ولم يضيع أي فرصة في افشاء سرائر الحزب السفياني ، فان قتل الذراري وذبح الاطفال كانت الشرائع والعادات تمنع عنه أشد المنع ، وقد روى المحدثون ان النبي (ص) بعث سرية فقتلوا النساء والصبيان فأنكر النبي (ص) ذلك عليهم انكارا شديدا ، فقالوا : « يا رسول الله انهم ذراري المشركين » فقال : « اوليس خياركم ذراري المشركين » وان خالد بن الوليد لما قتل بالعميصاء الاطفال رفع النبي (ص) يديه حتى رأى المسلمون بياض ابطيه وقال : « اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد » ثم بعث عليا (ع) فوأدهم ، فلم يعهد ذبح الاطفال بعد ذلك الا ما كان من معاوية في قتله أطفال المسلمين في الانبار وفي اليمن على يد عامله بسر بن أرطاة ، وكان فيمن قتلهم ولدان لعبيدالله بن عباس ، وكررت ذلك أشياعه في الطف فذبحوا من الصبية والاطفال ما ظهروا عليهم وظفروا بهم بغير رحمة منهم ودون أدنى رقة او رأفة ، الامر الذي برهن على غلوهم في القسوة والفسوق عن الدين ، وأوضح بلا مراء ولا خفاء أن قصد التشفي والانتقام بلغ بهم الى العزم على استئصال ذرية الرسول (ص) وقطع نسله ومحو أصله .

اما علي بن الحسين العليل فلم يفز بالنجاة من ايديهم العادية ولصغر سنه ، ولا بتعلق عمته به قائلة : « لا يقتل الا واقتل معه » ، ولا بشفاعة حميد بن مسلم واشباهه فيه بل انما نجا من حد الحديد لشدة

مرضه وقوة علته وضعف أملهم بحياته ، ونجا الحسن بن الحسن باختفائه وهو جريح صريح وفاء من الله بوعده وحفظه لنسل نبي الرحمة باكثار المصلحين في الامة وهدايتها بعلوم الائمة .

العطش ومقتل العباس

يقف العقل حائرا كلما فكر في النظام العائلي او الداخلي لاسرة الحسين (ع) وحسن تربيته لاله وعياله ، فكانوا ـ حتى في الشدائد ـ أتبع له من ظلاله واطوع من خياله ، ولا ينهض بأمر الجماعة مثل حسن الطاعة ولست مغاليا في قولي (طاعة الزعيم فيما تكره ولا عصيانه فيما تحب) فالانكسار كان أبعد شيء من مثل هذه الجماعة لو لم تصبهم فاقة جوع او عطش . فلا ترى شمرا مبالغا في قوله لقومه عن الحسين (ع) وأهله : « انهم اذا وصلهم الماء أبادوكم عن آخركم » فكان منع جيش الحسين (ع) عن الماء أقوى أسلحة عدوه عليه ـ ومن عد الصبر على الجوع متعسرا يعد الصبر على العطش متعذرا ـ لا سيما من فحولة هاشم وسيوفهم في أيمانهم والماء في أعينهم ، ويسمعون بآذانهم ضجة صبيتهم عطاشى ومرضى ونخص من بينهم الفتى الباسل أبا الفضل العباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقد اثرت عليه الحالة وأثارت عواطفه ، فتقدم الى أخيه الحسين (ع) يستميحه رخصة الدفاع معتذرا بأن صدره قد ضاق من الحياة ويكره البقاء .

نعم ! لا شيء أشهى من الحياة وأطيب ، لكنما الحي انما يحبها ما دامت منطوية على مسرات ولذات اما اذا خلت من تلكما الحسنيين وامست ظرف، آلام لا تطاق استحالت الحياة الحلوة كأسا مرة . غير ان اقوياء النفوس لو افضى الزمان بهم الى مثل هذه الحالة العصبية وعجزوا عن سلوان انفسهم بمهل التاريخ فانهم يختارون الموت في سبيل دفع

الموت ، ويفضلونه على الموت في سبيل انتظار الموت . أجل ! ان الموت في سبيل دفاعه أفضل وأحوط من الموت في سبيل انتظاره ، وقد كان الحسين (ع) مستميتا ومستميتا كل من كان معه ، وكانت أنفسهم الشريفة متشربة من كأس التضحية وريانة من معين التفادي . وفي مقدمة هؤلاء ابو الفضل أكبر أخوة الحسين (ع) الممتاز في الكمال والجمال ، وقمر بني هاشم ، وحامل راية الحسين ، وعقيد آماله في المحافظة على رحله وعياله . لذلك شق على الحسين أن يأذن له بالبراز الى الاعداء ، غير أنه يأمل في مبارزته القوم ابلاغ الحجة واحياء الذرية ، وان يعين على حياة العائلة بالسقاية والرواية ـ كما سبق منه ذلك ـ ولذلك صارت له درجة تغبطه عليه الشهداء ، وان أخبث رؤساء جيش العدو (شمر الكلابي) وهو على شقائه أمن العباس واشقاءه ـ لنسبة بينه وبين أم العباس (أم البنين) ـ ولان عباس الفتوة اذا عهدت اليه السقاية يعود منهما بعودته الى الحسين (ع) فمن هذا وذاك وذياك كان جوابه لأخيه العباس : « اذن فاطلب من القوم لهؤلاء الاطفال جرعة من الماء » .

فتوجه العباس بن علي (ع) نحو الجيوش المرابطة حول الشرائع ، فأخذوا يمانعونه عن الماء ويستنهض بعضهم بعضا على معارضته ومقاتلته خشية أن يصل الماء الى عترة النبي (ص) . ولم يزل العباس يقارعهم ويقاتلهم ويقلب فئة على فئة ، ويفل العصابة تلو العصابة حتى كمنوا له وراء نخلة من الغاضرية فقطعوا يمناه ، فتلقى السيف بيسراه مثابرا على الدفاع غير مكترث بما أصابه ، وهو يتلو الاراجيز ، ويذكر القوم بمآثر أهل البيت وحسبهم ونسبهم من رسول الله (ص) فكمنوا له ثانية من وراء نخلة وضربوه بالسيف على يساره فقطعوه ، فأضحى كعمه جعفر الطيار (رض) يدافع عن نفسه وهو مقطوع اليدين ، وكأن القوم قطعوا بيديه يدي الحسين (ع) فعند ذلك تقدم اليه دارمي غير هياب له وضربه بعمود من حديد فخر صريعا وصارخا : « يا أخاه أدرك أخاك » . ولم يدرك الحسين (ع) ظهيره ونصيره الا بعد اختراق الجموع والجنود ،

وفي آخر لحظة منه نادبا له وقائلا : « الآ انكسر ظهري ، وقلت حيلتي ، وشمتت بي عدوي » .

الشجاعة الحسينية

كانت هيئة الحسين (ع) وصحبه تجاه عداه دفاعية وسلسة تحفظات وتحوطات عز سفك الدم أو هتك الحرم ، مثل هجرته عن حرم الله ورسوله (ص) ، ثم مصافاته مع الحر والمحايدة عن طرق الكوفة ، ثم تقديمه ابن سعد لدى ابن زياد للكفاف عنه حتى يعود من حيث أتى او يغادر الى ثغور العجم والديلم ، ثم طلبه الافراج عن حصاره ليذهب بنفسه الى يزيد يذاكره في مصيره ومسيره ، ثم تحصنه خلف الروابي والهضاب سترا على العائلة من العادية ، ثم مطالبته السقاية والرواية بواسطة رجاله ، والتشفع لديهم بأطفاله ، وايفاد رسل النصح والسلام اليهم ، والقاء الخطب عليهم .. الى غيرها من شواهد مسلكه الدفاعي الشريف . غير ان عداه تناهوا في خطط الاعتداء عليه في جميع المشاهد والمواقف ، وبرهنوا للملأ الاسلامي انهم لا يقصدون به سوى التشفي والانتقام بكل قسوة وفظاعة ، وكانت خاتمة مدافعاته عند الذود عن حياض شرفه بالسلاح حينما يئس ولم يبق له في هدايتهم مطمع وغدت أبواب رجاء الحياة وآمالها موصدة في وجهه ، ورأى بعينيه مصارع صحبه وآله من جهة ومن الجهة الاخرى مصرع العباس اخيه وذخيرته الوحيدة لنائبات الزمان ، وايقن بتصميم القوم على ممانعة الماء عنه وعن صبيته بكل جهد وجد حتى يميتوها ويميتوه عطشا ، فجاهد جهاد الابطال ونكس فرسانا على رجال عندما عاد من مصرع اخيه ، وحال القوم بينه وبين مخيمه ، ولم ير مكثور قط قتل ولده واخوانه ومن معه أربط جأشا وأمضى جنانا من الحسين (ع) ، وانه كانت الرجال لتشد عليه فيشد

عليها ثم تنكشف عنه انكشاف المعزى اذا شد عليها الليث ، ويفرون من بين يديه كأنهم الجراد المنتشر وهو يقول :

انا الحسين بن علي آليت أن لا أنثني

فذكرهم أيام أبيه في صفين والجمل ، ورددت أندية الأخبار ذكرى الشجاعة الحسينية بكل اعجاب واستغراب ، اذ حفت بحالته حالات شذ أن يصادف بطل واحدة منها : من عطش مفرط ، وحرم مهدد ، وافتجاع بجمهور الاحبة والارحام ، وتفرده غريبا بين الوف المقاتلين ، ولكن شبل علي (ع) لم يحسب لجمهرتهم أي حساب ولم تبد منه في مثل هذه الحالة الرهيبة العصيبة ما ينافي الشرف ولا يخالف الدين ولا ما يحاشي الانسانية . هي والله معجزة البشر وانها لاحدى الكبر وينشد في كراته :

اذا كانت الابدان للموت أنشئت فقتل امرىء في الله اولى وافضل

ولم يزل يدافعهم في متسع من الارض فئة بعد فئة حتى أدت الافكار والاحوال الى فكرة حصاره أثناء الكر والفر في دائرة تلال الحائر ، وسدوا في وجهه منافذ خروجه ، وافترقوا عليه أربع فرق من جهاته الاربع : فرقة بالسيوف وهم الادنون منه ، وفرقة بالرماح وهم الجوالة حوله ، وفرقة بالنبال وهم الرماة من أعالي التلال ، وفرقة بالحجارة وهم الرجالة المنبثة حوالي الخيالة . واثخنوا جثمان سبط النبي (ص) بالجروح الدامية واكثرها في مقاديمه ، وأضحى جلده كالقنفذ ، وكلما تمايل ليهوي الى الارض توازن معه فرسه — وكان من الجياد الاصائل — حتى اذا ضعفت هي ايضا بما اصابها من الجروح خر من سرجه على وجهه ، واقبل فرسه نحو مخيمه يصهل ويحمحم ، فخرجت زينب من فسطاطها واضعة أصابعها على رأسها قائلة : « ليت السماء اطبقت على الارض ، وليت الجبال تدكدكت على السهل » ثم صاحت بابن سعد قائلة : « يا عمر ايقتل ابو عبدالله وانت تنظر اليه ؟ » فدمعت عينا عمر وسالت دموعه على لحيته لكنه صرف وجهه عنها ، ثم اقبل شمر على الحسين (ع) يحرض الجيش

عليه ، والحسين يحمل عليهم فينكشفون عنه وهو يقـــول : « أعلى قتلي تجتمعون ؟ وايم الله اني أرجو ان يكرمني الله بهـــوانكم ، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون . اما والله لو قتلتموني لألقى الله بأســـكم بينكم ثم لا يرضي بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الاليم » ولم يزل يدافع عن نفسه ويقاتلهم راجلا قتال الفارس المغوار يتقي الرمية ويفترض العـــوار لكنه يقوم ويكبو والرجالة تفر من بين يديه ثم تكر عليه .

مصرع الامام ومقتله

لقد توالت على ابن النبي (ص) جروح دمية من مطاردة الابطـــال ومضاربة الفرسان ، واثناء مناصرته لانصاره ومكاشفة الجيش عن اهـــل بيته ، وعندما بلغ المسناة رمى ابن نمير بسهم فجرح ما بين فمه وحنكه وملأ كفيه دما فحمد الله وقال : « اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا ، لا ترض الولاة عنهم أبدا » ثم ضربه كندي على رأسه بالسيف فقطع البرنس وادمى رأسه وامتلأ البرنس دما فقال الحســين : « لا أكلت بيمينك وحشرك الله مع الظالمين » والقى البرنس ولبس القلنسوة ، ثم شج جبينه ابو الحتوف الخارجي بالحجارة ، فسالت الدماء على وجهه وافضت الاصابات والعصابات الى هويه نحو مصرعه ، واقبل شمر برجاله يحول بين الحسين (ع) ورحاله ، واغتنمت رجالة الجيش عندئذ فرصة مصرعـــه لاغتنام ما في رحله ، وما على أهله ــ اولئك الذين فقدوا في تلـك الســاعة الرهيبة حامي حماهم ــ فاستفزت ضجتهم مشاعر الحسين الهادئة ، فرفـع رأسه وبصره واذا بأجلاف القوم زاحفون من سفح التلال نحو مخيمـــه للسلب والنهب ، فأثارت الغيرة في حسين المجد روحا جـــديدة ، فنهض زاحفا على ركبتيه قائلا : « يا شيعة آل أبي سفيان : ان لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون يوم المعاد فكونوا أحرارا في دنياكم وراجعـوا أحسابكم

أنسابكم ان كنتم عربا » .

فصاح شمر : « ما تقول يابن فاطمة ؟ » قال الامام : « أقول أنا الذي أقاتلكم وتقاتلوني ، والنساء ليس عليهن جناح ، فارجعوا بطغاتكم وجهالكم عن التعرض لحرمي » فقالوا : « ذلك لك ورجعوا » .

ومكث الامام (ع) صريعا يعالج جروحه الدامية والناس يتقون قتله وكل يرغب في ان يكفيه غيره . فصرخ بهم شمر قائلا : « ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ، اقتلوه ثكلتكم امهاتكم » فهاجوا على الحسين واحتوشوه فضربه زرعة على عاتقة بالسيف .

وأقبل عندئذ غلام من أهله وقام الى جنبه ـ وقد هوى ابن كعب بسيفه ـ فصاح به الغلام : « يا ابن الخبيثة أتقتل عمي ؟ » واتقى السيف بيده فاطنها وتعلقت بالجلدة فنادى الغلام : « يا أماه » فاعتنقه الحسين قائلا : « صبرا يا ابن أخي على ما نزل بك ، فان الله سيلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين ، برسول الله وبعلي وبالحسن » ثم قال : « اللهم امسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الارض ، اللهم ان متعتهم الى حين ففرقهم فرقا ، واجعلهم طرائق قددا ، ولا ترض عنهم الولاة أبدا ، فانهم دعونا لينصرونا فغدوا علينا يقتلونا » .

ثم تضاعفت الرجالة والخيالة على الحسين (ص) وطعنه سنان برمحه وقال لخولى : « احتز الرأس » فضعف هذا وارعد ، فقال له سنان : « فت الله عضدك » ونزل وذبح الامام ودفع رأسه الى خولى . وسلبوا ما على الحسين (ع) ـ حتى سراويله وقلنسوته ـ ثم تمايل الناس الى رحله وثقله وما على أهله ، حتى ان الحرة كانت لتجاذب على قناعها وخمارها ، والمرأة تنتزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ، والفتاة تعالج على سلب قرطها وسوارها ، والمريض يجذب الاديم من تحته .

ثم نادى ابن سعد في اصحابه : « من ينتدب الى الحسين فيوطيء الخيل صدره وظهره » فانتدب عشرة فوارس ، وداسوا بحوافر خيلهم

جنازة الامام ، ورضوا جناجن صدره . وصلى ابن سعد على قتلى جيشه ودفنهم ، وترك الشهداء الصالحين على العراء « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » .

بعد مقتل الحسين

قتل الظالمون حسين الفضيلة وفرحوا بمقتله فرحا عظيما ، اذ حسبوا انهم قتلوا به شخصيته ودعوته وصرعوا به كلمته ، وحسبوا انهم أخذوا به ثأر أسلافهم وانتقام أشياخهم ، داسوا بخيلهم جناجن صدر الحسين (ع) وسحقوا جثمانه ، وزعموا أنهم سحقوا به كلمة الحسين ومحقوا دعوته .

تركوا جسد الحسين وأجساد من معه عراة على العراء بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليها ولا دفن ، زاعمين أنهم أهملوا بذلك شخصية الحسين وأهمية الحق والايمان ، مثلوا بجثة الحسين ـ وقد منع الاسلام عن المثلة ـ زاعمين أنهم جعلوا داعية العدل وآبة الحق أمثولة الخيبة والفشل ، وانه سيضرب به المثل ، لعبوا برأسه على القنا وبرؤوس آله وصحبه أمام العباد والبلاد ، زاعمين انهم سيلعبون بعده بعقائد العباد ومصالح البلاد ما داموا ودامت ، سلبوه وسلبوا أهله ونهبوا رحله وأحرقوا خيمه وأبادوا حرمه ، زاعمين انها هي الضربة القاضية ، فان ترى بعدئذ من باقية .

ظن ذلك القوم وأيديهم كل شواهد الاحوال يومئذ حتى دفن ابن سعد جميع قتلى جنده في يومه ، ودفن معهم كل خشية أو خيبة كانت تجول في واهمته ، ورحل عن كربلاء برحل الحسين (ع) وأهله والرؤوس الى ابن زياد ، وترك أشلاء حامية الحق وداعية العدل جرداء في العراء بين لهيب الشمس والرمضاء وعرضة للسمور والعقبان ، مما يثير الشجون والاحزان ان علي الايمان حارب البغاة من أقطاب الحركة الاموية في صفين والجمل ،

وبعد قتلهم أجرى عليهم سنن التجهيز والدفن مراعيا حرمة الاسلام وحشمة الشهادتين ، أما المنتقمون من حسين الحق وصحبه فلم يحترموا فيه أي شعار ديني أو أدب قومي ، قنعوا منهم بدمائهم عن التغسيل وبالترب عن التحنيط وبنسج الرياح عن التجهيز .

وليت شعري ! ماذا يصنع أولياء الحق بصلاة أولياء الشيطان ؟ وحسبهم منهم أن صلت على جسومهم سيوفهم ، وشيعت أجسادهم ببالهم ، وألحدت أشلاءهم العوادي والعاديات ، فعليهم واليهم صلوات الله والصالحين ودعوات طلاب العدل وعشاق الحق ما لاحت الاصباح وروحت الرياح .

هذا وما عتمت عشية الثاني عشر من محرم الا وعادت الى أرياف كربلا عشائرها الظاعنة عنها بمناسبة القتال وقطان نينوى والغاضريات من بني اسد ـ وفيهم كثير من أولياء الحسين (ع) وقليل ممن اختلطوا برجالة جيش الكوفة ـ فتأملوا في أجساد زكية تركها ابن سعد في السفوح وعلى البطاح تسفي عليها الرياح ، وتساءلوا عن أخبارها العرفاء فما مرت الايام والاعوام الا والمزارات قائمة ، وعليها الخيرات جارية ، والمدائح تتلى ، والحفلات تتوالى ، ووجوه العظماء على أبوابها ، وتيجان الملوك على أعتابها . وامتدت جاذبية الحسين (ع) وصحبه من حضيرة الحائر الى تخوم الهند والصين وأعماق العجم وما وراء الترك والديلم والى أقصى من مصر والجزيرة والمغرب الاقصى يرددون ذكرى فاجعته بممر الساعات والايام ، ويقيمون مأتمه في رثائه ومواكب عزائه ، ويجدون في احياء قضيته في عامة الانام ، ويمثلون واقعته في ممر الاعوام . هذا بعض ما فاز به حسين النهضة من النصر الآجل والنجاح في المستقبل « ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره المبطلون » .

أما الحزب السفياني فقد خاب فيما خاله وخسرت صفقته وذاق الامرين بعد مقتل الحسين (ع) في سبيل تهدئة الخواطر وخماد النوائر حتى صار يعالج الفاسد بالافسد ويستجير من الرمضاء بالنار ، كقيامه

باستباحة مدينة الرسول (ص) واخافة اهلها ، وقتله ابن الزبير في مكة حرم الله والبلد الامين ، حتى حاصروه ورموه بالمنجنيق ، وقطعوا سبل الحج على المسلمين ، وهتكوا معظم شعائر الدين .

ونهض المختار الثقفي وزعماء التوابين العراقيين طالبين ثأر الحسين(ع) فقتلوا ابن زياد وابن سعد واشياعهما شر قتلة ، واهلكوا شمرا بكل عذاب، وأحرقوا حرملة حيا ، وتتبعوا قتلة الحسين (ع) ومحاربيه في كل دير ودار ، وقتلوهم تحت كل حجر ومدر ، وأصلوهم الحميم والجحيم ، واستجاب الله دعوة الحسين (ع) يوم عاشوراء اذ قال : « وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسا مصبرة » .

ولم تزل عليهم ثائرة اثر ثائرة ، ونائرة حرب تلو نائرة حتى اذن الله سبحانه بزوال ملك امية وسقوط دولة بني مروان على يدي السفاح الهاشمي ابي العباس بن عبدالله العباسي واخوته واعمامه ، والقائد الباسل ابي مسلم الخراساني ، وثلة من فحولة هاشم ، فثلت عروش تلك الدولة الجائرة ، ودكت اركان حكومتها الغدارة ، واستأصلوا شأفتهم وابادوهم رجالا ونساء حتى لم يبق منهم آخذ ثار ولا نافخ نار ، واحرقوا من آثارهم حتى الرميم المنبوش ، ولعنوا حيثما ذكروا ، وقتلوا اينما ثقفوا . فتجد حتى اليوم قبر يزيد الجور في عاصمة ملكه كومة احجار ومسبة المارة ، لا يذكر في شرق الارض وغربها الا بكل خزي وعار .

هذه عاقبة الجائر الفاجر وتلك عقبى المجاهد الناصح . « وان الارض لله يورثها عباده الصالحين » .

زينب في عاصمة أبيها

ان كان أبو حفص أول من اختط الكوفة للجند والمؤونة فأبوالحسن أول من مصرها وعمرها ومدنها واتخذها عاصمة لحكومته[1] فصارت في أيامه مشهد القضاء والخطابة ، ومعهد العلم والعبادة ، وكانت ابنته زينب أميرة الكوفة حينما كان أبوها امير المؤمنين ، ومعزز مجدها اخوتها الامجاد ، وزوجها سيد الاجواد عبدالله ابن عمها جعفر الطيار ــ الذي اشتهر بالجود ــ حتى انه أقرض شخصا واحدا ــ وهو الزبير ــ ألف ألف درهم ثم وهب الصك لابن الزبير .

وبيت زينب في الكوفة ملجأ الفقراء والامراء ، حتى كان أبوها يضيف عندها احيانا ــ كما روي ذلك عنه في ليلة مقتله ــ . فالى مثل هذا البلد أو الى مقر عزها وعاصمة أبيها كان سبي زينب الخطوب وعقيلة بني هاشم ، وتدخلها بجملة رباب الخدر من آل الرسول ، وحولها يتامى وذراري أبيها علي ، على محامل غير مجللة بالغطاء ، وهن لا يملكن من السواتر غير الحياء ، يسوقهن الجيش المنتصر أمام الركاب كالاماء ، واهل الكوفة في عبرة وعبرة من هذا المشهد الغريب ، يضجون ويعجون مما جرى على آل الرسول ، وفيهم من يناولون الاطفال بعض الخبز والتمر رأفة ورحمة .

فحري بالحرة الهاشمية سليلة الرسول أن تصرخ بهم وتقول : « ان الصدقة محرمة علينا أهل البيت » ونساء الازقة والسطوح باكيات على هؤلاء .

---

(١) روى ذلك القرماني في أواخر أخبار الدول .

قال خزيمة الاسدي : « دخلت الكوفة فصادفت منصرف علي بن الحسين بالذربة من كربلا الى ابن زياد ، ورأيت نساء الكوفة يومئذ قياما يندبن ، متهتكات الجيوب ، وسمعت علي بن الحسين وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من شدة المرض : « يا أهل الكوفة ! انكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟! » ورأيت زينب بنت علي (ع) فلم أر والله خفرة أنطق منها كأنما تفرغ عن لسان أمير المؤمنين ، فأومأت الى الناس أن اسكتوا ، فسكتت الانفاس وهدأت الاجراس فقالت :

« الحمد لله والصلاة على محمد وآله الطيبين الاخيار ، أما بعد : يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر ، أتبكون ؟ فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرنة . انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم . الا وهل فيكم الا الصلف النطف ، والصدر الشتف ، وملق الاماء ، وغمز الاعداء ، او كمرعى على دمنة ، او كفضة على ملحودة . « ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون » .

أتبكون وتنتحبون ؟ اي والله ! فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا ،فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل أبدا . وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، وسيد شباب أهل الجنة ، وملاذ خبرتكم ومفزع نازلتكم ، ومنار حجتكم ، ومدره سنتكم . الا ساء ما تزرون وبعدا لكم وسحقا ، فلقد خاب السعي ، وتبت الايدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة .

ويلكم يا أهل الكوفة ! اتدرون اي كبد لرسول الله فريتم ، واي كريمة له ابرزتم ، واي دم له سفكتم ، واي حرمة له انتهكتم ؟ ولقد جئتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الارض أو ملاء السماء ، افعجبتم ان مطرت السماء دما لعذاب الآخرة وانتم لا تنصرون .

فلا يستخفكم المهل فانه لا يخفره البدار ، ولا يخاف قوة الثار ، وان ربكم لبالمرصاد » .

يقول راوي هذه الخطبة : « فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون ، وقد وضعوا ايديهم في افواههم . ورأيت شيخا واقفا الى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول : بأبي انتم وامي ، كهولكم خير الكهول ، وشبابكم خير الشباب ، ونساؤكم خير النساء ، ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا ينزى » .

السبي النبوي في قصر الامارة

نزلوا باسبايا في قصر الامارة على عبيدالله وقد سبقها رأس الحسين (ع) لان ابن سعد ساعة ما قتل الحسين أرسل رأسه الى ابن زياد مع خولى الاصبحي . فبات في بيته وأصبح عنده في طست بين يديه ـ ومجلسه مكتظ بالشيوخ ورؤساء الاحياء ـ فصار يتبسم من عظيم سروره وابتهاجه ، وينكت رأس الحسين بقضيب في يده ويضرب شفتيه ، غير مكترث ولا محتشم لاحد ، ولا أحد ينكر عليه فعلته هذه الا الصحابي العظيم زيد بن أرقم ، صرخ قائلا : « ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين ، فقد والله رأيت رسول الله يضع شفتيه على هاتين ويقبلهما » ثم بكى . فسبه ابن زياد وقال له : « أبكى الله عينيك ، فلولا انك شيخ كبير قد كبرت وخرفت لضربت عنقك » فخرج زيد يقول للناس : « أنتم يا معشر العرب عبيد بعد اليوم ، تقتلون ابن فاطمة وتؤمرون ابن مرجانة » .

ولما ادخلوا سبايا الحسين (ع) على ابن زياد تنكرت اخته زينب بين النساء وحفت بها جواريها لكي لا تعرف ، فقال ابن زياد : « من هذه المتنكرة المتكبرة ؟ » فلم تجبه ثم كررها ثلاثا وهي لا تكلمه ، فقالت له احدى الجواري : « هذه زينب بنت فاطمة » فقال ابن زياد : « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم واكذب احدوثتكم » فقالت زينب : « الحمد لله الذي كرمنا بمحمد وطهرنا تطهيرا لا كما تقول ، وانما يفتضح الفاسق

ويكذب الفاجر وهو غيرنا » فقال ابن زياد : « كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟ » فقالت : « هؤلاء كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده فتنظر لمن الفلج » .

فغضب ابن زياد واستشاط ، فقال له عمر بن حريث : « يا أمير انها امرأة ، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها » . فقال ابن زياد لزينب : « شفى الله غيظي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك » فقالت : « لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرزت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فان يشفك فقد اشتفيت » قال ابن زياد لجلسائه : « هذه سجاعة وقد كان ابوها اسجع منها » .

ثم التفت الى علي بن الحسين قائلا : « ما اسمك ؟ » قال : « علي بن الحسين » قال : « أوليس الله قد قتل عليا ؟ » قال : « كان لي أخ يسمى عليا قتله الناس » قال ابن زياد : « بل قتله الله » قال علي : « الله يتوفى الانفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » فغضب ابن زياد وأمر بقتله ، فتعلقت به عمته زينب قائلة : « حسبك يا ابن زياد من دمائنا ! أما رويت واشتفيت ، وهل أبقيت منا أحدا ؟ أسألك بالله ان كنت مؤمنا أن تقتلني معه ان كنت قاتله » فنظر ابن زياد اليهما طويلا ثم قال : « عجبا للرحم . تود أن تقتل دونه . دعوا الغلام ينطلق مع نسائه » .

ثم كثر الزحام على ابن زياد من الطامعين والطامحين ، اذ أزفت ساعة الوفاء بالوعود وتأدية اجور العاملين . لكن ابا مرجانة رأى أن الخزانة لا تفي بمصرف الجنود فضلا عن الوفاء بالوعود ، وانما أغراهم بالمواعيد دهاء ومكرا . وطبيعة الكوفة انها تنصب رقابها سلما لرقبائها قبل ابرام الوثائق ، فتمسى ولها الوزر ولغيرها الاجر . فغدر ابن زياد بهم بعد مقتل الامام ، وحرم الكثير منهم حتى عن القليل بأقل بادرة وأدنى حجة ، ونكث عهد ابن سعد بولاية الري .

ولما جاءه سنان بن انس قائلا :

املأ ركابي فضة وذهبا ... اني قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم اذ ينسبون النسبا

رده عبيد الله قائلا : « فلم قتلته لو تعرفه كذلك ؟ »

وأحال ابن زياد قسما من هؤلاء العاملة الى اميره يزيد في الشام ليستوفوا الجوائز هناك ، وجهز معهم سبايا الحسين ، وقائد الركب زجر وقائد الجند المحافظ لهم شمر ، ومعهم كافة الرؤس ، وذلك لانه عرف ان الكوفة سريعة التبدل ، وشعر ببوادر انقلاب القلوب مما ذكرناه فبقاء آل الرسول في الكوفة خطر ، والسجون مشحونة بشيوخ القبائل .

وليس ابن زياد كيزيد يلهو بالحالة الحاضرة عما وراءها ويضيع الفرص على نفسه ، فاستعجل بارسال أهل الحسين الى الشام ، فضلوا يعانون مشاق السفر حتى وصلوا دمشق الشام في أوائل شهر صفر .

في الشام عاصمة أمية

الحوادث في النهضة الحسينية سلسلة مصائب تؤخذ بدايتها في الاكثر من مدينة الرسول (ص) وتنطفي شعلة الختام في الشام . الا أن المتأمل في فصولها يعسر عليه في اكثر الاحيان ربط الحلقات وتعليل الحوادث ومعرفة المؤثرات ، فيقف التاريخ بالقارىء غالبا وقفة الحائر واضعا سبابته على شفتيه بدل أن يضعها على جمله تاريخية كهيئة المشير الى السبب ، وكيف لا تستولي عليه الحيرة وحوله ما يدهش اللب ويقضي بالعجب ، اذ عن اليمين فضائل جمة تمركزت في شخصية الحسين (ع) هي ذي مآثر فضلى تستوجب اكرام صاحبها ـ قام او قعد ـ ، بينما عن يسار المتأمل صحيفة سوداء ، للخصوم هي ذي مآثم تستدعي احتقار صاحبها ولعنه ـ

اينما سار او وقف ـ ، وامام المتامل فجائع وفضائع وما لا يستحله عدد من الد أعدائه : من ايذاء صبية ، وذبح ذرية ، وسبي نساء ، وقتل ابرياء ، وضرب المرضى ، وسب الموتى واحصار الضعفاء على ظما ، ومثلة باشلاء الى غيرها مما تقشعر منه الجلود .

فهل هذا كله لاحقاد اورثتها الجدود للاحفاد ؟ حينما نرى الخصومات تنتهي في العرب وغير العرب في ساعة الغلب ، فلا يبقى بعد ذلك في المنظر أثر حقد على المنكسر ، بل يصون منه الحرمة ، وتتحول فيه النقمة الى الرحمة .

لكننا المؤسف كل الاسف ان يزيد لم يعامل خصومه من آل الرسول (ص) معاملة خصوم العرش والتاج ، ولا وقفت مظالمه فيهم عند حد الغلب والسلب ، حتى أسر النسوة بكل قسوة وسيرها عشرات المنازل من كربلا الى الشام سبايا على أقتاب المطايا ، وأوقفهن بين يديه كالاماء شعث الشعور مترية الوجوه ممزقة الثياب ، الامر الذي يدعو الى الاعتقاد بان القضية قضية الاحقاد لا قضية العرش والتاج ، ولا سيما عندما أظهر التشفي حين نكت بخيزرانة في يده ثغر الحسين وشفتيه قائلا : « يوم بيوم بدر » فانكر عليه ابو بردة الاسلمي قائلا : « ويحك يا يزيد ! اتنكت ثغر الحسين ابن فاطمة ؟! اشهد لقد رأيت النبي يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول : أنتما سيدا شباب اهل الجنة ، فقتل الله قاتلكما ولعنه » فغضب يزيد وأمر باخراجه سحبا . ثم تمثل بابيات ابن الزبعرى المعروفة : « ليت أشياخي ببدر شهدوا ... الخ » وزاد عليها ـ كما في رواية الشعبي وغيره ـ أبياتا منها هذا البيت :

لست من خندف ان لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

ثم صارت فاطمة بنت الحسين من ورائه تطاول رأسها لترى رأس ابيها ويزيد يطاول برأسه لئلا تراه ، وصار يتمثل بأبيات الحصين المري :

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وقد كانوا أعق وأظلما

فصاح علي بن الحسين ـ وكان مغلول اليدين ـ : « يا يزيد ! ما ظنك برسول الله لو رآنا على هذه الحالة ؟ » فأمر يزيد باطلاق يديه وقال : « أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني في سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت » فأجابه علي : « ما أصابكم من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب قبل أن نبرأها ـ الى قوله تعالى ـ ان الله لا يحب كل مختال فخور » .

وقام شامي أحمر وأشار الى فاطمة بنت الحسين قائلا : « يا أمير هب لي هذه الجارية » فارتعدت فاطمة وتعلقت بعمتها زينب ، فصاحت زينب الفصاحة : « مه ! ليس ذلك لك ولا لاميرك » فغضب يزيد وقال : « ان ذلك لي ولو شئت لفعلت » فأجابته زينب : « كذبت والله ، ليس ذلك لك الا ان تخرج عن ملتنا وتدين بغير ديننا » فاستطار يزيد غضبا وقال : « اياي تستقبلين بهذا ؟ انما خرج عن الدين ابوك واخوك » فقالت : « بدين الله ودين أبي اهتديت أنت وابوك ان كنت مسلما ، وانما انت امير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك » .

ثم لم تقنع بنت أمير المؤمنين في تلك القاعة الرهيبة التي لا تقصر مهابة عن ميادين الوغى ، بل عمدت الى كشف القناع عن مخازي القوم وبيان صلاتها بصميم الاسلام ، فقامت مصلية على رسول الله قائلة :

« الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله اجمعين .

صدق الله : « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزأون » .

أظننت يا يزيد ! حيث أخذت علينا أقطار الارض وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الاسارى ان بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة ، وان ذلك لعظم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك ، جذلان مسرورا حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والامور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا .

مهلا مهلا ! أنسيت قول الله تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا

انما نملي لهم خير لانفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين»؟!

أمن العدل يابن الطلقا ! تخديرك حرائرك واماءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا ، قد هتكت ستورهن ، وابديت وجوههن ، تحدو بهن الاعداء من بلد الى بلد ، ويستشرف وجوههن أهل المناهل والمعاقل ،ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف ، ليس معهن من رجالهن ولي ولا من حماتهن حمي .

وكيف يرتجي مراقبة من لفظ فوه أكباد الازكياء ، ونبت لحمه من دماء الشهداء ؟ وكيف يستبطىء في بغضنا ـ أهل البيت ـ من نظر الينا بالشنف والشنآن والاحن والاضغان ؟! .

ثم تقول ـ غير متأثم ولا مستعظم ـ :

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنيا على ثنايا أبي عبدالله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة باراقتك دماء ذرية محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ونجوم الارض من آل عبدالمطلب ، وتهتف بأشياخك زعمت انك تناديهم ، فلتردن وشيكا موردهم ، ولتودن انك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت .

اللهم خذ بحقنا ، وانتقم من ظالمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا ، وقتل حماتنا .

فوالله ما فريت الا جلدك ، ولا حززت الا لحمك ، ولتردن على رسول الله (ص) بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ، ويلم شعثهم ، ويأخذ بحقهم .

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

حسبك بالله حاكما ، وبمحمد خصيما ، وبجبريل ظهيرا . وسيعلم

من سوى لك ومكنك من رقاب المسلمين ، بئس للظالمين بدلا ، وايكم شر مكانا وأضعف جندا .

ولئن جرت علي الدهور مخاطبتك اني لاستصغر قدرك ، واستعظم تقريعك ، واستكبر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرا .

ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الايدي تنطف من دمائنا ، والافواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل ، وتعفوها أمهات الفراعل ، ولئن اتخذتنا مغنما لتجدن وشيكا مغرما ، حين لا تجد الا ما قدمت ، وما ربك بظلام للعبيد ، فالى الله المشتكى وعليه المعول .

فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك . فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا ترحض عنك عارها ، وهل رأيك الا فند ، وأيامك الا عدد ، وجمعك الا بدد ، يوم يناد المنادي : الا لعنة الله على الظالمين .

فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب .

طلائع الانتباه

لقد كان لخطبة زينب في تلك الحفلة الرهيبة ـ التي كانت تضم بين جنبيها عدد كبير من مختلف الناس ـ صدى عظيم ، بحيث نبهت الناس وايقظتهم من نومتهم ، كأنهم كانوا في سباة عميق ذهبت بعقولهم ومشاعرهم .

أزاحت ربة الخدر حجب الشبهات عن عيون أعيان الشام الذين كانوا يزعمون أن هؤلاء من سبي الروم والترك ، حتى كان أحدهم يطالب يزيد احدى بنات رسول الله (ص) تكون أمة له وخادمة في بيته ،

فانكشفت لاعيان الشام حقيقة السبي وانه من العنصر الهاشمي الزكي والبيت النبوي الطاهر . فعندها أمر يزيد بالحبال فقطعت من أعناقهن وأيديهن ، وتوجه بالحنان الى زين العابدين وطلب منه أن يصعد المنبر ويعتذر ليزيد من امر ابيه الحسين (ع) . فرقى ابن الخيرتين المنبر فحمد الله واثنى عليه وذكر الرسول فصلى عليه ثم قال [1] :

« ... ايها الناس اعطينا ستا وفضلنا بسبع : اعطينا العلم ، والحلم ، والسماحة ، والفصاحة ، والشجاعة ، والمحبة في قلوب المؤمنين . وفضلنا بأن منا النبي المختار محمدا ، ومنا الصديق ، ومنا الطيار ، ومنا اسد الله واسد رسوله ومنا سبطا هذه الامة ومنا مهدي هذه الامة . من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني انبأته بحسبي ونسبي : .. أنا أبن محمد المصطفى ، انا ابن علي المرتضى ... أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن سيدة النساء ... » وهكذا لم يزل يقول انا ابن ، انا ابن حتى ضج الناس بالبكاء وخشي يزيد ان تحدث فتنة وانقلاب ، فأمر المؤذن ان يؤذن حتى ينقطع كلام الامام ، فجعل المؤذن يؤذن حتى قال : « أشهد أن محمدا رسول لله» التفت العليل من فوق المنبر الى يزيد وقال : « محمد هذا جدي أم جدك يا يزيد ؟! فان زعمت انه جدك فقد كذبت وكفرت ، وان زعمت انه جدي فلم قتلت عترته ؟! »

بهذه الخطبة الرنانة تمكن علي بن الحسين (ع) أن يوجه نحوه وجوه أهل الشام ـ كما أثرت من قبل خطبة عمته زينب في أعيان الشام ـ .

ومما مضى نعلم ان النهضة الحسينية ـ التي دار محورها حول تنبيه الامة على سيآت بني أمية ـ لم ينقطع سيرها بانقطاع حياة الحسين في طف كربلا ـ كما قلنا ذلك في الفصل السابق ـ بل قامت مقامه شقيقته زينب وأزالت الستار عن مخازي بني أمية الجور حتى في عاصمتهم ، وفي نوادي

---

(١) ن هذه الخطبة العظيمة التي القيت على مسامع أهل الشام كانت مفصلة جداً رأينا اختصارها بمقتضى هذا الكتاب وانتخبنا منها بعض الجمل والفصول فقط . وتفصيل هذه الخطبة مذكورة في كتاب بحار الانوار ج ١٠ .

ابن زياد ويزيد ، وكذا قام بدوره علي شبل الحسين السبط في هذه المواضع الرهيبة منبها للغافلين ، وناقما على الظالمين ، ومبشرا بمباديء جده الامين ـ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حي عن بينة ـ .

عند ذلك قلب يزيد ظهر المجن ، وأظهر الندم من قتل الحسين قائلا : « لعن الله ابن مرجانة ، لقد كنت اكتفي منه عن الحسين بأقل من هذا » وطلب من علي بن الحسين ان يعرض عليه حاجته ، فقال له : « اريد منك ان ترديني وجه أبي ، وان تعيد على النساء ما أخذ منهن ، ففيها مواريث الآباء والامهات ، واذا كنت تريد قتلي فارسل مع العيال من يؤدي بهن الى المدينة » فأجابه بقوله : « أما وجه أبيك فلن تره ، واما ما اخذ منكم فيرد اليكم ، واما النسوة فلا يردهن غيرك ، وقد عفوت عن قتلك » .

هنا وفي هذه الساعة انطفأت جذوة الانتقام ـ التي كان لهيبها يستعر في صدر يزيد من قبل ـ ، وهنا خاتمة المصائب .

هنا اذن يزيد لاهل البيت النبوي اقامة العزاء لفقد سيدهم ليالي وأياما ، وعلت من بيوت يزيد ونسوته أصوات البكاء والعويل ـ كحمامات الدوح يتجاوبن النوح مع النوادب من آل الرسول على سيد شباب أهل الجنة ـ .

ثم أمر يزيد الخنا النعمان بن بشير ان يسير بآل الرسول الى المدينة المنورة في العشرين من صفر ، وينزل بعيدا عنهم ، ويسير كذلك ولا ينزل إلا بأمرهم ولا يرحل الا بمثله ، وان يراعي في حسن خدمتهم كل ما في وسعه من عطف ورأفة .

بلغ السبي النبوي المدينة ولكن بأية حالة ؟! تعرف مبلغ التأثير في أهل البيت مما خاطبت زينب المدينة قائلة :

مدينة جدنا لا تقبلينا ... فبالحسرات والاحزان جينا
خرجنا منك بالاهلين جمعا ... رجعنا لا رجال ولا بنينا
وكنا في الخروج بجمع شمل ... رجعنا حاسرين مسلبينا

وكنا في امان الله جهرا رجعنا بالقطيعة خائفينا
ومولانا الحسين لنا آنيس رجعنا والحسين به رهينا
فنحن الضائعات بلا كفيل ونحن النائحات على آخينا
ونحن السائرات على المطايا نشال على جمال المبغضينا

ثم أخذت بعضادتي باب مسجد النبي (ص) وقالت بلهفة : « ياجداه! اني ناعية اليك أخي الحسين » ولا زالت بعد ذلك لا تجف لها عبرة ، ولا تفتر من البكاء والنحيب . وكلما نظرت الى علي بن الحسين (ع) تجدد أحزانها وزاد وجدها .

محرم .. وتاريخ العزاء الحسيني

في التاريخ مصارع كثيرة .. وفجائع مثيرة يذهل الفكر أمامها حائرا .. ولكن فاجعة « كربلاء » قد أجمع المؤرخون بأنها من أشد الفجائع أثراً في النفوس .. وأقسى المصارع وقعا على القلوب .. ذلك لما وقع على ساحة الطف في كربلا بالعراق من مجزرة بآل النبي واصحابهم يوم العاشر من محرم سنة احدى وستين للهجرة الموافق لسنة ٦٨٠ ميلادية . حيث حوصر فيها الامام أبي عبدالله الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام هو وآله وفتية من بني هاشم وجملة من اصحابه من أهل العراق والحجاز .. واستشهدوا جميعا من قبل الجيش الأموي بقيادة عمر بن سعد بن ابي وقاص وبأمر من عبيدالله بن زياد عامل يزيد على الكوفة ..لا لذنب سوى تمسكهم القوي بمبادئهم القويمة .. واحساسهم القوي بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم ازاء السياسة الأموية القائمة ..

لذلك كلما بدت طلعة العام الهجري[1] تذكر المسلمون ببالغ الأسى وعظيم التأثر مصارع آل الرسول وأهل بيته وما امعنه الجيش الأموي فيهم من القتل والتنكيل والتمثيل .. وتذكروا كيف دكت حوافر خيول هذا الجيش جناجن صدورهم وظهورهم بشكل لم يشهد التأريخ نظيرها فضاعة

---

(١) يعتقد فريق من المسلمين ضرورة الاحتفال بهلال محرم الحرام باعتباره مفتتح العام الهجري ، وانه يلزم أن يكون موضع فرح وسرور ساعة حلوله .. وأن يتخذ له مظاهر الانس والابتهاج أسوة بسائر الاقوام التي اتخذت من مفتتح أعوامها أبهج يوم أو أعظم عيد .. ولذلك بدأت بعض الاقطار الاسلامية تأييد هذا التقليد باقامة مباهج الاحتفاء ومجالس التكريم بهذه المناسبة ليلة الاول من شهر محرم ويومه باعتبار هذا اليوم يوم الهجرة النبوية.. ويحلق المتحدثون تحت هذا العنوان .. عامدين على اتخاذه عيداً دونما احتفال بمشاعر الاخرين .. وتقام على هذا الاساس مظاهر الزينة ومعالم الافراح في بعض الاقطار العربية .. وتبادل التهاني ء (بيوم الهجرة) أو «بعيد الهجرة» في حين أن

←

وبشاعة .. وكيف ساروا برؤوس القتلى على الرماح مع نساء الرسول سبايا الى الكوفة فالشام باسم سبايا الروم ثم الى مدينة جدهم يثرب عاريات في احزن منظر(٢) .. كل هذا والدين الحنيف في اول عهده .. والسلام في ربيع حياته ..

لذلك حين يحل هذا التاريخ من كل عام .. ويهل هلال محرم الحرام يستعد المسلمون في معظم انحاء المعمورة للتعبير عن شعورهم ازاء هذه الذكرى الدامية وخاصة في يوم العاشر من محرم .. المعروف بيوم «عاشوراء» حيث يحتفل المسلمون فيه بهذه المناسبة الأليمة متذكرين مصارع آل النبي في كربلا في حزن عميق وشجن عظيم .. يستعرضون مواقف الامام الحسين ومن استشهد معه بما يناسبها من الاشادة والتكريم .. ومنهم من يبالغ في اظهار شعائر الحزن والأسى حسبما يتصوره ويرتاح اليه حسب تأثره ومعتقدة تجاه هذه الفاجعة الدامية .. التي أثرت في العالم الاسلامي تأثيرا بالغاً ما ظل ملازما له منذ ذلك الحين اي قبل الف وقرون الى يومنا هذا .. والى ما شاءالله من أيام الدهر ..

يوم الهجرة النبوية كان باجماع المؤرخين دونما اختلاف في يوم الاثنين من مطلع شهر ربيع الاول من سنة ٦٢٢ ميلادية وان الرسول صلوات الله عليه ترك مكة ليلا وهاجر مع صاحبه « ابي بكر الصديق » الى المدينة وترك ابن عمه علياً في فراشه تلك الليلة .. وليس هناك من رابط بين هذه الهجرة وأول شهر محرم ولم يرد في التاريخ الاسلامي ذكر للاحتفال بهذه المناسبة في مطلع شهر محرم .. وانما في عهد (الفاروق عمر) جرى الاتفاق على اعتبار هجرة الرسول بداية لتدوين التاريخ الاسلامي .. واعتبار اول محرم كما كان المعتاد بداية للعام الهجري لغرض الحساب .. واما الاحتفال به كعيد لرأس السنة الهجرية وعطلة رسمية .. فهي فكرة حديثة ومن محدثات السنين الاخيرة .

(٢) وقد استقبلهم بنو هاشم بصورة لا ينساها المسلمون والعلويون من حيث الروعة والبكاء والعويل .. وقد انشدت بنت عقيل بن أبي طالب هذه الابيات تصف بها الحالة :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ؟ ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ان تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

ـ تاريخ العلويين ـ محمد غالب الطويل

وقد يتصور البعض ان هذه الشعائر والمظاهر التي تقام في العشرة الاولى من محرم الحرام من كل عام من قبل المسلمين في مختلف انحاء الارض وبمختلف أشكالها انما هي من محدثات العصور الاخيرة في حين ان هذا التعبير عن شعور التأثر والتألم تجاه مصرع الامام الحسين[٣] .. انما يرقى تاريخه الى عهد قديم في الاسلام او هو قريب العهد من الصحابة والتابعين لهم باحسان.. غير انه كان في أول امره محدودا جدا وصغير الحجم يقام بمحضر أخص الناس بالحسين كالاعلام من ذريته .. للتسلية والمؤاساة .. وللتخفيف عن لوعة المصيبة .

مظاهر العزاء لال البيت في العصر الاموي

وكما كانت الآفاق العربية يومها تردد صدى هذه الفاجعة المؤلمة[٤] .. وقسوة ما اقترفه الأمويين بآل الرسول في كربلا .. كانت العائلة النبوية تجدد ذكراها صباحا ومساءً في حزن عميق وشجن عظيم .. وتبكي عليه رجالاً ونساءً .. وكلما رأو الماء تذكروا عطش قتلاهم .. فلم يهنئوا بطعام ولا بمنام[٥] ..

وكان وجوه المسلمين والموالون لآل البيت يفدون على بيوت آل النبي بالمدينة معزين وماسين وكان الواحد منهم يعبر عن مشاعره واحزانه بابلغ

(٣) لقد كان مصرع الحسين أعظم مصيبة نزلت في الاسلام .. فلقد قتل من قبل عمر وعثمان وعلي .. وقتل في وقعتي الجمل وصفين جموع غفيرة من المسلمين ولكن ذلك لم يؤثر على المسلمين مثل ما أثرت شهادة الحسين. وقد أدت هذه المحنة الى تفرقتهم ولا يزالون الى هذا اليوم متفرقين .. وقد انقرضت دولة الامويين باسم الانتقام لهذا الحادث وانقرض العباسيون باسم اعادة الحقوق المغتصبة في الحادث نفسه . وقتل تيمور لنك أهل الشام انتقاما لدم الحسين .. — تاريخ العلويين — .

(٤) مر سليمان بن قته العدوي بكربلاء بعد قتل الحسين (ع) بثلاث فنظر الى مصارعهم واتكأ على فرس له عربية وانشأ يقول :

مررت على أبيات آل محمد فلم أرها أمثالها يوم حلت

ما اوتي من روعة القول وقوة البيان وحسن المؤاساة لهذه المصيبة ..حتى تركوا ثروة أدبية رائعة في أدب التسلية والمؤاساة ..

وبقيت بيوت آل البيت مجللة بالحزن والسواد ولا توقد فيها النيران .. حتى نهضت في العراق ثلة" من فتيانه الاشاوس ومن زعماء العرب الأقحاح أمثال المختار الثقفي وابراهيم بن مالك الاشتر النخعي وسليمان الخزاعي والمسيَّب الفزاري وغيرهم حيث أخذوا ثأر الحسين وقتلوا جميع قتلةِ الحسين أمثال ابن زياد وابن سعد وسنان وشمر وحرملة وغيرهم(٦) .. فخفت من ذلك لوعة الأشجان في بني هاشم .. وهدأ منهم نشيج الزفرات ونزيف العبرات .. فصارت المآتم منهم وفيهم تقام في السنة مرة بعد ما كانت مستمرة ..

ففي ذلك العهد ـ عهد السلف الصالح ـ يحدثنا التاريخ الاسلامى عن اعلام أهل البيت النبوي ، أنهم كانوا يستشعرون الحزن كلما هلّ هلال

ألم تر ان الشمس أضحت مريضة	لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا رجاء ثم أضحوا رزية	لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
وتسالنا قيس فنعطى فقيرها	وتغتابنا قيس اذا النعل زلت
وعند غني قطرة من دمائنا	سنطلبهم يوما بها حيث حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها	وان أصبحت منهم برغم تخلت
وان قتيل الطف من آل هاشم	أذل رقاب المسلمين فذلت
وقد اعولت تبكى السماء لفقده	وأنجمنا لمحت عليه وصلت

ومر ابن الهبارية الشاعر بعده بكربلا فجلس يبكى على الحسين (ع) وأهله وقال بديها :

احسين والمبعوث جدك بالهدى	قسما يكون الحق عنه مسائلي
لوكنت شاهد كربلا لبذلت في	تنفيس كربك جهد بذل الباذل
وسقيت حد السيف من اعدائكم	عللا وحد السمهري الذابل
لكننى اخرت عنك اشقوتي	فبلابلي بين الغري وبابل

ويقال نام مكانه فرأى النبي(ص) فقال له جزاك الله عني خيرا . ابشر فان الله قد كتبك ممن جاهد بين يدي الحسين (ع) عن المجالس السنية للسيد العاملي ج .

(٥) قالت فاطمة بنت علي بن أبي طالب «ع» ما تحنأت امرأة مناولا اجالت في عينها مرودا ولا امتشطت حتى بعث المختار برأس ابن زياد الى علي ابن الحسين «ع» . وقال الامام الصادق ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت

←

محرم .. وتفد عليهم وفود من شعراء العرب(٧) لتجديد ذكرى الحسين عليه السلام لدى ابنائه الاماجد . وقد القوا روائع في فن الرثاء والتسلية والتذكير باسلوب ساحر أخاذ ما ظل شعرهم خالداً رغم كرّ العصور .

فقد كان الشاعر العربي «الكميتُ بن زيد الأسدي» من شعراء العصر الاموي والمتوفى سنة ١٢٦ للهجرة قد جعل معظم قصائده في مدح بنى هاشم وذكر مصائب آل الرسول عليهم السلام .. حتى سميت قصائده « بالهاشميات » وكان ينشد معظمها في مجالس الامام الصادق وابيه الباقر محمد وجده علي بن الحسين عليهم السلام . ومن تلك القصائد التي القاها بين يدي الامام علي بن الحسين السجاد قصيدته المشهورة التي مطلعها :

من لقلب متيم مستهام ... غير ما صبوة ولا احلام
وقتيل بالطف غودر عنه ... بين غوغاء امةٍ وطغام
قتلوا يوم ذاك اذ قتلوه ... حاكماً لا كسائر الحكام
قتل الادعياء اذ قتلوه ... اكرم الشاربين صوب الغمام

ولا رؤي في دار هاشمي دخان حتى قتل عبيد الله بن زياد .. وكان الامام علي بن الحسين «السجاد» **شديد الجزع** كثير البكاء على شهداء الطف **يتذكر** قتلاهم في حزن عظيم .. فواساه يوماً مولاه أن يقلل من البكاء فأجاب : ويحك إن يعقوب بن اسحق كان نبيا وابن نبي له اثنى عشر ولداً .. **ففيب الله** واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن واحدودب ظهره من الغم وذهب بصره من **البكاء وابنه حي في دار الدنيا . واذا رأيت ابي واخي وسبعة عشر من اهل بيتي** صرعى مقتولين ثم رؤوسهم على القنا .. فكيف ينقص حزني ويقل بكائي .
المجالس السنيه للسيد محسن العاملي ج ١

(٦) روى ابن الاثير في الكامل عن الترمذي في جامعه انه « لما وضع رأس ابن زياد أمام المختار جاءت حية صغيرة فتخللت الرؤوس حتى دخلت في فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخره ودخلت منخره وخرجت من فيه .. فعلت هذا مراراً .. ثم **بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد الى علي بن الحسين (ع)** وكان يومئذ بمكة فأدخل عليه وهو يتغدى فسجد لله شاكراً وقال : الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من عدوي . وجزى الله المختار خيراً .. لقد أدخلت على ابن زياد وهو يتغدى ورأس أبي بين يديه .. فقلت اللهم لا تمتني حتى تريني رأس ابن زياد .. وكان قتل ابن زياد وأشياعه في يوم عاشوراء في اليوم الذي قتل فيه الحسين (ع) ولم يقتل من أهل الشام بعد وقعة صفين مثلما قتل في هذه الوقعة .. حيث قتل المختار منهم سبعين الفا .
المجالس السنية للسيد العاملي ج ١

ولهت نفسي الطروب اليهم ولها حال دون طعم الطعام

فما بلغ آخرها حتى قال السجاد له « ثوابك نعجز عنه .. ولكن الله لا يعجز عن مكافأتك .. فقال الكميت : سيدي ان اردت ان تحسن الي فادفع لي بعض ثيابك التي تلي جسدك اتبرك بها .. فنزع الامام ثيابه ودفعها اليه . ودعا له ..

ومن تلك القصائد قصيدته التي القاها في مجلس الامام الصادق والتي مطلعها :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

ولكن الى أهل الفضائل والنهي وخير بني حواء والخير يطلب

---

(٧) وذكر السيد الامين في كتابه المجالس السنية ج ١ فقال :

قال الامام الصادق لابي عمارة المنشد يا أبا عمارة أنشدني في الحسين بن علي قال فأنشدته فبكى ثم أنشدته فبكى ومازلت أنشده ويبكى حتى سمعت البكاء من الدار فقال : يا أبا عمارة من أنشد شعرا في الحسين بن علي عليهما السلام فأبكى فله الجنة ..

ودخل جعفر بن عفان على الصادق (ع) فقربه وادناه ثم قال يا جعفر بلغني أنك تقول الشعر في الحسين (ع) وتجيد فقال نعم جعلني الله فداك .. قال قل : فأنشده :

لابيك على الاسلام من كان باكيا فقد ضيعت احكامه واستحلت

غداة حسين للرماح دريئة وقد نهلت منه السوف وعلت

وغودر في الصحراء لحما مبددا عليه عتاق الطير باتت وظلت

فما نصرته أمة السوء اذ دعا لقد طاشت الاحلام منها وضلت

ألا بل محوا انوارهم بأكفهم فلا سلمت تلك الاكف وشلت

وناداهم جهدا بحق محمد فان ابنه من نفسه حيث حلت

فما حفظوا قرب النبي ولا رعوا وزلت بهم أقدامهم واستزلت

أذاقته حر القتل امة جده هفت نعلها في كربلاء وزلت

لا قدس الرحمن امة جده وان هي صامت للاله وصلت

كما فجعت بنت النبي بنسلها وكانوا كماة الحرب حين استقلت

فبكى الامام الصادق ومن حوله حتى انتشرت الدموع على وجهه ولحيته ثم قال : يا جعفر والله لقد شهدت ملائكة الله المقربون ها هنا يسمعون قولك في الحسين (ع) ولقد بكوا كما بكينا وأكثر ولقد اوجب الله تعالى لك يا جعفر في ساعتك هذه الجنة .. وغفر لك .. يا جعفر ألا أزيدك .. قال نعم يا سيدي .. قال ما من احد قال في الحسين (ع) شعرا فبكى وابكى به الا اوجب الله له الجنة وغفر له ..

الى ان يقـــول :

ومن أكبر الاحداث كانت مصيبةٌ علينا قتيل الأدعياء الملحَّب
قتيل بجنب الطف من آل هاشم فيالك لحما ليس عنه مذبّبُ
ومنعفر الخدين من آل هاشم ألا حبذا ذاك الجبين المترب

وقد نال هذا الشاعر الجوائز الكثيرة من أئمة آل البيت عليهم السلام حتى إنّ الامام الصادق اكرمه مرّة على قصيدة الف دينار وكسوة فقال الكميت والله ما احببتكم للدنيا .. ولو اردت الدنيا لاتيت من هي في يديه .. ولكني احببتكم للآخرة .. اما الكسوة فأقبلها لبركتها واما المال فلا أقبله.

ومثله الشاعر السيد اسماعيل الحميري احد الشعراء المشهورين في العصر الاموي فقد جعل معظم قصائده في آل البيت وفي هذا المصاب .. وقد دخل على الامام الصادق مرة يستأذنه ان ينشد له من شعره فاذن الامام له فانشد :

امرر على جدث الحسين وقل لأعظمه الزكيه
يا اعظما ما زلتِ من وطفاء ، ساكبة رويه
واذا مررت بقبره فأطل به وقف المطيه
وأبكِ المطهر للمطهر والمطهرة النقيه
كبكاء معولةٍ أتت يوما لواحدها المنيه

فما بلغ هذا الحد حتى اخذت الدموع من الامام تنحدر على خديه وارتفع الصراخ من داره .. فأمره الامام بالامساك فامسك .. ثم اوصله بهدية ثمينة ..

وهكذا كان الشعراء يقصدون مجالس آل البيت النبوي وسائر مجالس الهاشميين في هذا الموسم لالقاء خيرة ما نظموه حول هذا الموضوع على سبيل العزاء .. من مديح او رثاء .. وينالون عليه خير العطاء .

مظاهر عزاء الحسين في العصر العباسي

لقد كانت لمجالس الهاشميين دورها الفعال في جمع صفوفهم من الطالبيين والعلويين والعباسيين وانصارهم الموتورين من الحكم الاموي

القائم .. وتنظيم الحملة ضدهم وانطلقت الالسنة باعادة الحكم لآل هاشم وتقاضي الحكم الجائر .. وقد حدثنا التاريخ الاسلامي .. ان تأسيس الدولة العباسية كان قائما على دعوة الهاشميين على اساس الثأر النهائي لقتلى الطف والانتقام للعلويين بالقضاء على الامويين .. وكان الشعراء لم يدعوا فرصة تفلت أو مناسبة تمر إلا وذكروا بهذا الثأر ، الى ان هيىء الله لهم ذلك ومكنهم من الامر وقضوا على الحكم الاموي وتربع ابو العباس السفاح على الحكم كاول خليفة هاشمي .. يذكرنا التاريخ بوليمته المشهورة التي حضرها ثمانون رجلاً من عيون الامويين وهم على سمط الطعام فدخل شبل مولي بني هاشم على السفاح فانشد في الحال قصيدته المشهورة والغيظ قد اخذه :

اصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
انت مهدي هاشم وهداها ... كم اناس رجوك بعد اناس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... وارمها بالمنون والاتعاس
واذكرن مصرع الحسين وزيداً ... وقتيلاً بجانب المهراس

فقام السفاح في الحال مغتاضا وقتلهم جميعا ثم اباد الامويين عن آخرهم .. وهكذا اتسع المجال امام الشعراء في رثاء آل البيت النبوي وذكر مصابهم في قتلى الطفوف .

ومن هؤلاء الشاعران المشهوران دعبل بن علي الخزاعي وابراهيم بن العباس اللذان قصدا من بخراسان .. فقدم الاول على الامام الرضا(١) علي بن موسى بن جعفر ايام ولاية عهده في خلافة المأمون العباسي ٢٠٣ للهجرة فأنشد قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها(٢) :

---

(١) قال الامام الرضا «ع» كان أبي اذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكا .. وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي العشرة الاولى من محرم فاذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه ..
عن المجالس السنيه للسيد العاملي رحمه الله ـ ج١ـ

(٢) قال دعبل الخزاعي دخلت على سيدي ومولاي علي بن موسى الرضا (ع) في أيام عشر المحرم فرأيته جالسا جلسة الحزين الكئيب وأصحابه من

تجاوبن بالأنـاة والزفرات .. الى ان يقـول :

مدارس آيات خلت من تـلاوة ومنزل وحي مقفـرِ العرصات
افاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقدمـات عطشانا بشط فرات
إذن للطمتِ الخد فاطـم عنده واجريتِ دمـع العين بالوجنات
افاطم قومي يا ابنةالخير واندبي نجوم سماوات بأرض فـلات
ديار رسول لله اصبحن بلقعـا وآل زيادٍ تسكن الحجرات ..الخ

وقد اجازه الامام الرضا « بعد ان بكى هو وأهله » بعشرة آلاف درهم من المسكوك باسمه الكريم . وخلع عليه جبته .. فكان هـذا خـير رمـز للتقدير والأعجاب .. وقد اشترى القميون « الجبة » من دعبل اثنـاء عودته الى العراق بالفِ دينـار .

وهكذا زميله الشاعر ابراهيم بن العباس[1] فقد انشد الامام الرضا (ع) قصيدته الدالية المشهورة التي يقول في مطلعها :

ازال عزاء القلب بعـد التجلد مصارع اولاد النبي محمـد

فأكرمه الامام بمثل ما اكرم به زميله الخزاعي .

وكانت جوائز أئمة آل البيت النبوي في هذا المجال مشهورة بالسـخاء والبركة حتى ذهبت مثلا « ما بلغت صرة من موسى بن جعفـر لاحـد إلا استغنى » لذلك كان الشعراء يتفننون في هذا الباب الى جانب تأثرهم بروعة فاجعة الطف وفضاعة وقعها .. وكذلك تأثروا باقوال أئمة أهل بيت النبي

حوله فلما رآني مقبلا قال لي « مرحبا بك يا دعبل مرحبا بناصرنا بيده ولسانه .. ثم انه وسع لي في مجلسه .. وأجلسني الى جانبه ثم قال لي يادعبل احب ان تنشدني شعرا فان هذه الايام أيام حزن كانت علينا أهل البيت وايام سرور كانت على اعدائنا خصوصا بني أمية .. يا دعبل من بكى أو أبكى على مصابنـا كان أجره على الله .. يا دعبل من ذرفت عيناه على مصاب جدى الحسين عليه انسلام غفر الله له ذنوبه .. ثم نهض (ع) وضرب سترا بيننا وبين حرمـه وأجلس أهل بيته من وراء الستر ليبكوا على مصاب جدهم الحسين (ع) ثـم التفت الي وقال لي يا دعبل ارث الحسين فانت ناصرنا مادمت حيا قال دعبل فاستعبرت وسالت عبرتي وانشأت أقـول :

أفاطم لو خلت الحسين مجـدلا وقد مات عطشانا بشط فـرات

(١) روى الصدوق في «العيون» عن البيهقي عن الاصولي عن هارون بن عبدالله المهلبي : انه لما وصل ابراهيم بن العباس ودعبل بن علي الخزاعي الـى

في شأن من يرثي الحسين .. وماله من فضيلة عندالله سبحانه .. فقد قال الامام جعفر الصادق لجعفر بن عفان : « ما من احد قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى به إلا أوجب الله له الجنة وغفر له .. »

وهكذا كان الشعراء يتبارون في الرثاء والمؤاساة والابداع فيهما بهذه المناسبة . في مجالس آل البيت النبوي ومجالس الطالبيين . وما من شك ان هذا العزاء كان فيه العزاء لكل مظلوم وكل ذي حق مهضوم باعظم السلوان تأسياً بالحسين عليه السلام .

وكما كان في هذا العزاء عرض لتلك المآساة فانه لم يخل من قرض لجور الحاكمين وتعريض لضروب الظلم الذي اصاب آل البيت النبوي منهم وتهديد الظالمين بالعاقبة الوخيمة لفتكها باعلام بيت النبوة .. وما ناله الظالمون من سوء المنقلب كل ذلك على لسان الشعراء والخطباء وفي اروع اسلوب مما كان له اثره في جذب النفوس وتقوية القلوب .. حتى قال احد الشعراء :

تالله ما صنعت امية فيكم معشار ما صنعت بنو العباس

وكانت السلطات الحاكمة يومها وفي فترة من الزمن وراء هذه المجالس تطارد الملقين وتفتك بالحاضرين ولقي الموالون لآل البيت من الشدة ضروب العذاب .. وأتلفت معظم تلك القصائد والاشعار وغيرها من الآثار ذات العلاقة بالامام الحسين عليه السلام . ولو كانت باقية لكانت ثروة أدبية رائعة عن تلك الفترة .

وقد وصف ابن الاثير حوادث دموية مسببة عن ذكرى عزاء الحسين عليه السلام جرت بصورة فضيعة بين الحزب المتشيع لآل البيت وبين الحزب المخالف له ببغداد عاصمة الهاشميين يوم ذاك .. كانت تتسع وتتقلص حسب لون السياسة الحاكمة واجتهاد الحكام ذهبت بسببها ضحايا كثيرة لا لشيء

الرضا(ع) وقد بريع له بولاية عهده انشده دعبل: مدارس آيات خلت من تلاوة .. الخ وانشد ابراهيم بن العباس قصيدته « أزال عزاء القلب بعد التجلد ..الخ» فوهب لهما عشرين ألف درهم من الدراهم التي عليها اسمه وكان المأمون قد أمر بضربها في ذلك الوقت .. دعبل ذهب بالعشرة الاف التى حصته الى قوم فباع كل درهم بعشرة دراهم . فحصلت له مائة الف درهم . وأما ابراهيم فلم تزل عنده بعد أن أهدى بعضها وفرق بعضها على أهله الى أن توفي رحمة الله عليه .. فكان كفنه وجهازه منها ـ مجلة المرشد .

سوى التعصب الممقوت . وبسبب الجهل بمكانة آل البيت من الرسول .. وعدم تقديرهم لشعائر الود والمحبة لصاحب الرسالة وأهل بيته .

وكان « عزاء الحسين » رغم جميع هذه الاحوال قائما كل عام في موسمه من محرم الحرام وانما يختلف تقلصا واتساعا حسب الظروف ولكنه في جميع الاحوال كان يزداد تمكنا في النفوس واستقراراً في القلوب.. وكان للشعراء لفضل الأكبر في تقوية هذا العزاء وجذب القلوب اليه .. بقصائدهم الغر في تصوير مصاب الحسين وأهل بيته .. حتى ان غالبية الموالين لآل البيت كانوا لا يحفلون بقسوة الحكام قدر اهتمامهم للحضور الى مجالس العزاء كائنا ما يكون المصير ..

مجالس النياحة لعزاء الحسين

ولما توسع التشيع وخفت وطأة السلطات المعادية التي اتلفت معظم تلك القصائد والآثار .. صار الموالى لآل الرسول (ص) يقيم ذلك العزاء باسم « النياحة » أو الرثاء بمشاهد الائمة من عترته او بمحضر من يوثق بتشيعه وموالاته .. ومما يجدر ذكره انه لم يكن في القرن الاول أي القرن الذي قتل فيه الحسين أثر ولا عين من جماعة أهل العزاء سوى الراثين والنائحين في بيوت أهل البيت النبوي فقط وكذا الحال في القرن الثاني .. الى ان ظهر في القرن الثالث اسم النائح علما لمن يرثي الحسين ويقرأ الشعر على حسابه .. ويقيم النياحة عليه من أمثال دعبل الخزاعي الى علي الناشيء الاصغر ..

فاصبحت المجتمعات تنعقد باسم « النياحة على الحسين » على ما هم فيه من التستر فيبكون على مصاب الحسين وينوحون عليه بقريض ينشؤه او ينشده الناشد ويسمى « النائح » ويذكر المؤرخان الشهيران ياقوت الحموى في معجمه[1] وابن خلكان في وفياته قضية الناشيء الأصغر علي الشاعر

---

(١) جاء في ترجمة علي بن عبدالله الناشيء «حدثني الخالع قال كنت مع والدي في سنة ٢٤٦هـ وانا صبي في مجلس الكبوذى في المسجد بين الوراقين والصاغة .. وهو غاص بالناس واذا برجل قد وافى وعلاه مرقعة وفي يده

المشهور ومجالس النياحة على الحسين .. وفيها ما يدل على ان هذه المجتمعات كانت تنعقد في ذلك الزمن باسم « النياحة على الحسين » . وليس هـذا في العراق فحسب بل في الحجاز وبلاد فارس . ومصر ..

ثم تطورت مجالس العزاء عقب النياحة بقراءة المقاتل لابن نما وابن طاووس ونحوهما فسموا بالقرآء أو قارىء الحسين لا يزالون يعرفون حتى اليوم بهذا الاسم في بلاد العرب ..

بدء المواكب والحسينيات

وقد سجل التاريخ اهتمام معز الدولة البويهي وسائر الملوك البويهيين

سطيحة وركوة ومعه عكاز وهو شعث . فسلم على الجماعة بصوت مرتفع وقال: يا رسول فاطمة الزهراء صلوات الله عليها .. فقالوا مرحبا بك واهلا ورفعوه فقال : اتعرفون لي احمد الناشح ؟ قالوا ها هو جالس .. فقال : رايت مولاتنا عليها السلام في النوم فقالت امض الى بغداد واطلبه وقل له نح على ابنى شعر الناشيء الذي يقـوله فيـه :

بني احمد قلبي لكـم يتقطـع بمثل مصابي فيكم ليس يسـمع

وكان الناشيء حاضرا فلطم لطما عظيما على وجهه وتبعـه الزوق والناس كلهم .. وكان اشد الناس في ذلك الناشيء ثم المزوق ثم ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم الى ان صلى الناس الظهر وتفوض المجلس وجهدوا بالرجـل ان يقبل منهم شيئا فقال : والله لو اعطيت الدنيا مـا اخذتها . فانني لا ارى ان اكون رسول مولاتي عليها السلام . ثم اخذ عن ذلك عوضا وانصرف ولم يقبل شيئا .. قال ومن هذه القصيدة وهي بضعة عشر بيتا ..

عجبت لكم تفنون قتلا بسيفكم ويسطوا عليكم من بكم كان يخضع
كان رسول الله اوصـى بقتلكم واجسـامكم في كـل ارض توزع

قال : وحدثني الخالع قال اجتزت بالناشيء يوما وهو جالس في السراجين فقال لي قد عملت قصيدة وقد طلبت وأريد ان تكتبها بخطك حتى اخرجهـا فقلت امضى في حاجة اوعود . وقصدت المكان الذي اردته . وجلست فيـه فحملتني عيني . فرأيت في منامي ابا القاسم عبدالعزيز الشطرنجي الناشـح فقال احب ان تقوم فتكتب قصيدة الناشيء البائية . فانا قد نحنا بها البارحة بالمشهد .. وكان هذا الرجل قد توفى وهو عائد من الزيارة .. فقمت ورجعت اليه وقلت هات البائية حتى اكتبها .. فقال الناشيء ومن اين علمت انها بائية وما ذكرت بها احدا فحدثته بالمنام فبكى وقال لاشك ان الوقت قـد دنـا فكتبتها وكان مطلعهـا :

رجائي بعيـد والممـات قريب ويخطىء ظني والمنون نصـيب

ـ عن مجلة المرشد ـ

في الدولة العباسية ببغداد عام ٣٥٢ هجرية بشأن اقامة مآتم الحسين وابرازها في هيئة مواكب خارج البيوت .. فكانت النساء يخرجن ليلا ويخرج الرجال نهارا .. حاسري الرؤوس حفاة الاقدام .. تحيتهم التعزية والمؤاساة بمأساة الحسين (ع) ولا تزال هذه العادة الى الآن في مدن العتبات المقدسة في العراق وايران . وبعد ما دالت الايام بالدولة الى آل محمد واتباعهم سواء في حكومة الفاظميين في مصر ايام المعز لدين الله الفاطمي أو في حكومة الحمدانيين في حلب ايام سيف الدولة الحمداني أو في حكومة الصفويين في ايران أو ملوك في ممالك اخرى من بلاك الترك والهند . انشأ للنياحة بيوت احزان في كل مكان لتعازي الحسين سميت عند العرب « بالحسينيات » كما سميت عند الهنود بـ « امام بان »[1] وعند الفرس والترك « بمأتم سراي » كما كانت تسمى هاتيك المجالس « بالمئآتم » او «تعازي الحسين» وخصصت لها اوقات وصدقات جارية لا يستهان بها وبارباحها الوفيرة ..

فأخذ العزاء الحسيني دورا متسع النطاق في ظل عناية الهيئات الحاكمة .. ونال الموالون لآل البيت كل حريتهم في اظهار رغباتهم وشعائرهم .

فالناظر اليها لاول وهلة يخالها تشكيلات تولدت من عهد الملوك الصفوية أو هي من مستحدثات الاعاجم .. لكنما المتصفح لكتب التاريخ والآثار يجد لهذا الأمر ادوارا أو اطواراً في عصور سابقة على العصر الصفوي .. وفي أمم لا مساس لها بالعجم .. بل هي من غروس العراق القديمة وأشجارها الصلبة التي تبعت في ضفاف الرافدين قبل اية امة اخرى .. ثم تسربت وامتدت الى الامم الأخرى ..

وكل من جاب عواصم الامم الاسلامية وغير الاسلامية يرى في الكثير منها ان لم يكن فيها كلها سيما المجتمعات الموالية لآل بيت الرسول .. المباني الضخمة التي خصصت لاقامة هذه المجالس في هذا الموسم لاحياء ذكرى شهيد الحق الامام الحسين عليه السلام ..

---

(١) الدلائل والمسائل ج١ للسيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني جواب عن تاريخ العزاء الحسيني .

اهتمام الاقطار الاسلامية بعزاء الحسين

وهكذا اصبح المسلمون في اليوم العاشر من محرم كل عام يحتفلون بذكرى « عاشوراء » احياءً لذكرى شهيد الطفوف الامام الحسين عليه السلام في جميع الاقطار الاسلامية .. ويعتبر هذا اليوم عطلة رسمية لدى معظم هذه الدول ويشترك كثير من رؤساء الدول الاسلامية في مراسيمه .

وحين تمر هذه الذكرى بالمسلمين سواء في العشرة الاولى من محرم أو في اليوم العاشر منه فانها تغمر غالبية العالم الاسلامي بموجة من الأسى ويخيم عليه سحاب من الحزن ، كأن الامام الحسين قد قتل حديثا وكأن أشلاء آله وانصاره .. لا تزال على منظرها المؤلم فوق تلك الترب وكأن دم اولئك الضحايا من الشهداء لم يزل يفور على تلك الارض .. فيثير في نفوس المسلمين كل تلك المشاعر والاحزان .. مما جعلت معظم الحكومات العربية والاسلامية ان تحافظ على حرمة هذه المناسبة .. وتلاحظ شعور المسلمين نحوها .. ومن اجل ذلك تصدر اوامرها بغلق دور اللهو واللعب وحانات الخمور والشرب والمسارح وامثالها مما تحمل طابع اللهو والطرب .. كما تقلص على غرارها ما في برامج الاذاعة والتلفزيون خلال العشرة الأولى من محرم ببرامج تتسم بالطابع الديني والروحي والعلمي مجرداً من كل اسباب اللهو والطرب .. كل ذلك رعاية لشعور المسلمين واحتراما لمكانة هذه الذكرى . كما هو الحال في العراق وايران وفي الهند والباكستان وعديد من الدول الاسلامية الاخرى .

والمسلمون اذ يحتفلون بهذه الذكرى الدامية ببالغ الأسى وعظيم الالم .. انما يشيدون فيها على موقف الامام الحسين في ساحة الطف ويمجدون مواقف آله واصحابه وما قدموه في ذلك الموقف من جسيم التضحية وعظيم البسالة التي أدهشت الاجيال واذهلت التاريخ ..

ثم إذ يعبرون في احيائهم لهذه الذكرى الدامية عن شعورهم نحو الامام الشهيد فانهم يختلفون في هذا التعبير حسب معتقداتهم فيه وفي حركته واستشهاده .. وباختلاف مداركهم وعاداتهم .

فمنهم من يعتبره عيداً مجيداً لان الفضيلة فيه قد انتصرت على الرذيلة وان الامام الحسين بموقفه ذاك من يزيد قد أسند تعاليم جده سيد الرسل .. وجدد مجد شريعته السمحاء .. كما هو الحال لدى المسلمين في الشمال الافريقي والمغرب العربي الذين يعتزون بهذه الذكرى .

ومنهم من يندفع مع العاطفة الى ايلام نفسه وايذائها بمختلف الوسائل والاساليب كضرب نفسه بالسلاسل أو بالتطبير ظنا منه ان هذا النحو من الايذاء لمن دلائل المواساة او الاقتداء بؤلائك الشهداء .. كما هو الحال في بعض انحاء العراق وايران والهند والباكستان ..

عزاء الحسين في امريكا الوسطى

ومنهم من يحصرها في هودج كبير ضخم كما هو الحال في[1] امريكا الوسطى وفي مدينة بورت أو اسباين عاصمة في جزيرة ترينيداد الواقعة في البحر الكاريبي من شمال امريكا الجنوبية حيث يزين المسلمون هذا الهودج بالذهب والفضة وبازهى الالوان الوهاجة واحلاها ويشترك المسيحيون والهنود مع المسلمين في احتفالاتهم العظيمة بيوم عاشوراء في مسيرة عظيمة في طليعتها هذا الهودج الفخم .. وتسير الجماهير وراءه تحف بها الطبول وآلات الموسيقى بانغامها الحزينة تطوف شوارع العاصمة وبين تعالي العويل والهتاف بحياة الحسين عليه السلام سيد الشهداء في ذكرى مصرعه يلقى بالهودج الى البحر الصاخب فتحمله الامواج الى الاعماق الزرقاء المجهولة ..

(١) من مجلة الاسبوع العربي في عددها ٥١٥ من السنة العاشرة بتاريخ ٢١-٤-١٩٦٩ بقلم بهجت منصور .

ويعود الجميع الى مجالس العزاء بذكرى الحسين عليه السلام .. وأغلب الظن ان هذه الظاهرة انتقلت الى هذه الجزيرة مع الهنود المسلمين .. حيث يمارسون على غرارها في الهند تعبيراً عن عواطفهم نحو هذه الذكرى ..وعلى هذا النحو في معظم الاقطار الافريقية والاسيوية يعبر المسلمون عن مشاعرهم حسب تصورهم ومعتقداتهم في هذه المناسبة ..

ومنهم من ينحو بها كعرض لذلك المسرح الحزين يوم الطف بالمنطق الرزين .. وبارق الاساليب الاخاذة بالمشاعر مستوحين من قدسية ذلك اليوم التاريخي ضروب العبر وانواع البطولة والايمان بالحق .. فينتزعون من ذكراه اروع الصور وأبلغ الدروس ، واسمى العظاة . وإن كانت منهم مجرد سرد وترديد ..

عزاء الحسين في مدن العتبات المقدسة

والى جانب ما تقدم تلبس مدن العتبات المقدسة في العراق وايران والمساجد المهمة والاماكن المتبركة في الهند والباكستان وغيرها من الاقطار والمناطق التى يتعصب أهلها في الحب والولاء لآل البيت النبوي حلة من السواد كشعار للحزن والحداد .. وتبتعد عن مظاهر الزينة والبهرجة ومباعث الانس والانشراح ..

هذه هي الحالة في العشرة الاولى من شهر محرم الحرام عند المسلمين بالنسبة لهذه الذكرى ان لم يكن الشهر كله من كل عام ومن الاقطار الاسلامية كالعراق وايران والهند والباكستان الى ما بعد العشرين من صفر حيث تستكمل هذه الذكرى يومها الاربعين . ولها زيارتها الخاصة ومراسيمها المختصة في كربلا بالعراق .. حيث يؤمها اكثر من مليون زائر في يوم واحد لزيارة قبر الحسين والطواف حول ضريحه في ذكرى اربعينه .. وتطوف المواكب الزاخرة حول مشهده لليمن والبركة .

ومما تجدر الاشارة اليه على اثر تطور العزاء الحسيني واتساعه عن

طريق اللطم والضرب بالسلاسل وما اليها وما اظهره شباب الكاظمية عام ١٣٦٠ هـ اي ١٩٤١ الى المرحوم الوالد السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني من تأثرهم لهذا التطور المشين والذي يكمن وراءه من الاضرار بهذا العزاء وبأهداف سيد الشهداء .. فاقترح عليهم تطويره الى اقامة حفلات وقصائد تشيد بالذكرى وتؤبن شهداءها وتبنى هذا الامر لعدة سنوات ساهم فيها كثير من اعلام القطر واساتذة الجامعات وقادة الرأى وشباب البلد من شعراء وخطباء كان لها اكبر الأثر في جذب النفوس اليها .. ساهمت بنقل هذه الحفلات حية عبر الاثير عن طريق الاذاعة من صحن الامامين الكاظمين صبيحة العاشر من محرم من كل عام وكان يحضرها عشرات الآلاف من المستمعين الى جانب الهيئات الرسمية وممثلى الدول الاسلامية مما اعطت اروع صورة محترمة عن هذه الذكرى الى المستمعين وكان الشعراء والخطباء يتبارون في الرثاء والابداع فيه مما تغذى الفكر الاسلامي والشعر العربي باسلوب لم يكن من قبل .. وتوجيه الرأي العام الى اسرار نهضة الامام الحسين والعوامل النفسية والروحية التي حملته للصمود والاستشهاد .. مما تركوا خلال عدد من السنين ثروة فكرية وأدبية رائعة في « أدب الطف » كانت ولا تزال مثار الاعجاب والتقدير ..

عزاء التشابيه والتمثيل

وهناك لون آخر من العزاء الحسيني المسمى « بالشبيه » وقد ظهر بادىء الامر في القرن العاشر الهجري على هيئة حصان مغطى بكفن مدمي وفيه بعض النبال يتقدم مواكب اللطم كأنه حصان الحسين (ع) بعد المعركة .. ثم توسع الى خيول متعددة على نفس الشاكلة ترافق المواكب .. ثم ظهرت شخصيه الحر الرياحي ومعه بعض قادة الجيش الأموي برفقه هذه الخيول امام المواكب .. وظهرت شخصية الامام علي بن الحسين السجاد في حالة رجل عليل مكبل بالاغلال على صهوة جواده وسط الموكب يوم الاربعين

٢٠ من صفر يردد ما قاله حين دخل المدينة .. والناس تلطم من فرط التأثر لمشهده .. ثم تطور بالتدريج الى ظهور الهوادج والنساء فيها كأنهن السبايا عائدين من الشام عبر العراق الى المدينة ويمرون بارض الطفوف في كربلا يوم زيارة الاربعين .. والجماهير الغفيرة تلطم متأثرة من هذا المنظر المفجع يتذكرون الموقف نفسه .. ثم تطور هذا العزاء بتوالى السنين بظهور اشخاص يتقمصون دور اصحاب الحسين وعدد من آل الرسول يتقدمون مواكب العزاء ومعهم شبيه قادة الجيش الاموى .. وفي اواخر القرن الثاني عشر واوائل الثالث عشر الهجري برزت شخصية الحسين وسط الشبيه تتقدم موكب العزاء ومن خلفه شخصية اخيه العباس .. وارادت بعض الهيئات الدينية تحريم هذا اللون من العزاء وصدرت رسائل من بعض العلماء بحرمتها ومن بعضهم بجوازها واستحبابها .. ولا شك ان الرأى العام المتأثر بهذه المسيرة قد وقف في وجه تحريمها وحال دون ذلك . خاصة وانشخصية الحسين والعباس كانت تعهد الى من يتمتع بسمعة طيبة وخلق محمود ومن سلالة الرسول وذلك قطعا لموارد التحريم[1] ..

---

(١) وتتقدم المواكب السيارة عبر الشوارع في عاشوراء الحسين فرقة من الطبالة تقرع قرعا خاصا يلفت الانظار تتبعها الخيول المحلات باكسية من الحرير مذهبة الاطراف وعليها الحمائل النفيسة المزينة بالاضواء الكهربائية وفي جبهة الحصان مصباح يتقد وينطفىء كلما حرك الحصان راسه .. وعلى راسه ريشة طويلة مضيئة .. ثم تشابيه موكب آل النبي في كربلا وهم على الخيول مما تؤثر مظاهرها في قلوب العوام آثار الحزن والاسى وتثير البكاء لدى البعض عدا البعض من هذه التشابيه والتماثيل التي تلتف حول موكب الحسين من حملة الابواق ويسمون « اصحاب زعفران الجني » وهم عدة من الصبية والمجاهيل يلبسون طرابيش طوال فوق طول الذراع من الورق السميك الملون بالاحمر والاصفر ويصبغون وجوههم بالوان مختلفة ويلبسون البسة حمراء او صفراء وبيد كل واحد بوق طويل ينفخون باصوات منكرة ويمشون قفزا حول موكب الحسين ممثلين في تصرفاتهم الجن الذين يزعمون انهم قد اتو لنصرة الحسين (ع) وقد استنكف كثير من علماء الشيعة وعلماء اهل السنة من بعض هذه التشابيه والتماثيل لانها التزام بما لم ينص عليها الشرع الحنيف . واستنكرها الكثيرون لما اشتغل قسم منها على مايخالف العقل والاقتصاد.. وقد ازداد التنديد على هذه العادات مؤخرا من قبل المثقفين وخريجي المعاهد الغربية والمتاثرين بالثقافة الحديثة لا من جهة مخالفة هذه الاعمال لجوهر الشريعة .. وانما لمخالفتها للاقتصاد العام وصرف الاموال الطائلة بلا طائل ..

وتطور موكب «الشبيه» الذي كان يأخذ مسيره عبر الشوارع والطرقات ومن وسط الجموع الغفيرة من المشاهدين الى الساحة الرئيسية في المدينة أو الى وسط الصحن في المراقد المتبركة حيث تجرى هناك صورة مصغرة لتلك المعركة التاريخية .. وبتوالي السنين توسع هذا اللون من العزاء الى اقامة صرح له وسط الصحن أو الميدان وبجواره خيام تمثل خيام أهل البيت .. وتجري امام الحشود الحاشدة من عشرات الآلاف من الناس الذين حضر معظمهم من يوم سابق لاتخاذ مكان له للمشاهدة .. تجري أمامهم في يوم العاشر من محرم ما جرى يوم العاشر في كربلا بين الجانبين الهاشمي والاموي من تبادل الخطب والكلمات نصا وروحا .. وتوسع عدد المشتركين في « الشبيه » من كلا الجانبين بحيث شمل معظم اعلام المشتركين في يوم عاشوراء .. وكل يؤدي دوره امام الجموع طبق الاصل كما جرى يوم الطف في كربلا .. الى ان تنتهي المعركة بمقتل افراد آل البيت من اصحاب الحسين واحدا اثر واحد من قبل الجيش الاموي اثر معركة تتسابق فيها الخيول وسط الميدان أو الصحن حتى ينتهي بانفراد الحسين واتمامه الحجة عليهم بخطبه واقواله والنبال تنهال عليه من كل جانب ثم حرق خيام أهله أمام عينيه بعد قتل جميع اصحابه وبالتالي مصرعه .. وآلاف المسلمين يشهدون هذا المشهد الرهيب في تأثر بالغ وتتابع ملحوظ .. ثم قيام قادة الجيش الاموي المنتصر بسوق سبايا النساء من آل البيت مشدودات بالحبال على ظهور الخيول متربات الوجوه يتقدمهم الامام العليل « علي بن الحسين » الوحيد الباقي من رجال الحسين لشدة مرضه وعدم اشتراكه في القتال يومذاك .. ومنظره مكبلا على جواده مترب الرأس يتقدم الاسرى بعد انتهاء المعركة وخلفه اسرى آل البيت ثم الهوادج محملة بامتعة الجيش الاموي الى جانب

ومخالفتها لاصول حفظ الصحة بالجرح والادماء وايذاء الصدور والعيون، وشج الرؤوس بلا مسوغ وداع مضافا الى مخالفتها لتطور هذا العصر ، ومخالفة قسم منها للاداب المتعارفة الى غير ذلك من الامور التى حملت الكثيرين من الشيعة وغير الشيعة على انتقاد هذه الاعمال ، وحملت صحف كثيرة عربية وفارسية وهندية حملات عنيفة ضد هذه العادات التي جلبت ازدراء الاجانب الى اسم الشيعة وتطاولهم بلهجات مشينة على رد القائمين بهذه الاعمال .. الخ من مذكرات السيد هبة الدين الحسيني عن عزاء الحسين ـ

غطرسة قادة الجيش معهم لمنظر مثير للاشجان .. ويستغرق عرض هذا المشهد التمثيلي عدة ساعات من ضحى العاشر الى ما قبل الغروب .. والناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم في هذا المشهد وكأنهم يعيشون في تلك المعركة وعلى مقربة منها ..

وكانت الهيئات الرسمية في العراق وايران والهند والباكستان تحضر هذه التعازى وتشهد ما يجري فيها .. كل عام .. وتتخذ كافة الاحتياطات الامنية فيها حتى تنتهي هذه المراسيم بسلام ..

وفي سنة ١٩٣٦ وعلى اثر حدوث اصطدامات دموية اصدرت وزارة السيد ياسين الهاشمي في العراق امرا بمنع اقامة التشابيه ومواكب السلاسل والتطبير منعا باتا .. ومنع لعدة سنوات وان كان التطبير وضرب السلاسل كان يجري في ظروف محصورة ومقلصة .. الا ان الجهات الرسمية عادت في سنة ١٩٤٧ فسمحت لمواكب التطبير بالظهور[1] وكذلك مواكب الضرب بالسلاسل .. وتوسع الامر وشمل مواكب الشبيه حيث اخذت بالظهور من سنة ١٩٥٢ في العراق .. ومع توالى السنوات توسعت واخذ « الشبيه » شكله الموسع في السنوات الاخيرة .. في مختلف انحاء العراق الى جانب الاقطار الاسلامية المذكورة ..

مجالس العزاء الحسيني

هذا وتواصل مجالس العزاء الحسيني خلال شهري محرم وصفر[2] في مدن العتبات المقدسة وغيرها حيث تجذب هذه المجالس الى ساحتها

---

(١) لقد ساهمت الحكومة في بعض السنوات يومها في تمويل مواكب التطبير بالاقمشة واطوال الخام ومساعدة المشتركين في التطبير وفي بعض الاحيان كما حصل في كربلا كان مدير الشرطة فيها السيد صالح حمام يشترك في عملية التطبير للافراد وتوجيه مسيرتهم .. الخ .. ومثله في المدن الاخرى .

(٢) وتقام مجالس العزاء الحسيني اضافة على شهري محرم وصفر في شهر رمضان وذلك في لياليه وفي سائر ايام السنة على سبيل النية والنذر لحاجة من الحاجات قضاها الله فيقيم صاحبها مجلس عزاء ليوم واحد أو لثلاثة أيام أو لاسبوع أو عشرة ايام أو اكثر حسب ماتوى وتوزع فيها الخيرات للفقراء والمساكين وكثيراً ما ترافق مجالس العزاء الحسيني اطعام أو خيرات للحاضرين اليها .

كالمغناطيس شتات المسلمين اخوانا على سرر متقابلين تصف اجنحتها حول منبر يرتقي عليه الخطيب فيفتتح الكلام بآي من الذكر الحكيم وتفسير علومها من احاديث الرسول الكريم .. ثم يتلو ذلك بفصول من التاريخ الاسلامي أو تواريخ الرسل السالفين .. ويختم كلامه بتاريخ الحسين وما جرى عليه وعلى آل بيت المصطفى صلوات الله عليهم[٢] .. ولابد ان يتخلل هذه الخطابة وعظ وانذار وتلطيف القرائح بلطيف الأشعار مما يجعل مجلسهم هذا أشبه بمدرسة علم أو مجمع تهذيب .. ودروسها ما يهم المسلمين من أمور الدنيا والدين .. اللهم إلا بعض الجاهلين ممن يتولون الخطابة بغير علم ولا هدى وممن لا يجتنبون قول الزور فيذهبون بذلك الى سرد احاديث ما انزل الله بها من سلطان بغية اثارة الاشجان في نفوس المستمعين لمصاب الحسين (ع) استدراراً للأكف واستجلاءً للمنافع ..

وهكذا الحق بهذا العزاء وضمن تطوراته طوال السنين كثير من الغرائب شأن كل قضية فازت بقوة النمو في منبت خصيب وتربة صالحة .. مما يحتم على أهل العلم ان ينظروا الى تعديله أو اجراء اصلاح فيه .. خاصة ونحن اقرب الامم الى حادثة الطف مكانا وشأنا .. واوفر حرية من غيرنا واقدر .. لذلك يلزم على أعلامنا أئمة الهدى وشيبنا وشبابنا رسم الخطة الصالحة لاقامة هذه الذكرى الكريمة خالية من الشوائب ومما يسيء أو يشين .. وان نستر بها على أحسن وجه ونهج .. خدمة للأمة وتوجيها للجيل .. وعسى ان تحذوا حذونا شعوب مسلمة أخرى فتنال اجزل النفع .. ولعلنا بهذا نحقق بعض آمال الحسين من نهضته وتضحيته ..

والله المستعان على ما نبتغي ونريد .

بغداد ١٣ محرم الحرام ١٣٨٩ — جواد هبة الدين الحسيني
١ نيسان ١٩٦٩ — الشهرستاني

---

(٢) ومنهم من يتخذ يوم عاشوراء يوم عيد وفرح وسرور .. وانها لسنة اموية وقد اتبعها جهلا بالحال .. والا فلا يظن بمسلم ان يفرح في يوم قتل فيه ابن بنت نبيه الذي لو كان حيا لكان هو المعزى به والباكي عليه ..

كلمة الناشر للطبعة الثانية

كان الناس بحاجة ماسة في قضية « الطف » الى أصل تاريخي يرجعون اليه ليقفوا على أسبابها الأصلية والفرعية .. فطلع عليهم هذا الكتاب الجليل حوالي سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق لسنة ١٩٢٥ ميلادية . وما كاد ينتشر خبر طلوعه إلا وقد تهافت الناس عليه لاعتماده على أوثق المصادر، وأصدق الآراء، وأصح الروايات .. وأقبل عليه رُوّاد الحقائق ووراداها يرتشفون من منهله الصافي .. اذ وجدوا فيه الضالة المنشودة .. فقرظه الأدباء ونوّه به الخطباء وترجم له المترجمون والكتاب .

أجل لقد فتح هذا الكتاب على الكتاب والخطباء والزعماء ابواباً خارج الحسبان لما احتوى عليه من نظريات اجتماعية ومحاكمات تاريخية ومرويات لا يقبلها الشك او القدح .. وافشائه اسراراً من بطون التاريخ خفيت حتى على أهل النظر زهاء ثلاثة عشر قرناً .. فصار من بعده المؤرخ يمشي على ضوء العلم والناقل يعتمد في تصحيح روايته على هذا الكتاب كل ذلك مضافاً الى ثقة العالم الاسلامي بمؤلفه العلامة الحجة الذي اسدى الى العلم والدين خدمات عظيمة يذكرها له التاريخ جيلاً بعد جيل .. وان أهل العلم والفن واثقون كل الوثوق بحصره المدارك لآرائه ومروياته من اوثق المصادر ومن كتب مؤلفة قبل الاربعمائة الهجرية .. حتى انه قال في بعض مؤلفاته ما نصه: « التاريخ المدوّن بعد الاربعمائة ضعيف الحكاية عما قبله .. لصيرورة اقلامه بيد غير اعلامه .. وسوء تدخل الآمراء في استخدامه .. حتى انقسم الناس في مذاهب التاريخ شيعاً واحزاباً فوق ما هنالك من ضعف الصدق والضبط وانتشار الجهل والخبط) .

ولقد اهتم بهذا الكتاب الجليل الخطباء والمحدثون اهتماماً عظيماً .. هذا يستظهره حفظاً .. وذاك يقرؤه على الجمهور نصاً .. حتى قال فيه « الاستاذ محمد فتحي زغلول باشا » من اعلام القضاء والسياسة في مصر في

محرم من سنة ١٣٤٦ هجرية الموافق لسنة ١٩٢٧ ميلادية عندما حضر مأتم سيدنا الامام الحسين عليه السلام في تكية الايرانيين بالقاهرة قال : (انني منذ خمسين سنة لا أحضر في مثل هذه المآتم إلا مجاملة للطوائف .. لأنني كنت معتقداً ان مثل هذه المآتم غير مشروعة .. كما كنت ألوم في نفسي خروج الامام الحسين (ع) بعياله الى أرض كربلا .. وبعد اطلاعي على كتاب «نهضة الحسين أصبحت اعتقد بأن الحسين (ع) انما قام بواجبه الديني والسياسي معاً .. وان وجود مثل هذه المآتم ينفخ في الناس روح الأباء .. ويورثها قوة الارادة في الحق » .

وكتب سماحة الامام الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء عن هذا الكتاب عام ١٣٤٦ هجرية ــ ١٩٢٧ ميلادية ما نصه :ــ

كتاب « نهضة الحسين « الأثر الجليل الذي ما زلت أنوّه به وأحث عليه منذ ان رأيته قبل برهة .. لا رعاية لحقوق الصداقة والاخوة .. بل عناية بحقوق الحق والمروة .. فانه من الآثار الخالدة التي هي من كتب الدهر لا من كتب العصر .. ومن الجاريات مع الأبد لا السواريات الى أمد .. ومثل هذه الكتب هي التي تنضج الافكار وتنشط العزائم وتبعث في مطالعيها روح الهمة للتفاني على الحق .. والتهالك على الأباء وعزة النفس ..

وكتب في نفس السنة فيلسوف مصر الشهير العلامة الشيخ طنطاوي جوهري بشأن الكتاب ما نصه :

كتاب « نهضة الحسين » لاضلاّمة العصر وفريد الدهر صاحب السماحة السيد هبة الدين الشهرستاني ادام الله فيضه عبرة لمعتبر وحمكة لمستبصر وآية كبرى ونعمة عظمى بعث من شقاوة الأمة سعادة ومن الموت حياة ومن أعظم المآتم أجل المواهب .. كتاب تجلت فيه الروح الحسينية فرفرفت على قلوب قارئيه من المصلحين ولطالما قرأنا هذه القضية في الأخبار والسير .. وتصفحنا كثيراً من الرسائل والكتب ولكن ليس المدار على الروايات ونشرها ولا الأخبار وذكرها .. وانما السير للعبر والمبتدأ للخبر .. ولعمري لم تقع عيني على صفحة منه إلا وجدت في النفس انكاراً للذات وشوقاً الى ورود حوض المنايا لرفع الأمة واحتقار الشأن والحياة بما في الكتاب من الاسلوب

الذي يسحر الالباب .. هذا الكتاب أشتق من بؤس المسلمين بقتل ابن الرسول (ص) شوق الأحرار الى التضحية واحراز قصب السبق في سبيل الله وطلب المجد من أفضل المنى بالمنايا يتسابقون اليها زرافات ووحدانا . ولقد تبين من هذا الكتاب صدق ما قاله لي منذ سنة بالاسكندرية العلامة الفاضل السيد العبيدي مفتي الموصل ما نصه :

«أن للشيعة في نهضة العراق يداً تذكر فتشكر وعزيمة لاتفل ولا تقهر» وان روح الأخلاص وانكار النفس وعشق الفضيلة لا ينالها إلا قوم أحسوا بشرف النفس وعزتها وعظمة الآباء والاجداد .. ولا يتم ذلك إلا بذوي الفصاحة والبيان والقلم .. اولئك الذين يبذرون في الامم بذور الحماسة والاخلاص .. وبهم يقتدي المقتدون ويظهر المصلحون كالعلامة السيد هبة الدين .. فلله درك ايها المصلح الكبير .. هذا وابدي رجاءً انبعث من قلبي بمصر الى فضيلتك بالعراق .. ان تولي وجهك شطر الأمة المحمدية عموماً فوق ما عملت لها سابقاً .. وتنظر الى مأتمها العام «الجهالة والمذلة والتفرق» فتخطو بها بسحر بيانك الى العلم لتخرجها من الذل وتجمع لها الشمل ذلك رجائي فيك وللآخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى .. والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين .

وكتب الفريق الركن جعفر باشا العسكري يوم كان رئيسا للوزارة العراقية واطلع على الكتاب في ١٥ــ٥ــ١٩٢٧ ما نصه :

« لقد قرأت بعض فصول كتاب « نهضة الحسين » فرأيته على جانب عظيم من النفع والاصلاح شأنكم في الموضوعات الجليلة التي تخوضون غمارها . وفي الحقيقة انه كتاب قيم لم ينسج احد على منواله .. ومفيد كل الافادة للنشىء الحديث الذي ينبغي ان تثقفهم ثقافة عربية اسلامية صحيحة .. والامام الشهيد ولا غرو زعيم هذه الثقافة المستندة الى دعائم ثلاث .. الاخلاق الفاضلة والعروبة والمصلحة الأسلامية العامة .. »

وكتب المربي المعروف الدكتور محمد فاضل الجمالي رئيس المفتشين في وزارة المعارف العراقية ومديرها العام سابقاً في مجلة « الكلية » السورية في

عددها لشهر تشرين الثاني ١٩٢٧ حول هذا الكتاب ما نصه :

« ان اكثر الكتب التي كتبت عن مقتل الحسين (رض) لم تكن لتعتني بالوجهة التهذيبية النفسية لهذه الحادثة الجليلة .. بل كانت سلسلة روايات واوصاف وضعت في قالب عتيق يمجه ذوق الطالب العصري وينفر منه .. اما كتاب « نهضة الحسين » فقد جاء باسلوب جديد يجذب الطالب المتجدد ويفيده علمياً وخلقياً .. ولا عجب فان العلامة الشهرستاني قد وقف على افكار الشبان المتجددين من أبناء هذه البلاد فعرف اذواقهم وأدرك مواطن الضعف فيهم وما احوجنا اليوم الى أناس يقتدون به فيظهرون محتويات كتبنا العتيقة في ثوب قشيب واسلوب جديد وان عملاً كهذا حسب ما اعتقد سيزيل كثيراً من سوء التفاهم الموجود بين طبقة الشبان المتجددين ورجال الدين .. ولا سبيل لتقدمنا اليوم إلا بالتفاهم المتبادل .

إن الطريقة التي يتبعها علماء التربية اليوم في تهذيب اخلاق النشىء وتقويمها هى طريقة المثال الأعلى .. وذلك بان يقدموا للنشىء سير الابطال ورجال الفضيلة بصورة تجذب عواطفهم وتملك قلوبهم .. فيجعلون صورة أولئك الاشخاص ابداً نصب أعينهم فيجتهدون في تقليدها والنسج على منوالها .. وها ان العلامة الشهرستاني قد نصب صورة الحسين (رض) وشخصيته مثالاً اعلى لشبان اليوم في اتباع الحق والجهاد في سبيل المبدأ والسعي وراء نشر الفضيلة ومحاربة الظلم والاستبداد .. كل ذلك بهمة لا تعرف الملل .. حتى ضحى النفس والنفيس في سبيل الحق والمبدأ .

لنترك البحث في منزلة الكتاب التاريخية فانها لا تعد شيئاً أمام قيمته التهذيبية الاجتماعية .. اذ ما أحوجنا اليوم الى شبان يتعلمون درس انكار الذات وتضحية النفس في سبيل الحق والفضيلة من الحسين (رض) .

اذن فكتاب « نهضة الحسين » كتاب تهذيبي اخلاقي قبل كل شيء .. وهو لا يخص ابناء الطائفة الشيعية فقط بل شبان العالم على اختلاف مللهم ونحلهم .. وما هو بكتاب طائفي بل هو كتاب تهذيبي عام حري بالناطقين بالضاد ان يقرأوه ويضعوا شخصية الحسين (رض) كما يصورها هذا الكتاب

نصب اعينهم .. فانه مثال الايمان والثبات والتضحية » .

وكتب امير النثر العربي انيس شهاب العلوي الحضرمي في جريدة « حضرموت » التي تصدر في جاوه في عددها ١٢٣ الصادرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٧ ما نصه :

« السيد هبة الدين الحسيني رجل العلم والدين وبطل الاصلاح والنهوض ، وهو بشهرته الذائعة وسمعته الطائرة وصفته المنتشرة غير مفتقر الى النعت وفي غنى عن التعريف .

اخرج للناس حديثاً كتابا قيما ومصنفا نفيسا وسمه بـ « نهضة الحسين » وأفرغه في قالب بديع وصاغه خصيصا وقدرة لتخليد ذكرى هذه النهضة التاريخية الفريدة التي هي نواة ما تلتها من النهضات التي تكافح الاستبداد والاثرة وتصارع البغي والطغيان وتنافح بسيف الواجب والفضيلة وتمشق حسام الحق والصدق وتطعن برمح العدل والايمان .. وقد أتى فضيلة المؤلف في هذا السفر الثمين على سلسلة الحوادث التاريخية حول فاجعة الامام سيدنا الحسين السبط بن علي بن ابي طالب عليه السلام المأخوذة من أوثق المصادر .. ناهجاً منهجاً فريداً في تعليل الحوادث وسرد المقدمات وترتيب الوقائع وتحليل الأسباب بأسلوب فلسفي هالة ذلك الاشراف الانشائي ، ويترشح منه ندى تلك الطلاوة التحبيرية التي تأبى ان تفارق منشئآت هذا التحرير الجامع ومدبجات هذا الجهبذ الحجة .

وقد متعنا النظر وسرحنا الطرف في مطالعة هذا الكتاب الثمين الذي يدخر كميراث كريم للأعقاب .. ويقتنى كعِلقٍ نفيس لا تبور دراريه ولا تكسد جواهره ، أني تطاولت العهود وتمادت الاحقاب . وكأن الفكر والخيال يرفرفان ويتغلغلان في فضاء استعراض تلك الادوار العصبية وفي المرور بحوادث تلك الذكريات المؤلمة التي طغى فيها تيار الباطل على معاقل الحق ، وظهر فيها عتو الملك العضوض وبطر العصبية المهلكة على تقديس المباديء المحمدية والوقوف مع التأسيسات الأحمدية .. وكيف كانت سيوف الظلم والبغي تعمل أخاديداً في أديم هذه البسيطة بما تسفكه وتجريه من سيول الدماء الزكية التى أهدرت من فروع دوحة النبوة وعترة الرسالة

واهريقت من ضحايا قرناء الكتاب والسنة وسالت من قرابين ثقل النجاة والعصمة ، الذين سجلوا شهادة الاستماتة في الاعتصام بالكتاب والسنة ،وفي الاستمساك بالواجب والفضيلة بما رقمه الهندي واساله على ظباته من مهجهم العزيزة ثم كيف حاق الخذلان بالذين قال القائل ملمحا بخيانتهم « السيوف عليك والقلوب معك » وكيف كانت الصوارم المتحزبة للملكية والعصبية أمضى واصدق من القلوب المنطوية على الأيمان بالرسالة الاحمدية والافئدة المضمرة الود للعترة النبوية . وهيهات جدوى تمنيات أفئدة متذبذبة في الود ، مترددة في الصدق مع تألب قواضب قواضٍ على العدل ، وأجلاب خيل ورجلٍ ، لأرواء غلة الانتقام ، واشباع نهمة الجهل .

وهكذا كان الفكر والخيال يتعرضان كل هذا ، ويسبحان في أودية المقابلة بين سطوع وتلألأ تلك الفضائل الزهراء ، وبين فحمة وظلام الرذائل النكراء ، التي جاء هذا الكتاب وافياً بتحقيقها وتحليلها .. الخ » .

هذه بعض الكلم التي صدعت بفضل هذا الكتاب من اعلام الكتاب وأهل النظر اشارة الى قيمته المعنوية وايماءً الى طرق الاستفادة منه .

لذلك وبعد ان نفدت جميع نسخ الطبعة الاولى لكثرة توارد الطلب عليها من كل صوب وحدب ، رأينا ضرورة اعادة طبعه خدمة للحق والعلم مع التنبيه على أن هذه الطبعة تمتاز عن الاولى باضافة « الفصل الخامس » واضافات في الهوامش وتصحيح بليغ ودقيق .. ومن الله وحده نرجو المعونة والتوفيق .

الناشر

الحاج علي الجابري

١ ذي العقدة ١٣٥٥

بغداد ـ الاربعاء ١٣ كانون الثاني ١٩٣٧

مواضيع الكتاب

ص

٥ ـ حياة المؤلف
١٤ ـ آثاره العلمية
١٦ آثاره المخطوطة
١٨ ـ المشروطة والاستبداد
٢٧ ـ وفاتـــه
٣٠ ـ نماذج من شـــعره
٣٥ ـ مقدمة المؤلف
٣٧ ـ النهضة الحسينية
٣٩ ـ خلافة يزيد وخلاف الحسين له
٤٢ ـ أهلية الحسين للخلافة
٤٤ ـ الحسين رمز الحق والفضيلة
٤٥ الحركات الاصلاحية والضرورية
٤٧ ـ آثار الحركة الحسينية
٤٩ ـ الفضيلة والرذيلة
٥٠ ـ سلسلة عوامل النهضة
٥٤ ـ مبادىء قضية الحسين
٥٧ دوافع يزيد الانتقامية
٥٩ ـ معاوية وتعقباته
٦٠ ـ تأثرات الحسين الروحية
٦١ ـ كيف يبايع الحسين
٦٣ ـ البيعة ليزيد
٦٦ ـ نظرة في هجرة الحسين
٦٩ ـ هجرة الامام من مدينة جدة
٧٠ ـ الهجرة الحسينية وانقلاباتها
٧٢ ـ الحسين وابن الزبير
٧٣ ـ وضعية الامام في مكـة
٧٤ ـ الحسين يختار الكوفة
٧٥ ـ بنو امية والخطر الحسيني
١٤٩ ـ تاريخ العزاء الحسيني
١٥١ ـ مظاهر العزاء في العصر الاموي
١٥٥ ـ عزاء الحسين في العصر العباسي
١٥٩ ـ مجالس النياحة لعزاء الحسين
١٦٠ ـ بدء المواكب والحسينيات
١٦٢ ـ اهتمام الاقطار بعزاء الحسين

ص

٧٧ ـ الكوفة بنظر الحسين
٧٩ ـ خروج الحسين من مكة
٨٢ ـ ابن زياد على الكوفة
٨٤ ـ مقتل مسلم وهاني
٨٨ ـ حالة الحسين بعد مقتل مسلم
٩١ ـ مقابلة الحر للامـام
٩٤ ـ الكوفة تقاد الى الحرب
٩٦ ـ ولاية ابن سعد وقيادته
٩٨ ـ منزل الحسين بكربلا
٩٩ ـ جغرافية كربلا القديمة
١٠١ ـ الامام مصدود محصور
١٠٤ ـ الحسين مستميت ومن معـه
١٠٧ ـ رسل السلام ونذير الحرب
١٠٨ ـ حول معسكر الحسين
١١٠ ـ عطاشى الحرب في الشريعة
١١٢ ـ اهتمام الامام بالموعظة
١١٥ ـ الحسين ينعى نفسه لاخته
١١٧ ـ السباق الى الجنـة
١١٩ ـ مقتل على شبه النبي
١٢١ ـ توبة الحر وشهادته
١٢٣ ـ اصدق المظاهر الدينية
١٢٦ ـ الطفل الذبيح
١٢٨ ـ العطش ومقتل العباس
١٣٠ ـ الشجاعة الحسينية
١٣٢ ـ مصرع الامام ومقتله
١٣٧ ـ زينب في عاصمة ابيها
١٣٩ ـ السبي النبوي في قصر الامارة
١٤١ ـ في الشام عاصمة امية
١٦٣ ـ عزاء الحسين في امريكا الوسطى
١٦٤ ـ عزاء الحسين في العتبات المقدسة
١٦٥ ـ عزاء التشابيه والتمثيل
١٦٨ ـ مجالس العزاء الحسيني
١٧٠ ـ كلمة الناشر للطبعة الثانية
١٧١ ـ التقاريض للاعـلام

NAHDAT AL HOSSIAN

BY

SIAD HIBATADILV AL SHIARISTANI

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

AL TADAMON PRESS.

1969 – 1389 H.

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 02821 4966
BP80.H8 S52n 1969 Nahdat al-Husayn